الوجودُ الخَلقي

(مِنَ اللاشيء عدمًا إلى الاستخلافِ)

أ د. عقيل حسين عقيل

أستاذ التنمية البشريَّة والخدمة الاجتماعيَّة

جامعة طرابلس كلية الآداب

2024م

المحتويات

المقدِّمةُ 4

الوجودُ مِن اللاشيءِ إلى الشَّيء خَلقًا.................. 7

وجود اللاشيء خلقًا: 7

وجود الشَّيء: 22

الوجودُ البشري خَلقًا:.................................. 30

الخَلقُ: 33

الكون خَلقًا: 38

المخلوقُ: 41

الوجودُ عدمًا:.. 42

العدمُ بين النَّفي والإثبات: 71

أدلةُ وجود العدم على العدم: 73

أحوالُ العدم في الإنسان: 76

العدمُ ظاهرٌ وخفيٌّ: 80

علاقة العدم بالوجود:................................... 84

التهيؤ للاستخلاف:...................................... 97

التهيّؤُ بالدِّرايةِ: 98

الخليفة: 118

الخِلافُ على الاستخلافِ: 160

مصدرُ مادّة خَلق الإنس: 163

خَلقُ الجنَّ:...170

حواراتُ ما قبل الخليفة:............................174
حوارات ما بعد الخَلق:..............................179
الاعتبار الاستخلافي في الخطاب الإلهي: 192
عُصور دوائر التَّاريخ خلافًا: 201
التَّاريخُ نُقلةٌ من السَّماءِ إلى الأرضِ: 202
التَّاريخُ نُقلةُ الاستخلاف في الأرضِ: 207
الاستخلاف بين الإيمان والكفر:.......................216
رسولُ الكافَّة تُخلفهُ الكافَّة:...........................237
الخلافةُ بعد رَسُول الكافَّة:...........................242
التَّاريخ نُقلة خِلافًا من بعد الخلافة: 249
الاستخلافُ عدالة: 255
الاستخلافُ عدلٌ وتوافق: 271
الحكمُ استخلافٌ: 278

المقدِّمةُ

إنَّ البحثَ في هذا الموضوع (الوجود الخَلقي من اللاشيء عدمًا إلى الاستخلاف)، أخذَ جهدًا ليس هينًا، تمكنَّا به مِن معرفةٍ مضافةٍ لعلَّها تكون بين أيدي القرَّاء معرفةً ميسَّرة من خلال ما نقدِّمهُ في هذا المؤلَّف.

لا شكَّ أنَّ البحثَ في علم الوجود طُرقهُ شائكة، وأساليبهُ متعدِّدة، ومناهجهِ كذلك؛ ومع ذلك ليست بمستحيلةٍ، ومن هذا المنطلق خُضنّا هذا الموضوع بحثًا؛ حتى تمكّنَّا في دائرة الممكن من الإلمام به فكرًا ودرايةً، وما يَسَّر لنا هذا الأمر هو ما سَبق لنا أنْ نظّرنا له في مؤلَّفنا (نحو النَّظريَّة خَلقًا ونشؤًا وارتقاءً)، وهذه النَّظريَّة تعدّ هي المصدر الرَّئيس لمؤلَّفنا هذا بعد كتاب الله وسنَّة نبيِّه محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام.

وكان تركيزنا على الوجود الخَلقي (خَلق الإنسان) الذي أنبته الله من الأرض نباتًا، غير أنَّ ذلك الإنبات كان لاحقًا لموتٍ سَابقٍ أُحيي منه الوجود الخَلقي كُلَّه؛ إذ كان الوجود مرتكزًا على إحياء، ثمَّ موتًا، ثمَّ إحياء، ثمَّ الوقوف بين يدي الله تعالى؛ حيث لكلٍّ حسابة (ثوابًا أو عقابًا).

في هذا المؤلَّف كان الحوارُ مع المفكِّرينَ وفقًا لما نظَّروا وكتبوا في هذا المجال جدلًا عميقًا، لكنَّه الجدل الذي منه تُولَّد المعلومةُ مِنَ المعلومةِ، ومنه تصحح المعلومات الصَّائبة المعلومات الخاطئة، ومع ذلك ليس بالأمر الهيِّن أنْ يكون الاتفاق مع البعض، حتى وإن كانت الحُجَّةُ أمرًا منزَّلًا من الله تعالى.

إنَّ البحثَ في معرفةِ الكون المتمدّد متسارعًا؛ يتطلَّب مزيدًا من البحث المعمَّق، كما أنَّه يتطلَّب تعاونًا واسعًا بين بني الإنسان؛ ذلك

الإنسان الذي خَلقه الله تعالى في أحسنِ تقويم، بغايةٍ أنْ يكون خَليفتَهُ في الأرضِ التي شاكسهُ إبليس فيها، وما زال مشاكسًا، كما سبق وأنْ استغربت الملائكة بأنْ يكون الإنسُ هو المكلّفُ بهذه المهمَّةُ الاستخلافيَّة.

في هذا المؤلَّف طُرحت تساؤلات كثيرة، وظهرت لنا غرائب وعجائب كثيرة، تُبهرُ الأبصار، وتنير العقول، وتطمئن القلوب، وتُريح الأنفُس، وتحفّز على مزيدٍ من البحث، وهذه كلَّها لن تتحقّق ما لم تُفتح أبواب الوجود بحثًا، وأبواب العدم معرفة، وأبواب الشّيء واللاشيء علمًا، وأبواب الاستخلاف في الأرضِ درايةً واستنارةً.

في معارفنا السَّابقة كنَّا ندري بالشّيء ونعرفه، وفي المقابل لم نكن نعرف اللاشيء، إلَّا أنَّ المزيد من البحث يُمكّن من المزيد العلمي والمعرفي الذي بدوره يُمكّنَ مِن التمييز بين هذا وذاك، ثمَّ يُمكّن من أن يُصبح لك رأيٌ يضاف إلى تلك الآراء التي سبقتك بحثًا علميًّا.

أمَّا الاستخلاف في الأرض الذي بدأ الحوار حوله والاختلاف في السَّماء بين الملائكة وآدم وإبليس، ما زال الحوار والخلاف عليه بعد الانفتاق العظيم الذي به أهبط بالمتخالفين أرضًا على الأرض الدُّنيا. إلَّا أنَّ الاستخلاف أخذ اشكالًا غير التي كانت والأرض رتقًا مع السَّماوات العُلى.

أخذَ الصِّراع على السُّلطة بين مَنْ يحكم مَنْ، ومَنْ ينبغي أن يسود خليفةً على حِساب مَنْ، ومَنْ يملك الإرادة في المواجهة صراعًا داميًا؛ ومن هنا ظلَّت رحى الصّراعات والصِّدامات والنزاعات والاقتتالات

الدَّمية تدور على حساب سيادة الخليفة الذي خُلق لأنْ يكون خليفةً الله في أرضه.

من خلال البحث في هذا الموضوع الشَّائك كانت حَلقات التَّاريخ تَمدُّنا بتلك التَّجارب، وتلك الظّروف الخاصَّة والعامَّة، وتلك المعلومات السَّاندة والوافية، سواء في زمن العلاقة بين السَّماء والأرض التي كانت المعجزات فيها تتنزَّل على الرُّسُل الكرام، أم تلك الفترات التي تعاقبت من بعدهم بصراعات دامية واقتتالات طالت صحابة رسول الله الذي اصطفاه الله تعالى للكافَّة.

أ د. عقيل حسين عقيل

أستاذ التنمية البشريَّة والخدمة الاجتماعيَّة

جامعة طرابلس كليَّة الآداب

2024م

الوجودُ مِن اللاشيءِ إلى الشَّيء خَلقًا

مع أنَّ الوجود إثباتٌ في ذاته، وليس بحاجةٍ لمن يُثبت وجوده، فإنَّ الوجود بين دقّة الصّغر المتناهية فراغًا وظُلمةً جعل العقول وأهل الدِّراية في حيرةٍ من أمرهم يتساءلون، ويتجادلون ويتحاجُّون، حتى أنزل الله آياته الدَّالة عليه قطعًا.

ومع أنَّ الله تعالى أنزل الحقَّ المبين دلالةً ومعنًى، فإنَّ البعض ما زال في حيرته يبحث، والبعض أخذ طريقًا لم تمكّنه من التمييز بين الممكن والمعجز والمستحيل؛ فبقي تائهًا، امَّا الذين استطاعوا أن يفرِّقوا بين الممكن والمستحيل والمعجز فقد كانت لهم القراءة على البيّنة حيث لا لبس ولا غموض.

ومن هنا فإنَّ الوجود من اللاشيء إلى الشَّيء هو وجود الماهيَّة، ثم وجود الهيئة التي تكون عليها صورة الخلائق والأشكال، سواء أكانت أكوانًا طباقًا، أم أنَّها كانت كواكبًا ونجومًا، أم إنَّها من هذه أو تلك قد خُلقت كما خُلق آدم وزوجه من صلصال كالفخار؛ كونهما قد أنبتا من الأرض نباتًا، وعلى الهيئة والصُّورة الآدميَّة التي ها نحن بني آدم عليها.

وجود اللاشيء خلقًا:

اللاشيء هو ذلك المخلوق وجودًا على غير خاصيَّة ولا صفة خاصَّة به؛ سواء أكان ظُلمة، أم فراغًا، أم مادَّة كونيَّة غير مصنَّفة؛ كونها خالية الصّفة؛ ولذا فالدِّراية باللاشيء لا تكون إلَّا علم غيب يُنبَّئ به إنباء (رُسُل ورسالات)؛ ولذلك فخَلق هيئة الشَّيء تسبق جعله شيئًا، وهيئات

الأشياء تأخذ في التناهي كبرًا وصغرًا، فما يظهر منها للمشاهدة والملاحظة الحسيّة يعدُّ شيئًا، وما يختفي عنها يعدُّ لا شيئًا.

وخَلقُ اللاشيء يدلّ على شيءٍ مختفٍ في ذاته أو محيطه؛ حيث لا صفة له سوى صفة الخَلق التي هُيئت له خلقًّا، وجُعل على هيئتها اللاشيء؛ ومن ثمَّ فلا يعدُّ اللاشيء شيئًا إلّا بعد معرفته واكتشافه على الهيئة والصّفة التي عليها سيصنَّف خصوصيَّة.

أمَّا الشَّيء على الرَّغم من أنَّه قابل للمشاهدة والملاحظة، فإنَّه لا يقتصر عليهما؛ إذ هناك من الأشياء ما لا يشاهد: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ}[1]؛ فالكتاب مع أنَّه يشاهد فإنَّ ما يحتويه الكتاب لا يشاهد، بل يُدرك إدراكًا، فلو قلنا: الجهل شيء، نقول: التعلّم شيء آخر، ولو قلنا: الأميَّة شيء، نقول: الدراية شيء آخر، وإذا قلنا: الحقّ شيء، فالباطل شيء آخر، وسيظل الجهل لاشيء حتى يتحقّق، وسيظل التعلّم لاشيء حتى يتحقّق: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ}[2]؛ فالسَّاعة بعد علمنا بها فهي المتحقّقة علمًا ودرايةً؛ (كونها تعني شيئًا معلومًا)، وفي المقابل لحظة قيامها تعني: لا شيء معلوم.

ولأنَّ اللاشيء المتناهي في الدّقة يملأ الكون، فهو إنْ قُورن مع الشَّيء من حيث المساحات التي يشغلها من الكون، يصبح الشَّيء لا شيئًا أمامه، ويكون اللاشيء هو الشَّيء العظيم، ولكن إن كانت المقارنة من حيث حجم المفردات الشيئيَّة واللاشيئيَّة فلا شكّ تكون الغلبة

[1] النحل: 89.

[2] لقمان: 34.

للمفردات الشيئيّة الظَّاهرة حجمًا كالكواكب والنّجوم، وهكذا كلّ شيء في دائرة المقارنة النسبيَّة يتبدّل ويتغيّر بين متوقَّع وغير متوقَّع.

فاللاشيء الذي يملأ الكون وجودًا يعدُّ مادّة خَلق الأشياء، فتلك الأجسام المتناهية في الصّغر لو جمِّعت بقوَّة الطّاقة والحركة الكونيَّة، لكوّنت شيئًا عظيمًا يمكن أن يكون بحجم نجمٍ أو كوكب، ومن هنا نستطيع القول: إنَّ هذا الشَّيء المتولّد بالطّاقة الكونيَّة أصبح بإرادة المشيء له شيئًا، مع أنَّه لم يكن مِن قَبل شيئًا.

ولذلك فاللاشيء هو المهيَّأ لوجود الشَّيء وفقًا للهيئة التي هيَّأها له الخالق، ومن ثمّ فوجود اللاشيء سابق على وجود الشَّيء.

ولأنَّ وراء كلّ مخلوق خالق والشَّيء مخلوق، إذن فمن ورائه خَالق، وإلّا هل هناك مَنْ يظن كما ظنّ لورانس كراوس أنَّ اللاشيء خُلق هو الآخر من لا شيء؟

أقول: بما أنَّنا نصفه باللاشيء، إذن فلا يمكن أن يكون خالقًا؟ أي: لا بدّ أن يكون مخلوقًا، وبما أنَّ الشَّيء مخلوق من اللاشيء، واللاشيء من ورائه خَالق، إذن لا بدّ أن يكون الشَّيء مخلوقًا ومن ورائه خَالق لم يسبقه خَالق: {وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ}[3].

إذن: اللاشيء لو لم يكن موجودًا ما تحدثنا عنه، ولأنَّه موجود فهو قابل للنّفي والإثبات، وإلّا هل هناك من ينفي وجود شيء أو يثبته لو لم يعرفه أو يعلم عنه، أو أنَّه به أُعلم وأُدري؟

---

[3] الواقعة: 60.

وبما أنَّنا نتحدث عن اللاشيء إذن نتحدث عن شيء حتى وإن لم نتمكّن من رؤيته، ولكن ما الفرق بين اللاشيء والشَّيء؟

اللاشيء هو الذي على الرَّغم من وجوده نجهله، وبتناهيه في الصّغر لا يخضع للمشاهدة العينيَّة، ولكن إن حال بينه وبين معرفته جدار عاتم يمنع مرور الضّوء عبره فلا يخفيه عن خالقه: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ}[4]، وفي المقابل الشَّيء نعلمه، ونشاهده، ونلاحظه، وندركه، ونحسُّ به، أو نستشعره، أو نفكّر فيه.

ولأنَّ اللاشيء لا يتولّد إلّا في دائرة المجهول؛ فسيظل هناك لاشيء حتى لحظة اكتشافه التي من بعدها يصبح شيئًا وإنْ كان متناهٍ في الصّغر والدّقة.

فاللاشيء هو على غير صفة، أي: لو كان على صفة لكان له مسمّى، ولأنَّه يفتقدها، فهو لا شيء، أمَّا الشَّيء فله صفة ومسمى، مثل: الأرض، والشّمس، والقمر، ومثل: الكائنات والأدوات المشاهدة وغيرها من المتنوّع والمتعدّد.

وكما يتمدّد اللاشيء في دائرة المجهول نكرة، فكذلك الشَّيء يتمدّد نكرة حتى يتمّ تمييزه: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ}[5]، فشيئًا هنا تعني: المجهول والمعلوم؛ إذ لا تحديد لشيء بعينه.

---

[4] آل عمران: 5.

[5] البقرة: 216.

أمَّا اللاشيء فيعدُّ مادّة خَلق الشَّيء أو طينته التي لو لم تكن مخلوقة ما خُلق الشَّيء منها: {وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا}[6]، فالإنسان كونه شيئًا، تعني: أنَّه كان لا شيئًا، سوى وجود عناصر خلقه مبعثرة في تراب الأرض جنّة؛ وذلك عندما كانت مرتقة في السَّماء، واللاشيء مثله مثل الشَّيء لا بدَّ وأن يشغل حيّزًا، وإن كان الحيّز متناهٍ في الدّقة والصّغر ومبعثرًا في التراب.

وعليه: وجب علينا تبيان ما يدلّ عليه مفهوم اللاشيء، حتى لا يؤخذ عنَّا ما أُخذ عن تنظيرات العالم الفيزيائي لورنس كراوس الذي قال: "إنَّ الكون خُلق من لاشيء، ولا خالق له"[7]، أي: لاشيء يمكن أن يشار إليه بالشَّيء قبل خلق الكون من لاشيء.

أمَّا نحن فأسّسنا تنظيراتنا وفقًا لقانون الخلق: (لا مخلوق إلّا ومن ورائه خالق)؛ حيث لاشيء إلّا ومن ورائه مشيء له، ممّا يجعل المشيئة سابقة على المشاء؛ ولذلك فالمشيئة قرار مسبق على خَلق شيء لم يسبق له أن كان شيئًا.

غير أنَّ العالم الفيزيائي كراوس يحاول أن يرسّخ نظريَّته: (كون من لاشيء) بمفهوم: (خَلقُ الكون بلا خالق)، معتبرًا أنَّ الكون قد خُلق من

[6] مريم: 9.

[7] A Universe from Nothing: Why There Is Something Rather than Nothing' by Lawrence Krauss (Free Press; January 10, 2012.

لاشيء، ثمّ يرى من زاوية أخرى أنَّ الكون كان نتيجة انفجار تلك الذَّرة المتناهية في الصّغر[8].

وإن سلّمنا بخلق الكون من لاشيء فهل الكون خَلق نفسه من لاشيء لحظة الانفجار، أم أنَّ خَلقه من لا شيء كان مترتّبًا على ذلك الانفجار، أم أنَّ خَلقه من لاشيء كان مرتبطًا بذلك المنفجر؟

وإذا سلمنا أنَّ (الكون خُلق من لاشيء) فهل خَلق نفسه عن تدبّر ودراية أم هكذا عبثًا؟ وإذا كان الانفجار هو سبب خَلق الكون من لاشيء، فكيف يخلق الكون من لاشيء والانفجار شيء في ذاته؟ وهل يمكن أن يحدث الانفجار لو لم تتوافر أسبابه؟ وكذلك هل يمكن أن يحدث الانفجار لو لم يتوافر له مكان وزمان؟ وكيف يُقبل أنَّ الكون قد خُلق من لاشيء وفي الوقت ذاته يقال: إنَّه المنفجر من شيء سابق عليه يسمي الذّرة؟

وإذا سلمنا أنَّ ذلك المنفجر هو ما وُصِف بالذّرة، أو النّقطة الصّغيرة فكيف يصحُّ لبعض الفيزيائيين وصفها ذرّة وهم لم يتمكّنوا من معرفةٍ تمكّنهم من الوقوف عند أثرها، وبخاصّة أنَّ لحظة الانفجار لا بدّ أن تكون فاصلة بين المنفجر وانفجاره وما سيترتّب عليه لاحقًا؟

وعلى الرَّغم من هذه التساؤلات والافتراضات فإن اكتشافات العالم الفيزيائي كراوس قد أحدثت نُقلة في علم الفيزياء، وبخاصّة تعريفه اللاشيء الذي لم يعدّ لاشيئًا؛ كونه كما قال: "يعج بالجسيمات

---

[8] المصدر السابق.

الافتراضيَّة، التي تظهر وتختفي من الوجود في فترات زمنية غاية في الصّغر، لدرجة أنَّه لا يمكن مشاهدتها"[9].

إنَّ قول كراوس: "إنَّ اللاشيء لم يعدّ لاشيئًا" هو بحقّ إضافة معرفيَّة لمعارفنا؛ لأنَّ اللاشيء لو لم يكن شيئًا، ما تحدثنا أو تساءلنا عنه، وإلّا هل يمكن لنا الحديث عن شيء لو لم يكن موجودًا؟ بمعنى: لو لم يكن اللاشيء موجودًا ما نفينا وجوده؛ ولهذا فالقاعدة العلميَّة تقول: (نفي اللاشيء يثبت وجوده شيئًا).

ومع ذلك فاللاشيء يُعدُّ المجهول المحيّر الذي تتوافر معطيات وجوده وهو لا يتوافر إلّا أثرًا دقيقًا، ممّا يُحفِّز البحاث على صياغة فروض أو تساؤلات علميَّة تستند على ما يتوافر من معلومات بهدف البحث عن الجزء المفقود منها، فالعالم كراوس انطلق من المشاهد الكوني إلى ما لم يكن مشاهدًا، حتى اكتشف أشياء متناهية الصّغر والدّقة، ولا يمكن رؤيتها بالمشاهدة العينيَّة، وعندما تقارن بالأشياء الظّاهرة للمشاهدة توصف بأنَّها لاشيء، أي: وكأنَّها لاشيءٍ.

إذن: فاللاشيء لا يعدُّ غير موجودٍ، بل يعدُّ غير مكتشفٍ، وغير مصنّفٍ، ومع ذلك فنحن مهما بلغنا من العلم نظلّ في حاجة للمزيد المعرفي حتى ندرك لا شيئًا، وندري به علمًا ومعرفةً: {وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[10].

---

[9] المصدر السابق.

[10] الإسراء 85.

وبما أنَّنا لم نؤتَ من العلم إلّا قليلًا إذن: فما نجهله من شيءٍ هو الأكثر؛ ولذا وجب البحث والتقصّي العلمي الممكِّن من معرفة ما نجهله حتى يظهر اللاشيء للوجود شيئًا معلومًا وعن درايةٍ.

إنَّ معرفة اللاشيء لا يقتصر على ما يمكن مشاهدته بالمناظير الدّقيقة، بل يمتدّ إلى ما يكتشف أثره، حتى وإن لم يخضع للمشاهدة، وفي هذا الأمر يقول كراوس: "على الرُّغم مِن أنَّنا لا نستطيع رصد الجسيمات الافتراضيَّة مباشرة، فإنَّنا نستطيع قياس آثارها بشكل غير مباشر"[11].

ومن ثمَّ فاللاشيء على الرَّغم من وجوده فهو المجهول معرفةً، ويوصف اللاشيء بهذه الصّفة اللاشيئيَّة لأنَّه غير المميّز بخاصيّة منفردة، ممّا يجعل الشَّيء واللاشيء في موقع النَّكِرة؛ حيث انتفاء أو غموض الصّفة والخاصيّة والنّوع.

ولأنَّ الاختلاف من أجل المعرفة الواعية ظاهرة موضوعيَّة أصدر العالم لورانس كراوس حُكمًا مطلقًا بأنَّ: (الكون خُلق من لا شيء)، ولكن بهذا الحكم اختلف بعض العلماء معه، وبعضهم خالفه مخالفة تامّة، وفي اعتقادنا الاختلاف والخلاف على الشَّيء لا يلغيه، بل يُثبته شيئًا.

ولأنَّ اللاشيء كما يقول الفيزيائيون يمثل 99% من كتلة الكون فهل هذا اللاشيء هو مادَّة خَلق الكون التي كما يقولون: خَلق نفسه منها، أمّ إنَّ اللاشيء هو ذلك الذي ليس له وجود؟

[11] 'A Universe from Nothing: Why There Is Something Rather than Nothing' by Lawrence Krauss (Free Press; January 10, 2012

وحتى لا يعلق في الأذهان شكّ أو ظنّ فإنَّ ما يقصده لورانس كراوس، بقوله: "الكون خُلق من لاشيء ومن دون خالق" هو أنَّ الكون قد أوجد نفسه من غير وجود سابق عليه، ومع العلم إنَّ كلمت (خُلق) في اللغة العربية تعني: أنَّه مخلوق من غيره، أي: ليس بخالقٍ لنفسه.

ومع أنَّ كراوس قد أصدر نظريَّته: (كون من لاشيء)، فإنَّ السّؤال: كيف جاء هذا الكون العظيم من لاشيء في الوقت الذي يقول فيه: "إنَّنا نعيش في كون يسيطر عليه "اللاشيء"؟ وأكبر طاقة في الكون تشكل 70% من الطَّاقة الكونيَّة، التي هي موجودة في الفضاء الخالي، ونحن لا نمتلك أيَّة فكرة عن سبب وجودها هناك"[12].

ومن هنا وجب فكّ اللبس والغموض الذي تثيره نظريَّة العالم الفيزيائي لورانس كراوس بقوله: "إنَّنا نعيش في كون يسيطر عليه اللاشيء"، وفي الوقت ذاته يقول: "خُلق الكون من لا شيء"، ثمّ يقول: "لا يعدُّ في علم الفيزياء اللاشيء بعد الآن لا شيئًا"[13].

وإذا كان اللاشيء يسيطر على الكون، وأنَّ اللاشيء هنا هو: المكتشف الذي تعرّف عليه كراوس، والذي قال عنه: "لا يعدّ في علم الفيزياء اللاشيء بعد الآن لا شيئًا" فكيف لنا بقبول ذلك، وهو قد أسّس نظريَّته على قاعدة: (كون من لا شيء)؟

فالكون لو خُلق من لا شيء فلا يمكن أن يسيطر عليه اللاشيء، وهو في هذا الأمر كمن يقول: خُلق الإنسان من تراب والتراب يسيطر

---

[12] المصدر السابق.

[13] المصدر السابق.

عليه، مع العلم لو سيطر التراب على الإنسان لما كانت للإنسان صورة إلّا جدارًا.

ومع أنَّ نظريَّة كراوس تأسّست على: "كون من لاشيء" فإنَّها تتحدث عن الشَّيء "الكون" المملوء بالأشياء (دقيقها وعظيمها)، وهي التي لا ترى خالقًا للكون.

وإذا سلّمنا بهذه المقولات المتناقضة فإنَّنا كمن يقول: خُلقت تلك الذّرة من تلك الذّرة، وخُلقت الأرض من الأرض، وخُلقت السّماء من السّماء، وخُلق الماء من الماء، وخُلق الإنسان من الإنسان!

إنَّ خلق الكون من لاشيء وفقًا لتعريف كراوس يعني: أنَّه خُلق من شيء متناهٍ في الدّقة، وقد ترك أثرًا، ولكن إذا أجزنا هذا؛ فمِن أين جاء ذلك اللاشيء المتناهي في الدّقة؟ أي: فمِن أين خُلق ذلك الشَّيء السّابق على خَلق الكون والذي يملأه لا شيئًا؟

فنقول: يعدُّ اللاشيء ما نجهله ونسعى لمعرفته، واكتشاف أسراره، وسيظل أمره محيّرًا للباحثين حتى يتمّ اكتشافه، وتقصّي الحقائق المخفيّة وراءه، ومعرفتها عن بيّنة ودراية؛ من أجل إضافة شيءٍ جديدٍ لمعرفة اللاشيء الذي يملأ الكون ظُلمة وعتمة.

أمَّا قول كراوس: "إنَّ معرفة الجواب لا تعني شيئًا، ولكن اختبار المعرفة يعني كلّ شيء"[14]. فأمره جدلي؛ كونه لا يرتبط بمسلّمة علميَّة، وبتحليل مفهوم المقولة: "معرفة الجواب لا تعني شيئًا" نعرف أنَّ المفهوم المقابل لها هو: "عدم معرفة الجواب تعني شيء" ونحن نرى أنَّ الجواب

[14] المصدر السابق.

شيء، ومعرفته شيء آخر؛ ذلك لأنَّ الجواب يتمدّد في دائرة الممكن في الحيّز (مِن..... إلى) ممّا يجعل (مِن) الطّرف المرسل للإجابة وهو: الذي يعرفها، ويجعل من الطّرف (إلى) اتجاه الهدف، أو الطّرف المستقبل للإجابة وهو: الذي يجهلها، وفي كلتا الحالتين: الجواب شيء، ومعرفته شيء آخر، ولكن من حيث الأهمية: الذي تتوافر لديه معرفة الإجابة مسبقًا لن يضاف إليه شيء؛ لكونه مصدر المعرفة، وفي المقابل الذي عرف الإجابة بعد أن كان يجهلها فقد عرف شيئًا جديدًا، ومن ثمَّ فالطّرف الذي يعرف الإجابة لن يعرف شيئًا جديدًا؛ ممّا يجعل محصّلته: (لاشيء)، أمّا الذي لم يكن يعرفها ثُمّ تحصّل عليها فقد عرف شيئًا.

وفي كلتا الحالتين السَّابقتين، التوقّف عند حدّ معرفة الجواب يعني: (اللاشيء)، ولكن الذي يعني شيء هو: معرفة الشَّيء في ذاته، وكيف خُلق ذلك الشَّيء: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}[15]، يفهم من هذه الآيات عدم وجوبيَّة التوقّف عند حدّ خَلق الأشياء التي منها: (الإبل، والسّماء، والجبال، والأرض)، فمع أنَّ هذه المخلوقات أشياء عظيمة، فإنَّ الشَّيء الأعظم معرفة الكيفيَّة التي خُلقت عليها الإبل، والكيفيَّة التي بها رُفعت السّماء، والكيفيَّة التي بها نُصبت الجبال، والكيفيَّة التي بها سُطحت الأرض، فهذه الكيفيَّات الخَلقيَّة تستوجب الانتقال درايةً معرفيّةً من الشَّيء المشاهد (الصّورة) إلى الكيفيَّة التي بها وعليها

[15] الغاشية: 17 . 20.

خُلقت الأشياء، ومن ثمّ تصبح معرفة الشَّيء أيسر بكثير من معرفة الكيفيَّة (اللاشيء).

ومع أنَّ الدِّراية باللاشيء عظيمة، فإنَّ معرفة الشَّيء أيضًا ضرورة ذات أهميَّة عالية؛ لأنَّنا لو لم نعرف الشَّيء عن بينة واختبار ما اكتشفنا اللاشيء دراية، ومن هنا فالمعرفة شيء، واختبارها شيء آخر، ولكلٍّ أهميَّته، أمَّا القول: بأنَّ "اختبار المعرفة يعني كلّ شيء" فلا يؤخذ بالمطلق، ولكن في دائرة النّسبيَّة ما يبدو لك مهمًّا قد لا يبدو لغيرك.

وإذا أجزنا مقولة العالم الفيزيائي كراوس: "اختبار المعرفة يعني كلّ شيء" فلا بدّ أن نُخضع ما قاله عن خَلق الكون من لاشيء إلى الاختبار والتجربة قبل أن نأخذ بمقولته، ولكن هذا ضرب من المستحيل؛ إذ لا إمكانيَّة لإخضاع الكون للاختبار والتجريب، فهذا الأمر يتعارض مع القاعدة الخلقية: "المحاط لا يحوط محيطه"؛ فعلى سبيل المثال: الزّجاجة المملؤة ماء، تظل محيطة للماء الذي يملأها، ولكن أن فرّغت منه وترك أمره حرًّا؛ فلا إمكانيَّة للماء أن يحوطها وهكذا: (كلّ شيء) أو (لا شيء) محاط لا يمكنه إحاطة ما يحوطه.

وبما أنَّ الكون كما يراه الفيزيائيّون يبدو مُسطّحًا، ويتمدّد متسارعًا في كلّ الاتجاهات، إذن: فلن يرسمَ بعدُ هيكلٌ واضحٌ للهيئة التي ينبغي أن يكون عليها كونًا.

وكذلك إذا كان الكون غير مكوّر فلا يمكن لأحدٍ أن ينظر أمامه ليرى مؤخرة رأسه، فهذه لا تتمّ إلّا على سطح الأرض المكوّرة، لكن

الكون حتّى وإن افترضناه مكوّرًا ونحن في قلبه فلا إمكانيَّة لرؤية ما على سطحه، حتى وإن كانت مؤخرات رؤوسنا.

ولأنَّ علماء الفيزياء يتحدّثون عن كونٍ منفجر ومتمدّدٍ، فهم يتحدّثون عن شيء معلوم الدّلالة، وغير معلوم الكيفيَّة، فهو معلوم الدّلالة من حيث خضوع كثير من مفرداته إلى المشاهدة والملاحظة، أمَّا كونه غير معلوم الكيفيَّة فهو من حيث لا أحد يعلم كيفيَّة خَلقه، ولا لحظتها، بل أصبح علماء الفيزياء يقرّون بوجود أكوان غير الكون الذي نعيش في قلبه، ممّا يدعو إلى القول: بأنَّ كوننا بما فيه من شيء ولا شيء، فهو شيء عظيم يدلّ وجوده على وجود أكوان أخرى نحن لا نعلم كيفيتها؛ حيث لا شيء يشاهد، ومع ذلك فإنَّنا دراية نعلم بوجودها كما نعلم بالسَّاعة التي لا نعلم بساعتها ولن.

ولكن إن تمكَّن عقل الإنسان من اكتشافها درايةً؛ فسنرى شيئًا أعظم: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}[16]، فماذا يعني قوله: {سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}؟ تعني: سبعة أكوان: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}[17]، هذه الآية تؤكّد أنَّ السّبعة أكوان هي أطباق فوق بعضها متوازية الوجود؛ حيث لا تماس، ولا اصطدام، كلّ في فلكه بين متمدّدٍ ويتمدّد وكأنَّه في الفراغ وحده يسبح.

[16] الطلاق: 12.

[17] نوح: 15.

ولأنَّ الأكوان خُلقت: (سماوات وأراضي) فسيظل اكتشافها في دائرة الممكن بين متوقَّع وغير متوقَّع؛ ولهذا أصبحت المؤشّرات بين أيدي علماء الفيزياء تدلّ على وجود أكوان خارج نطاق كوننا.

ومع أنَّ عالم الفيزياء كراوس لم يتمكّن من معرفة أيّ نوع من الأكوان هو كوننا، فإنَّه أصدر حكمًا بأنَّ الكون قد خَلق نفسه من لاشيء، وهنا أتساءل:

كيف يمكن له أن يحكم على الكون بأنَّه مخلوق من لاشيء، وفي الوقت ذاته لا يعرف ما يميّز الكون الذي يعيش فيه عن بقية أنواع الأكوان الأخرى؟

ولأنَّ لورانس قال: (خُلق الكون من لاشيء) فهو يرى لا ضرورة لوجود إله يخلقه، ولكن إنْ سلّم البعض بذلك؛ فالسّؤال:

هل كلّ كون قد خُلق من لا شيء كما هو حال الكون الذي نظّر له كراوس؟ أم إنَّ كوننا فقط هو الذي خُلق من لاشيء، وبقيَّة الأكوان من ورائها خالق؟

وكيف لنا قبول ذلك والعالم الفيزيائي يقرّ في نظريتَّهِ: (كون من لاشيء) بأنَّه لا استطاعة لرؤية الانفجار العظيم؛ حيث وجود جدار عاتم يمنع مرور الضوء عبره؟[18].

ومن ثمَّ ألا يكون هناك تناقض كبير بين قوله: "كون من لاشيء"، وقوله: "لا إمكانيَّة لمعرفة بداية خلق الكون من لاشيء"؟ وإذا لم يتمكّن

[18] New Mystery of Invisible Matter Generated by Cosmic Collision, www.space.com, 17 August 2007.

من بلوغ نقطة بداية خَلق الكون، فكيف لنا بحكم قاطع يقرُّ خَلق الكون من لاشيء؟

أي: كيف لنا أن نقرّ بخلق الكون من لاشيء، ونحن متيقّنين بأنَّه لا إمكانيَّة لبلوغ نقطة البداية، التي قد تُمكّن من معرفة ما إذا كان الكون قد خُلق من لا شيء، أم أنَّه قد خُلق من شيءٍ؟

ومع ذلك يقول العالم كراوس: "نحن نعلم بدقة 1% أنَّ الكون مسطّح، ولديه طاقة كلية تساوي الصّفر؛ ولذلك يمكن للكون أن يوجد من لاشيء، ومن تلقاء ذاته"[19].

عالم لا يمتلك من الحجّة إلّا 1% وبها يحكم حكمًا مطلقًا على أنَّ الكون خُلق من لاشيء، فهل يمكن أن تُجاز هذه الحُجّة وهي تفتقد 99% من الحقيقة؟

وفقًا لهذه النّسبة العالية التي تجيز عظمة اللاشيء أمام الشَّيء، يقول كراوس: "لو أزلنا من الكون كلّ شيء يُرى من نجوم ومجرّات وحشود مجرية فالكون لن يتأثر عمليًّا[20] يدلّ هذا النَّصّ: على أنَّ اللاشيء هو الصّفة الغالبة على وجود الكون وبخاصّة أنَّ كلّ الكون المرئي يمثل 1% في كون يحوي على 29% مادّة معتمة، 70% طاقة معتمة؛ وبذلك ليست لنا قيمة على الإطلاق[21].

عالم يرى قيمة الإنسان مادّة لا بدَّ له أن يحكم بانعدام قيمته، ولكن لو قَلبَ الإنسان الصَّفحة في أيِّ اتجاه من اتجاهات القراءة السَّليمة ليقرأ

---

19 المصدر السابق.

20 المصدر السابق.

21 المصدر السابق.

دراية قوله: {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}[22]، لأمكن له أن يتذكّر، ويتدبّر، ويفكّر، ومن ثمّ لأمكن له الأخذ بما يجب والانتهاء عمّا يجب، وهنا تكمن قيمة الإنسان وعظمة الخالق.

وجود الشَّيء:

الشَّيء دراية عقليَّة علم يقين؛ إذ الحقيقة بين يديك منزَّلة تنزيلًا مما يجعل للشّيء دلالة وجوديَّة تشير إلى المشاهد، والملاحظ، والمدرَك، ومع ذلك يعدُّ الشَّيء نكرة حتى يصنَّف، ولا يكون شيئًا إلَّا بفعل المشيء، ومن ثمَّ فلا شيء إلَّا والكينونة تسبقه خَلقًا؛ أي: لا شيء إلَّا من بعد كينونة (هيئة) يكون عليها قبل أن يكون على الصُّورة شيئًا.

ولأنَّه لا شيء إلَّا على هيئةٍ فكيف تهيَّأ الشَّيء كونًا قبل أن يكون شيئًا من لاشيءٍ؟

التهيّؤ للشيء لا يكون إلَّا عن علمٍ ودرايةٍ، وهذه لم تكن من مكوّنات الشَّيء، بل من مسبّبات وجوده، فلو لم تكن سابقة عليه ما تهيَّأ اللاشيء والشَّيء معًا شيئًا، ومع ذلك علينا أن نميِّز بين هيئة، ومهيئ، ومتهيء، ولتبيان ذلك أقول:

ـ الهيئة: هي القالب المجرد لما يمكن أن يكون عليه الشَّيء قبل أن يكون شيئًا، أي: إنَّها قالب الأشكال والصّور التي ستكون عليها أشكالًا وصورًا؛ فالهيئة هي ما ينبغي أن تكون عليه صورة الشَّيء أو شكله المادّي قبل أن تكون الصّورة أو الشّكل. والهيئة مثل الفكرة في عقل المفكّر أو الصَّانع والمصمم للأشكال والصّور.

---

[22] النمل: 88.

ـ المهيئ: هو من يعلم أمر الهيئة، ويجعل لها صورة قبل أنْ تصير شيئًا مفعولًا.

ـ المتهيئ: هو اللاشيء: (طينة التخلّق)، التي منها يُخلق الشَّيء، وبها يُميّز حتى يصبح على الهيئة شكلًا وصورة.

وعليه: فقاعدة خلق الشَّيء: (لا شيء إلّا على مشيئة، ولا مشيئة إلّا من مشيء): {يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ}[23]، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[24]؛ فهذه من مشيئة الخالق التي من خلالها ندري أنَّه يعلم ما لا نعلم.

ولهذا فالهيئة تصوّر تام للكينونة التي سيكون الشَّيء عليها قبل أن يكون شيئًا، والقاعدة: (المهيئ يسبق الهيئة).

وبما أنَّ الهيئة هي التي يُصوّر الشَّيء عليها فهي لا تصوّر إلّا بفعل المهيئ، والقاعدة: (الهيئة تسبق المهيَّأ).

ولأنَّ الشَّيء لا يكون شيئًا إلَّا على هيئة تسبقه؛ فالقاعدة: (الشَّيء يُفعل ولا يَفعل)، ومن هنا فالشَّيء نكرة لو كان يَفعل لخلق نفسه من لاشيء قبل أن يكون شيئًا، وهذا ما يراه كراوس، ونحن نرى لاشيء إلّا بفعلٍ، ولا فعل إلَّا من فاعل، ولأنَّ الشَّيء يفتقد قوَّة الفعل وإرادته، إذن: فكيف له بخلق نفسه؟

---

[23] البقرة: 105.

[24] هود: 118 ـ 119.

وحتى لا يكون حوارنا سفسطائيًّا فهل يمكن أن يوجد الكون (الشَّيء) بغير إرادة؟ أي: هل يُخلق شيء أو يُصنع عن غير دراية؟ وهل يمكن أن يُخلق شيء أو يصنع عن غير هيئة؟ ثمّ هل يُخلق شيء من غير مادّة لخلقه؟ وهل يُخلق شيء في غير مكان وزمان؟ وهل المكان والزَّمان من مكوِّنات الكون (الشَّيء)، أمْ أنَّهما المحتويان وجوده؟

وبما أنَّ الشَّيء يفتقد لكلّ هذا فهو بلا شكّ لا يمتلك صفة الخلق، ولأنَّه يفتقدها فلا يكون إلَّا ومن ورائه خَالق: (وراء كلّ مخلوق خَالق).

ولو أخذنا خَلق الإنسان كمثال: فهل الإنسان خَلق نفسه؟

لا خلاف على أنَّه لم يخلق نفسه، وبما أنَّ الإنسان لم يخلق نفسه حتى من شيء فكيف للبعض أن يقبل بخلق الكون نفسه من لاشيء؟

وحتى لا نذهب بعيدًا، ويتمّ التمسّك بخلق الكون من لاشيء فالأرض التي هي أقرب وجودًا من وجودنا، ممّ خُلقت؟

لا شكّ أنَّ الإنسان قد خُلق من الأرض وهذا يعني: أنَّه خُلقَ من شيءٍ، ولأنَّ الأرض قد خُلقت بعد الانفجار العظيم بآلاف السِّنين، فكيف خُلقت؟ وما الذي كان وراء خَلقها؟

فهل كانت الرَّغبة هي التي وراء خلقها، أم الضّرورة، أم المشيئة، أم ماذا؟ وإن خُلقت هي الأخرى من لاشيء فما هو ذلك اللاشيء الذي خُلقت منه؟ وهل هو بالتمام مثل ذلك الشَّيء الذي خُلق الكون منه، أم أنَّه اللاشيء آخر؟ وإن كان الآخر، فما العلاقة بينه وذلك اللاشيء الذي تفجَّر معه، أو تفجَّر قبله؟

وإذا عرفنا كيف جاء اللاشيء الذي خُلقت الأرض منه فهل لنا بمعرفة كيف جاء اللاشيء السَّابق عليه؟ ثمّ هل يمكن أن نقف على اللاشيء إنْ لم يكن هناك لا شيء؟

كلُّ هذه الأسئلة ستكون متَّصلة إلى النِّهاية، ولكن مَنْ الذي أوجد النِّهاية؟

ستكون الإجابة بالطبع الذي أوجد البداية، وهنا تكمن الإجابة، وهي: لكلّ شيء بداية ونهاية، ومن ثمّ فلا بداية لشيء إلّا مشيئة الخَالق، ولا نهاية لشيء إلّا مشيئة الخَالق: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ}[25]؛ لأنَّه الفعَّال لما يريد: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}[26].

وإذا كان الكون قد خُلق من لاشيء، فهل كان ذلك اللاشيء وجودًا، أم أنَّه لا وجود؟ فإن كان وجودًا فمن الذي أوجده؟ وإن لم يكن وجودًا، إذن فكيف خَلَقَ الكون وجوده عن غير وجود؟

ولذا فالشَّيء لو لم يكن وجودًا ما تساءلنا عنه، ولأنَّنا نتساءل عن وجودٍ، فالوجود لا يكون إلَّا بفعل فاعل: (بخلق خالق) وخَالق الشَّيء:

ـ لا يمكن أن يكون شيئًا.

ـ لا يمكن أن يكون لاشيئًا.

ـ ولا يكون شيئًا آخر.

ولذلك فخالق المادّة لا يمكن أن يكون مادّة، وخالق الرّوح لا يمكن أن يكون روحًا، فالخالق لا يكون إلّا خَالقًا، (الخَالق يَخلق ولا يُخلق)،

---

[25] الحديد: 3.

[26] الأنبياء: 104.

يُدِعُ ولا يُدَعُ: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[27].

والشَّيء وإن كان نكرةٌ، فلا بدّ وأن تكون له صفة تميّزه، ومتى ما تمّ التعرّف على صفته أصبح الشَّيء المنكّر معرفة، فالشَّيء يُطلق على أيّ شيء مادّي أو غير مادّي، ولكن عندما يحدّد الشَّيء مثل السّماء يصبح اسم السَّماء يدلُّ على شيء دون غيره، وحينها لا تكون السّماء نكرة.

وهكذا فأيّ حديث عن أيِّ شيء غير موصوف هو حديث مُنكَّر، ولكن بتحديد المكان والزّمان والدَّلالة والمعنى للشّيء، يصبح الشَّيء غير منكّر، ونأمل ألَّا يَفهم البعض أنَّ الشَّيء لا يرتبط إلّا بالمشاهد والمحسوس، بل دلالة الشَّيء تمتدّ من المفهوم والمعنى إلى الفعل والهيئة والشّكل والصّورة: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ}[28]، وكلّ شيء خُلِق يحاط ولا يحيط: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ}[29].

وعليه: فالقاعدة المنطقيَّة وفقًا لمنطق أرسطو تقول:

-كلّ شيء مخلوق.

-الكون شيء.

إذن: الكون مخلوق.

وبما أنَّ الكون شيء؛ فالشَّيء لا يكون إلّا مخلوقًا، ولا يكون إلّا في حيزٍ، ولا يكون إلّا محدودًا حتّى وإن تناهى في الصِّغر أو الكبر، والشَّيء

---

[27] البقرة: 117.

[28] الأنعام: 101.

[29] البقرة: 255.

حتى وإن أحاط بشيء آخر لا يكون إلّا محاطًا: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}[30].

فوسِع كرسيُّه، تعني: وسِعت إحاطته، أي: وسِعت إحاطة الخالق الأكوان (سماوات وأرضين)، والكرسي هنا، هو كرسي السّعة والإحاطة الاستيعابيَّة، وليس كرسي الجلوس فهو يدُلُّ على خلق محيط لإحاطة الأكوان جميعها، مما يشير إلى أنَّ الأرضَ جزءٌ من كوننا، وكوننا جزء من الأكوان المحاطة بالكرسي، وهو المخلوق لاحتواء الأكوان: {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}[31].

وكما سبق تبيانه في تعدّد الأكوان وما توافر من دلائل علميَّة لدى علماء الفيزياء والفلك، فإنَّ بيّنة الخالق دراية تدلّ على وجودها يقينًا: {لَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ}[32]؛ فالسَّبعة الطَّرائق، هي: الأكوان التي فوق الكون الذي نحن جزء منه، (وسبعة أكوان فوقكم)، تشير إلى علو الأكوان السّبعة المرتّبة طباقًا فوق بعضها البعض، وهي فوق الكون الذي نحن جزء منه، ولكن العلو لا يقتصر على علو المكان أو الحيِّز، بل يدلُّ على علو المكانة أيضًا.

ولهذا جاءت الطَّرائق بمعنى الخصوصيَّة والتميُّز في كلِّ كون من الأكوان السَّبعة التي تعلو كوننا الذي هو الآخر يتميَّز بخصوصيَّته: {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}[33]. تؤكّد هذه الآية أنَّ السَّماوات السّبع هي

---

[30] البقرة: 255.

[31] النمل: 88.

[32] المؤمنون: 17.

[33] الملك: 3.

الأكوان التي فوق كوننا، وكلّ كون منها منفصل عن غيره، ولا يتجاوز الطَّبق الذي خُلق فيه؛ ولذا فكلمة طباق تدلُّ على العناية والرّعاية والتنظيم المصنّف لكلّ كون، وهذا ما لم يتمكّن علماء الفيزياء والفلك من بلوغه، على الرَّغم من أنَّهم أصبحوا متيقّنين من تعدّد الأكوان وما كوننا إلّا أحدها، والأكوان المتعدّدة تسمى أحيانًا بالأكوان المتوازية[34].

وعليه، فالقاعدة وفقًا لمنطق أرسطو تقول:

-كلُّ شيء محاطٌ لا يحيط بمحيطه.

-الكونُ شيءٌ محاطٌ.

إذن: الكونُ لا يحوط محيطه.

وكذلك القاعدة المنطقيَّة تقول:

-كلُّ محاطٍ مخلوقٌ.

-الكونُ محاطٌ.

إذن: الكونُ مخلوقٌ.

وعليه: بما أنَّ للكون محيطًا، فهو شيء، ولأنَّه المحاط فمحيطه شيء آخر.

ولأنَّ الكون شيء، ومحيطه شيء آخر، إذن: فكيف (خُلق الكون من لاشيء)؟

Have cosmologists lost their minds in the multiverse? [34]
May 13, 2014 by Luke Barnes, The Conversation.

وكذلك: فإذا كان ذلك الانفجار هو شيء عظيم، ألا يكون المنفجر شيء أكثر عظمة؟ وإذا كان الانفجار شيء والمنفجر شيء آخر فكيف يمكن لنا أن نقول: (خُلق الكون من لاشيء)؟

وهل ذلك الشَّيء المنفجر يمكن له أن ينفجر لو لم تُخلق فيه معطيات الانفجار؟ وهل الانفجار لو لم يزمَّن له وقت، يمكن أن يبلغ لحظة انفجاره؟ أي: هل ينفجر المنفجر لو لم يكن مؤقتًا؟ وهل يمكن أن ينفجر شيء في غير مكان وزمان؟

وبما أنَّه قد انفجر، ألا يعني ذلك أنَّ انفجاره بفعل الفعّال؟

ولأنَّه لا شيء إلّا ومن ورائه مشيء، ألا يكون المشيء أعلم بأمر المنفجر من الذي عَلِمهُ؟ {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ}[35].

ومن ثمّ فالقاعدة المنطقيَّة تقول:

-وراء كلّ شيء مشيء.

-الانفجار الكوني شيء.

إذن: وراء الانفجار الكوني مشيء.

ولأنَّ وراء ذلك الانفجار الكوني مشيء، إذن: لو لم يشأهُ المشيء كونًا ما كان انفجاره لحظة الولادة[36].

---

[35] يوسف: 76.

[36] عقيل حسين عقيل، العقل (من اللاشيء إلى الشيء دراية)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م، ص 77 – 86.

ولأنَّ الانفجار الكوني وُصِفَ بأنَّه عظيم، فهل يمكن أن يكون انفجارًا عظيمًا لو لم يؤسّس على قانون؟ وهل يمكن أن يكون القانون لو لم يسبقه مقنّن: {وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ}[37].

الوجودُ البشري خَلقًا:

خَلق الوجود البشري مثله مثل المخلوقات الأخرى، التي أوجدها الله على قيد الحياة عندما كانت السَّماوات والأرض رتقًا، ثمّ تغيَّرت أحواله بعد أن أُهبط به ومن كان معه من الهابطين على الأرض التي فُتقت من السّماء بعد أن كانت بها رتقًا؛ ومن هنا أصبح الإنسان وبقيّة الخلائق على قيد الوجود الأرضي بين موتٍ وحياةٍ، وسيظلون ملاحقين من الموت الذي يحوّلهم إلى عدمٍ، ولن ينفكوا منه إلى يومِ يبعثون.

والخلائق وإن تنوّعت فالخَلق واحد، والخالق واحد؛ ومع ذلك كان خَلقهم على كينونة التميُّز والاختلاف؛ مما جعل التنوّع والتعدّد والتكاثر بينهم بداية ونهاية.

أمَّا خصوصيّة خَلق الإنسان فقد ميّزه الله بقوله: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[38]، والتقويم هنا يعود إلى جودة المادَّة التي خُلق الإنسان منها، وهي الصّلصال الذي لا شبيه لطينته إلَّا طينة الفخار؛ ولذا ظهر حُسن الخَلق في حُسن الهيئة والصّورة والمقدرة على الاختيار بين ما يجب عن بيّنة وما لا يجب عن بيّنة، وهذا لا يعني أنَّه كما يقولون ميّزه الله بالعقل؛ ذلك لأنَّ المخلوقات كلَّها تعقل وتدرك،

---

[37] المعارج: 41.

[38] التين: 4.

ولو لم تعقل لما سبّحت بحمد لله تعالى، وهذه من أسرار الغيب الذي لا يعلم أسراره إلَّا الله؛ فالذي يُسبِّح اليوم ومن يكون ذلك المسبّح، هل يا ترى أنَّه هكذا يُسبِّح بلا غرض ولا غاية، أم أنَّ من وراء تسبيحه غاية ومن ورائها مأمول عظيم يأمل أن يفوز به في مرضات من يُسَبِّح باسمه؟

لا شك أنَّ الغاية ستكون لمستقبلٍ يدركه المسبِّح، الذي نحن لا ندرك تسبحه؛ ومن هنا فكل المخلوقات تسبِّح باسم خالقها بلا تردد إلَّا الإنسان فيه من التردد ما فيه، فالإنسان لو كان متميّزًا بالعقل كما يقولون؛ لكان أوَّل السَّالكين طاعة وتسبيحًا؛ قال تعالى: {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِن مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}[39]؛ فقوله: (وَإِن مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) جاء هذا القول العظيم ليؤكِّد بلا استثناء أنَّه لا شيء إلَّا ويسبِّح بحمد الله، ومفهوم الشَّيء كما سبق تبيانه جاء مطلقًا (أيّ شيءٍ) حتى وإن لم يكن غير خاضع للمشاهدة والملاحظة والاستماع، وحتى إن كان عابرًا، مثل عبور البرق والرَّعد والمطر، الذين نراهم، وأصواتهم في أذاننا لا تفارق وإن غابت عنَّا.

ولذا فلو لم تكن المسبّحات كلّها عاقلة ما أدركت أهميَّة التسبيح بحمد الله، وفي المقابل بني الإنسان الذين خُلقوا في أحسن تقويم مِن بينهم مَن أمن وسبَّح ويسبِّح، ومِن بينهم مَن يتردّد ويكفر ويشكّ ويشرك؛ ومن هنا فأيّهم أعقل: الذي سلّم أمره لله وحده، أم الذي لا يرى للكون

[39] الإسراء: 43، 44.

خَالق؟ أم يود البعض أنَّ يقول: إنَّ كل شيءٍ خُلق مسيّرًا على الطَّاعة والتسبيح، أمَّا نحن على غير ذلك فقد خُلقنا على التخيير؛ ومن هنا، فلنا الحقّ في الشّرك والكفر وغضّ النّظر عن الحقائق وإنْ كانت ماثلة أمامنا؟

أقول: إذا سلَّمنا بذلك لا شكّ أنَّنا سلّمنا بإنكار الحقيقة وهي الماثلة أمامنا؛ ومن هنا أقول للحقيقة: لا تنزعجي، ولا تقلقي، ولا تَشُكّي، ولا تكفري، ولا تُشركي؛ فامتثالك أمام الأعين ووجودك بين الأيدي ليس في حاجة لمن يثبت وجودك حقيقة.

وأقول للحقيقة أيضًا: لا تشكّي في الأمر؛ فإنَّ العقلاء وحدهم يعترفون بكِ، وبك يسبِّحون ويحمدون أنَّهم يعقلون أكثر من الذين يظنّون أنَّهم المتميزون عقلًا، ثمَّ أقول: يا حسرتاه على عقولٍ لا تُدرك أنَّ التسبيح بحمد الله أعظم من الغفلة عنه والكفر به والشّرك؟

ولا استغراب أن يكون البعض ما زال يرى أنَّ تلك المسبِّحات كلّها هي الغافلة عن الحقيقة ومعرفة الغاية من التسبيح، وأنَّه وحده دون غيره يعرف ويعقل.

إذا أجزنا ذلك بدون شكّ اعترفنا بأنَّ الإنسان غير متميّزٍ بالعقل عن غيره من الخلائق؛ فلو كان متميّزًا لما أنكر الحقيقة التي تقول: كل مخلوق من ورائه خالق، والخالق دائمًا أعظم من المخلوق؛ ومن ثمَّ فالذي ينكر الحقيقة كمن ينكر وجود عقله وهو به يتباهى ويجادل.

وأقول: مع أنَّ الله قد أحسن صُنع خَلقه كُلّه، فإنَّ خَلقه للإنسان كان في أحسن تقويم، أي: أحسن صُنع (هيئة وصورة)، ثمَّ خَلقهُ على

التسيير والتخيير؛ فهو المسيّر وفقًا لتسيير الكون المتسارع في تمدّده وهو لن يستطيع أن يغيّر مجراه ولا تمدده، ولا يستطيع إيقافه، أو الحدّ من سرعته، وكذلك لن يستطيع ردّ الموت عنه.

ولسائل أن يسأل: لماذا ميّز الله الإنسان بأحسن تقويم، ثمَّ جعله في مرضاته -جلَّ جلاله- مخيَّرًا؟

أقول: مع أنَّ الله جعل الإنسان مخيّرًا في أحسن تقويم فإنَّ البعض اختار ألَّا يكون اختياره في مرضاته تعالى، فكفر من كفر، وأشرك من أشكر، وظلم من ظلم، وأفسد من أفسد، وهكذا أكثرهم لا يعقلون: {وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[40]، وقال تعالى: {وَمِنْهُم مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ}[41]، وقال: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[42].

الخَلقُ:

الخَلق إبداع الوجود، سواء أكان الوجود حياةً أم موتًا، وسواء أكان شيء أم اللاشيء، ولذا فالخَلقُ إيجاد مالم يكن من قبل موجودًا، وهو كيفيَّة غير مسبوقة، به تُبدع الهيئة، ويبدع المشاهد والملاحظ والمتمدّد والسّاكن؛ فالخلق فعل الخالق، وهو المقدرة المطلقة على إيجاد الشَّيء واللاشيء حيث لا شيء قبل الخَلق إلّا الخالق.

---

[40] المائدة: 103.

[41] يونس: 42.

[42] الأنعام: 63.

فالخَلق تكاثر زوجي: (سالب وموجب، ذكر وأنثى) مؤسّس على التضادّ، ثمّ على التنوّع والاختلاف، والتجمّع والافتراق، والتمدّد والانكماش، والحياة والموت، والبداية والنّهاية.

ولأنَّه الخَلق؛ فلا خَلق إلَّا لهدف وغرض وغاية، وهذه جميعها مجرّدة؛ فلا تُخلق خلقًا، بل تدركها العقول إدراكًا؛ حيث لا المادّة ولا الرّوح تخلقها، بل تُبثّ بثّا من العليم إلى من يتعلّم.

ولأنّ الكون لم تكن له صفة العليم؛ فكيف له ببث هدف يتحقّق، أو غرضٍ يُنجز، أو غاية يتمّ بلوغها.

ولأنَّه لا هدف ولا غرض ولا غاية للكون مِن خَلق نفسه، إذن فمِن أجل مَن خَلق الكون نفسه؟ وإلّا هكذا خَلق نفسه عبثًا؟ كون بلا غاية، لا يمكن أن يدرك ما سيلمّ به من تجمّد وانكماش وانفجار وتبعثر ونهاية؟ كون يجهل ما سَيلُمّ به، كيف له أن يكون خالقًا؟ ثمّ، على أيّة قاعدة تأسّس قول البعض: (كون خُلق من لا شيء ولا خالق له)؟

ولأنَّ الخالق (يَخلق ولا يُخلق)؛ فهو القادر على إظهار هيئة الشَّيء قبل أن يكون شيئًا؛ ذلك لأنَّ هيئة المخلوق سابقة على خَلقه؛ فهيئة الكون في علم خالق الكون هي سابقة على خلقة كونًا؛ ولذلك فالخالق هو مُوجد هيئات الخلائق قبل أن يجعلها أشياءً على الصّور والأشكال، سواء أكانت متناهية الكبر أم متناهية الصّغر (الشَّيء واللاشيء).

ولانَّ هيئة المخلوق تسبق خَلقة شيئًا؛ فهل هيئة خلق الكون كانت مسبوقة عنده قبل أن يخلق نفسه كونًا من لا شيء؟

ولأنَّ الخَالق لا يخلق نفسه، ولا يخلقه غيره، إذن فكيف للكون بخلق نفسه من لا شيء؟ ولأنَّ الخَالق له صفة الخلق؛ فهل للكون هذه الصّفة التي لا تنقطع، أم أنَّ الكون خَلق نفسه من لا شيء، ومن بعدها خسر صفته؟ وهل الكون خَلق نفسه بصفة الخلق؟ أم أنّه خُلق عليها؟ أم أنَّه خُلق بدونها؟ أي هل صفة الخلق هي التي خلقته أم أنَّه هو الذي خلقها؟

فإنْ كانت صفة الخلق خَالقة للكون؛ فهي سابقة عليه، وإن كان خالقها؛ فهو السّابق عليها، وإنْ خُلق معها؛ فلابد من خَالق لهما.

وإذا كانت صفة الخلق سابقة على الكون من لا شيء؛ فمن الذي خلقها لتكون صفة خلّاقة؟ وإذا قال البعض: إنَّ صفة الخلق قد وُلدت في الكون ولادة؟ فالسُّؤال:

من الذي ولدها؟

وممّا ولدت؟

وكيف ولدت؟ ومتى؟

ولأنَّه لا إجابة قاطعة للشّك، إذن فمقولة: (الكون خُلق من لا شيء، ولا خَالق له) أصبحت حُجَّة بلا حُجَّة: {هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ}[43]، وإذا سلّمنا أنَّ (الكون خُلق من لا شيء ولا خَالق له)؛ فلا بدّ أن نسلّم بأسبقيته على كلّ خالق، ولكن الخالق يقول: {وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ}[44]؛ فما الردّ؟

---

[43] فاطر 3.

[44] الواقعة 60.

ولأنَّ صفة الخلق سابقة على وجود الكون؛ فكيف للكون بخلق نفسه؟

ولأنَّ قاعدة المنطق العلمي تنصّ على أنَّ: (الخالق لا يخلق نفسه، ولا يُخلق من غيره)؛ ذلك لأنَّ الخالق صفته الخَلق. إذن فكيف للكون بهذه الصّفة الخلقيَّة، وهو لم يخلق شيء حتى نقول أنَّه الخَالق؟

ولأنّ الكون لا يخرج عن كونه شيئًا؛ فالشَّيء لا يمكن أن يكون إلّا مخلوقًا؛ ولأنّه المخلوق؛ فلا يمكن أن يكون خالقًا؛ فالخالق (لا يكون شيئًا، ولا يكون لا شيئًا، ولا يكون شيئًا آخر). بل هو الخالق، الذي يَخلق ولا يُخلق: {يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[45].

ولأنَّ القاعدة الخلقيَّة تنصُّ على أنَّ الخالق (يخلق ويحيي ويميت)؛ فهل الكون يحيي ويميت؟ فإن لم يحي ويميت، لا يمكن له أن يكون مخلوقًا من لا شيء، ولا يمكن أن يكون من غير خالق؛ فالله تعالى لو لم يخلق الموت لكفر الجميع، ولأنَّه خَلق، ويخلق، وأمات، ويميت؛ فهو الخالق ولا شريك له.

ولكن لو خُلق الكون من لا شيء ولا خَالق له، لكان الكون على القوّة الرّاعية لبقائه؟ ولأنَّه لا يمتلك ذلك؛ فهو المعرّض للتجمّد والانكماش والتبعثر والانفجار والرَّتق والفناء.

ولأنّ المنطق العلمي يقول: (الخَالق يبقى والمخلوق يفنى)؛ فهل للكون هذه الصّفة التي تبقيه خالقًا؟

---

[45] النور 45.

ولأنَّ الكون وفقًا لأحكام علماء الفيزياء سينتهي لا محالة، إذن فلا علاقة له مع صفة الخلق التي ألصقت به.

ومن ثمّ فقاعدة الخلق تنصّ على أنَّ: (صفات الخلق تستمدّ من الخالق، ولا تضفي عليه)، إذن؛ فلا وجود لعلاقة تربط الكون مع صفة الخلق (كونه شيئًا مخلوقًا).

وصفات الله تعالى تستمدّ منه، ولا يستمدّ منها، ولا يمكن لأحد أن يصفه بأيّة صفة، إلّا التي وصف بها نفسه، وهنا يكمن الإعجاز، وإلّا هل هناك من يستطيع استمداد صفة من اسم (الله).

لا أحد.

ولهذا وصف الله نفسه، (الرّحمن الرّحيم الملك القدوس السّلام وإلى النّهاية التي لا تنهي صفات الله)..

إذن فالخلق صفة الخَالق، والغاية من الخلق البقاء، والقاعدة: (الحياة الدَّائمة)

والاستثناء: (الموت والانتهاء)؛ قال تعالى: {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ}[46].

وعليه: حتى وإنْ سلّم البعض بأنَّ الكون قد خَلق نفسه من لاشيء؛ فلا يمكن لهم أن يسلّموا بمقدرة الكون على خلق غيره، ولأنَّه غير قادر؛ فهو قاصر لا يمتلك صفة الخلق ومقدرة الخَالق؛ فالخلق كيفيَّة غير قابلة للمشاهدة ولا الملاحظة، وغير قابلة للجمع والطَّرح كما هو حال المخلوق القابل لكلّ ذلك؛ فالخَلق كيفي، والمخلوق كمي؛ ومن ثمّ فالخَلق صُنع

[46] العنكبوت 64.

الخالق: {صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}[47]، ولهذا فلا شيء قَبل الخَلق إلّا الخالق، ولا شيء بعد الخلق إلّا المخلوق[48].

الكون خَلقًا:

خُلق الكون المتسارع في تمدّده، على قوَّة الثنائيَّة الموجبة والسّالبة، فكان تمدّده المتسارع معتدلًا في كلّ الاتجاهات على الرّغم من القوَّة والتضاد.

ولأنَّ الكون خُلق على الثنائيَّة، إذا فقد خُلق للتكاثر المشاهد والملاحظ، ولكن كيف يُخلق الكون أحاديًا والثنائية تملأ أحشاءه؟

وفقًا للمنطق السّلالي، هذه الزّوجيَّة تشير إلى عدم خَلقه وحيدًا، ومن هنا بدأ علماء الفيزياء يطرحون فروضهم وتساؤلاتهم العلميَّة لإثبات ذلك أو نفيه.

وعلى ضوء تلك الفروض والتساؤلات عثر مجموعة من علماء الفيزياء الأمريكان على تفسير مناسب لتلك النقطة المعتمة المثيرة للدّهشة؛ فحسب هؤلاء العلماء أنَّ هذه البقعة عبارة عن بصمة كون آخر تضغط على جدار عالمنا. ثمّ استنتجوا وجود الأكوان المتعدّدة والمختلفة والمتوازية. ووفقاً لنظريَّة الأكوان المتعدّدة، فكوننا يشبه فقاعة بجانب أكوان موازية شبيهة.

وعلى نقيض نظريَّة العوالم المتعدّدة، نظريَّة الأوتار التي تفترض أنَّ هذه الأكوان يمكنها أن تكون على اتصال مع بعضها البعض، وكذلك

---

[47] النمل 88.

[48] عقيل حسين عقيل، نحو النظرية (خلقا)، المصرية، القاهرة: 2020م، ص 13 – 17.

النّظريَّة تقول: إنَّ الجاذبيَّة يمكنها التدفق بين هذه الأكوان المتوازية، وحينما تتفاعل هذه الأكوان؛ فإنَّه ينشأ انفجار كبير مثل الذي خَلق كوننا[49].

هذه المعطيات البحثية ترسّخ تلك الحقائق التي أُنزلت قرآنا: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}[50]؛ فلو لم يقل الله، (سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا)، لاتّهم المؤمنون هؤلاء الفيزيائيين بالكفر أو الشّرك، ولأنَّ قول الله سابق لاكتشافهم، فلا استغراب لما جاءوا به من اكتشاف، أي لو لم تكن السّماوات (الأكوان) مخلوقة لما اكتشفوها، وهكذا دائمًا بما أنَّنا نكتشف؛ فإنَّنا نعترف بأسبقيَّة الخلق المكتشف على اكتشافه.

فسبع سماوات طباقًا، تعني: سبعة أكوان فوق بعضها البعض: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}[51]، وسبعة أكوان (في كلّ كون أرض وسماء) تملأها النُّجوم والمجرَّات والطَّاقة؛ أكوان منبسطة مثل انبساط كوننا الذي إن تماس معها حدث الانفجار وتكون النّهاية: {اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ}[52].

وعليه: ألا يكون تمدّد الشّيء واللاشيء داخل الكون هو مثل تمدّد الكتكوت في البيضة حتى تنكسر، أم إنَّ تمدّد الكون لا يكون سببًا في كسر غلافه؟

---

49 Michio kaku, parallel Worlds: A Journey Through Creation ,Higher Dimensions, and the Future of the cosmos , Double Day ,2004

50 نوح 15.

51 الطلاق 12.

52 الروم 11.

وبما أنَّ الكون يتمدّد متسارعًا؛ فلا بدّ أن تكون الحياة مهدّدة بالفناء، ومتى ما استقرّ الكون على التوازن الحركي، اعتدل واستقرّ على البقاء، وبالتَّالي سيكون هذا الاستقرار على حساب نهاية ما هو كائن؛ فالخالق الذي خَلق الحياة الدّنيا على التمدّد؛ يعلم أنَّ هذا التمدّد ليس أمامه إلَّا النّهاية، ممّا يجعل بين أيدينا نتيجة مفادها: (إنَّ البقاء هو القاعدة، أمَّا الفناء؛ فهو الاستثناء).

ولأنَّ الكون بما فيه سينتهي لا محالة، إذًا مهما طال زمن البقاء؛ فلابدّ من النّهاية، والنّهاية ستكون لحظة توقّف الكون عن التمدّد، وحينها يصبح: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ}[53]. بمعنى: أنَّ الفناء سيلحق المخلوق، ولا يلحق الخالق: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ}[54]، ويبقى وجْهُ رَبكَ (هو كما هو) الخلّاق، الذي سيبعث خلقه كما يبعث كونه.

ولأنَّ صفة الخَالق (الخلق)؛ فالخالق: (خَلق، ويَخلُق، وسيخلُق)، إنَّه: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}[55]؛ ولذلك فخلقه يتعدّد ويتنوّع ويتمدّد إلى النّهاية التي هي من مشيئته، وهذا ما وقف عليه علماء الفلك والفيزياء من خلال نظريَّة الانفجار العظيم التي تؤكّد أنَّ الكون في حالة تمدّد متسارعة تؤدّي بالضَّرورة للانكماش والنَّهاية.

---

[53] القصص 88.

[54] الرحمن 26 – 28.

[55] البقرة 117.

المخلوقُ:

المخلوق هو ذلك الوجود الذي لو لم يكن من ورائه خالقٍ، ما كان على قيد الحياة وجودًا، وهو كلّ مَن وُجد على كينونة ليست باختياره؛ فهو مخلوق يشاهد ويلاحظ ويُحسّ به، أمَّا ما يميّز المخلوق العاقل؛ فهو المدرك لغايته، وغير المدرك للغاية التي من وراء خَلقه؛ فالغاية من خَلق المخلوق لا يعلمها إلّا الخَالق، ولهذا خُلق على التسيير والتخيير.

وحتى إنِ اعتقد البعض إنَّه بإمكانه مشاهدة الخلق من خلال مشاهدة أجنّة الأنابيب؛ فهو في هذه الحالة كمن لا يميّز بين (الخلق والمتخلّق)؛ ذلك لأنَّ ما يشاهد لم يكن (خلقًا) بل هو: (المتخلّق)؛ فالخَلق كيفيّة بين يدي الخَالق، فيها تنتقل هيئة المخلوق من مجرد إلى ملاحظ، ثمَّ إلى مشاهد؛ ولذلك في مرحلة الخَلق لا إمكانية للمشاهدة، ولكن التحاليل المعمليَّة تثبت ملاحظة عمليّة الخلق التي قد بدأت؛ ومن ثمّ فلا شيء يشاهد أثناء عمليَّة الخلق التي تسبق عمليَّة التخلّق القابل للمشاهدة.

ولأنَّ المخلوق لا يمكّنه الدّراية بكيفيَّة خَلقه؛ فهل يمكن له أن يدري كيفيَّة خلق من سبقه خلقًا؟ وهل يمكن للمخلوق الذي يجهل كيفيَّة خَلقه، أن يعلم كيفيَّة خَلق الكون الذي لا يزال قاصرًا عن معرفة خفاياه؟

وهل الحكم الذي أقرّه بعض الفيزيائيين (الكون خُلق من لاشيء، ولا خالق له) هو حكم مشاهد، أم حكم ملاحظ، أم إنَّه حكم مفسّر؟

فإنْ كان الحكم نتيجة المشاهدة؛ فلا بدّ أن يكون المشاهد قد حضر زمن خلق الكون، وهذا ضرب من المستحيل، وإن كان ملاحظًا؛

فلا بدّ من تجربة تخضع الكون للتجربة، وهذا ضرب آخر من المستحيل، ولكن إنْ كان تفسيرًا؛ فالتفسير دائمًا يرتبط برؤية المفسّر التي لا تخرج عن دائرة الممكن المملوءة بالشكوك والظّنون.

ولذلك فالمخلوق مكوّن وجودي (مشاهد وملاحظ)؛ فالمشاهد منه يخضع للرّؤية، أمّا الملاحظ؛ فيخضع للإدراك، والمخلوق لا يقتصر على البشر كما يظن البعض، بل هو كلّ مخلوق، سواء أكان شيئًا، أم لاشيئًا (متناهٍ في الكبر أم متناهٍ في الصّغر).

فالمخلوق مهما كبر وعظم لن يكون الخالق، وبالتّالي؛ فهو مستوى دنيوي، فاقد لصفة البقاء والدّيمومة[56].

ومع أنَّ المخلوق البشري قد تميّز بحسن التقويم، فإنَّه لا يقبل التسليم والطّاعة كما قبلت به بقية الخلائق: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ}[57] هكذا هو الكون طائعُ يسبّح بحمد خالقه تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}[58] وفي المقابل: {وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا}[59].

الوجودُ عدمًا:

---

[56] عقيل حسين عقيل، نحو النظرية (خلقا)، المصرية، القاهرة: 2020م، ص 17.

[57] الإسراء 44.

[58] فصلت 11.

[59] الكهف 54.

بعد أن عرفنا الوجود موتًا، والوجود حياةً، الآن بين أيدينا مفهوم العدم وجودًا، وهو المرحلة التَّالية لمرحلة الحياة الدُّنيا، التي لا تلحق إلَّا الأموات، وهي المرحلة التي يصبح فيها الأموات أثرًا وعدمًا يكاد ألَّا يكون موجودًا بأسباب التآكل وعوامل التعرية وأثر المتغيّرات البيئيَّة والمناخيَّة؛ ومن هنا فالعدم فعل يلحق من يفقد الحياة ليحوّله من تلك الصِّفة الخاصّة به هيئة وصورة إلى وجودٍ بلا هيئة ولا صورة سوى عظام تزداد بيادًا بمرور الزّمن، ولا يبقى منها إلَّا الأثر معدومًا.

وعليه: يفهم من كلمة العدم صفة من لا صفةَ له؛ ذلك لأنَّه الصّفة لمن بقي أثرًا معدومًا؛ ولهذا فصفة المعدوم لا تلحق إلَّا من كان على قيد الحياة وجودًا، ثمّ صار بعد ذلك من تعداد الأموات عدمًا مفقودًا، أي: لو لم يكن المعدوم مِن قَبلُ موجودًا على قيد الحياة ما كان له أثر؛ ولذا فلا نهوض من العدم إلَّا من بعد بعث من الموت، أمَّا مرحلة ما قبل الخَلق فهي مرحلة اللاشيء خلقًا سِوى خَلق الموت والحياة وجودًا؛ قال تعالى: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا}[60].

إذن فالعدم لا يكون إلَّا أثرًا لوجود شيء سابق عليه، وليس الوجود في ذاته، سواء أكان ذلك الأثر يدلُّ على أثر الأحياء، أم إنَّه يدلّ على أثر الأموات والأشياء المنتهية.

والعدم لم يكن الموت، ولا الحياة، ولم يكن النّهاية، ولم يكن اللاشيء؛ فالموت فعل بيد الخالق المميت، والحياة فعل بيد الخالق المحيي، والنّهاية مع أنَّها توقف الفعل أو المقدرة فإنَّها لا توقف الحياة، أمَّا اللاشيء

[60] الإنسان: 1.

فهو المتناهي في الصّغر ولا يرى بالعين المجردة إلّا ظُلمة، أو وكأنّه الفراغ ولا شيء فيه يمكن أن يكون قابل للمشاهدة.

ومن هنا فبصمات الأحياء وصورهم وعيّنات دمائهم لا تزيد عن كونها أثرًا (عدمًا) يدلّ على شيء، وليس الشّيء في ذاته؛ وكذلك الرّفات البالي لأيّ شيء هو أثر (عدم) لشيءٍ كان موجودًا على قيد الحياة.

والعدم لم يكن مصدر خلق الأحياء كما يراه البعض، بل هو ما يؤول إليه مصيرهم، وهو الفعل المتحقّق أثرًا؛ فالعدم لم يكن فعل الموت، ولا فعل الإنهاء، ولا يكون الوجود منه، بل على العكس من ذلك لا يكون العدم إلّا من وجودٍ. فلو لم يكن الوجود ما كان العدم؛ ولذلك فالعدم هو الفعل المترتّب على الوجود الذي لا بدّ من نهايته أو موته ليكون من بعده عدمًا.

ولأنَّ لكلّ بداية نهاية؛ فالوجود ليس له بدّ إلّا النّهاية، وبعد النّهاية يصبح الزّمن كفيلًا بجعله عدمًا، وإلَّا هل هناك من باقٍ غير الباقي الذي يجعل من الوجود عدمًا؟!

ولأنَّ العدم يستظلّ بظلّ الوجود، فهو يلاحق الموجودات تحت ظلّه لحظة انتهائها من المشاهدة المباشرة وفقًا للهيئة والصّفة؛ ومع ذلك فالوجود هو القاعدة، والعدم هو الاستثناء: {قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ}[61]؛ فتلك العظام التي كانت وجودًا على قيد الحياة، أصبحت رميمًا باليًا لا علاقة له بالحياة حتى البعث.

---

[61] يس: 78، 79.

فالوجود كونه قاعدة؛ لأنَّ صفته البقاء، والعدم كونه استثناء؛ لأنَّ صفته الانتهاء، وهكذا هي صفة الموت الإنهاء وصفة الحياة الإبقاء: {وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ}[62].

ومع أنَّ الوجود الأوَّل خُلق من لا شيء بفعل الخالق، فإنَّ المخلوقات من بعده خُلقت من أشياء كما هو حال الإنسان وغيره من المخلوقات: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}[63]، ثمّ كثير من الوجود خُلق تكاثرًا: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ}[64].

وعليه: فلا (حياة) إلّا عن خَلق، ولا (إحياء) إلّا من موت أو عدم: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}[65]؛ ولذلك فالوجود سابق على العدم، والحياة سابقة على الإحياء؛ ومن هنا فلو سألت من سألت:

-من أين يأتي الوجود؟

ليقولنَّ: من الواجد.

أمَّا السُّؤال: من أين يخرج الأحياء؟

فلا يخرجون إلَّا من وجود سابق عليهم.

وفي المقابل:

من أين يخرج الموتى؟

---

[62] العنكبوت: 64.

[63] يس: 36.

[64] الروم: 20.

[65] الروم: 27.

يخرجون من الشَّيء الذي لا تستمدّ الحياة إلَّا منه، أو الشَّيء الذي تُبعث فيه الحياة انبعاثًا وهو (العدم)؛ قال تعالى: {فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا}[66].

ولذا فالأحياءُ يخرجون أوَّلا من الذي لا تستمدّ الحياة إلَّا منه؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ}[67]، أمَّا ثانيًا: فيخرجون ممن تُبعث الحياة فيه بعثًا من بعد إماتة؛ مصداقًا لقوله: {ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ}[68].

ومع أنَّ مفهوم العدم يختلف عن مفهوم الوجود، فإنَّ هناك علاقة وثيقة بينهما؛ فالعدم الذي يلاحق الوجود الحي ليجعله رميمًا باليًا، لا بدّ أن يكون فعله على قيد الحياة وجودًا، وإلّا كيف له بجعله عدمًا؟ ولأنَّ العدم على قيد الحياة وجود، فلا يمكن أن يكون نقيضًا للوجود بأسره؛ ولذلك فالوجود مفهوم مطلق يحتوي كلّ شيء على قيد الحياة، بما فيها العدم؛ ومن هنا فالعدم ليس نقيض الوجود، بل هو جزء منه.

ولأنَّ للعدم أثرًا، إذن فهو موجود، وإلّا هل هناك من يرى أنَّ وجود الأثر لا يدلُّ على وجود من تركه أثرًا؟

ولأنَّ العدم موجود؛ فلا يمكن أن يكون ذا مفهوم مضادٍ لما هو عليه (الوجود)؛ ولتبيان ذلك، أتساءل:

---

[66] البقرة: 259.

[67] الحج: 66.

[68] الحج: 66.

- ما هو دليل إثبات الوجود؟

ما هو دليل إثبات العدم؟

الوجود والعدم لا مادّة حيث لا يشاهدان؛ ولأنَّهما كذلك فهل يظنّ البعض أنَّهما غير موجودين؟ ولكن إنْ اعترفنا بوجودهما؛ فماذا يعني؟ وإنْ اعترفنا بوجود أحدهما، وليكن الوجود، فأين الآخر (العدم)؟ أي هل انتهى العدم من الوجود، ولن نخشاه بعد اليوم أبدًا؟ أم أنَّه باقٍ يلاحق الأحياء أينما حلّوا في الدّار الدّنيا؟

أقول: كيف نقبل بأنَّ للحياة الدّنيا ركائز رئيسة وعلى رأسها الوجود والعدم، ثمّ نأتي لنقول: العدم عكس الوجود؟

فإن قبلنا بذلك؛ فإنّنا كمن يقول: لا وجود (لا حياة) وكأنَّه أينما وُجد وجود عُدِم.

ولأنَّ لكلٍّ من الوجود والعدم أثره، إذن فكلاهما موجود؛ فكما خَلق الخالق الوجود خلق العدم، ولكلّ فعله، وبما أنَّهما مخلوقان، إذن فهما الموجودان الباقيان ما بقيت الحياة الدُّنيا.

وماذا يعني: أنَّهما الموجودان الباقيان ما بقيت الحياة على الأرض الدُّنيا؟

يعني: أنَّ وجودهما في الحياة الدُّنيا مؤقّت؛ لأنَّ الحياة برمّتها زائلة: {وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ}[69]. ولأنَّها الزَّائلة وهما جزء منها؛ إذن لا شكّ أنَّهما الزّائلان.

---

[69] الرّعد: 26.

ولأنَّ لكلّ منهما أثره على قيد الحياة؛ حيث أثر الوجود البقاء: (بقاء المخلوقات)، وأثر العدم الفناء: (رفات الفانيات). إذن لا شكّ أنَّ لكلّ منهما وجودًا.

وقد يتساءل البعض:

ألا يعني ذلك كمن يقول: العدم أصبح وجودًا؟

لا شكّ أنَّ العدم وجود دالّ على وجود الفانيات، ولكنَّه لم يكن الوجود بأسره، بل هو جزء منه؛ ولذلك فالوجود عكسه الفناء وليس العدم. أي: إنَّ أثر الوجود بأسره هو الخلائق، أمَّا العدم فهو أثر رفات تلك الخلائق وما تتركه من بصمة.

ولأنَّ العدم لو لم يكن موجودًا ما ترك أثرًا، إذن: فالقاعدة المنطقيَّة:

-كلّ أثر موجود.

-العدم أثر.

إذن: العدم موجود.

ولكن ماذا يعني: أنَّه موجود؟

يعني: أنَّ العدم فعل من أفعال الوجود؛ فلو لم يكن الوجود ما كان العدم؛ ولذلك فالعدم يرتبط بالوجود ولا ينفصل عنه؛ إذ حيثما حلّ الوجود حلّ، أي لو لم يكن الوجود، هل يمكن أن يكون العدم؟ ولهذا فالعدم وجود، ولكنّه لم يكن الوجود.

فالعدم مع أنَّ وجوده متحقّق في الحياة الدُّنيا، فإنَّه لن يكون كذلك في الحياة الباقية؛ ممّا يجعل بقاء الوجود في تلك الحياة بلا عدم.

ولأنَّ الحياة الدّنيا مؤسّسة على البداية والنّهاية؛ فهي زائلة، ولأنّها زائلة؛ فلا وجود ولا عدم.

وعليه:

فالوجود والعدم حقيقة ولا فارق فيها، فحيثما حلّ الوجود الدّنيوي حلّ العدم، وكذلك حينما ينتهي الوجود الدّنيوي ينتهي العدم، وفقًا للقاعدة العلميَّة: (لكل بداية نهاية).

ولذا فلو لم يكن للعدم وجود ما كان للحياة نهاية، وبما أنَّ العدم موجود وله نهاية، إذن لا يمكن أن يكون هو النّهاية، بل النّهاية عدم العدم، الذي من بعده تستمرّ الحياة.

ولذلك فالوجود لم يُخلق من العدم، وكذلك العدم لم يُخلق من الوجود، ولكن كليهما مخلوقٌ لأداء مهمّة الحياة المؤسّسة على البقاء الفاني. ولو لم يكن الوجود ما كان للعدم شأن، ولو لم يكن العدم ما كان للوجود شأن؛ ومن ثمّ فحيثما كان الوجود بالقوَّة، كان العدم بالضّرورة.

فالوجود والعدم خُلقا على القوَّة، ولم يكونا موضع اختيار؛ فمتى ما حان وقت الخلق يصبح المخلوق وجودًا، ومتى ما وجب وقت انعدامه؛ فلا يكون إلّا عدمًا.

ولأنَّ الوجود عن غير طلب ولا رغبة؛ فكذلك العدم يتحقّق بالقوَّة عن غير طلب ولا رغبة؛ ولذلك فالقاعدة:

-كلّ وجود يلازمه عدم.

-الكون وجود.

إذن: الكون يلازمه عدم.

ولهذا فالحياة الدّنيا ليست وجودًا مجرّدًا، بل وجودًا وعدمًا؛ ومن هنا فهي المؤسّسة على الفناء.

ولأنَّنا نعلم ذلك؛ فعلينا أن نفكّر في كلّ شيء أكثر من مرّة، قبل أن نقدم على فعل شيء، ولأنَّنا مخلوقون فعلينا أن نفكّر وجودًا وعدمًا، ولا نبقى على غير صفاتنا التي بها تميّزنا خَلقًا: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[70].

ولأنَّنا على قيد الوجود أحياء؛ فإنَّنا لن نكون في حاجة لمن يثبت وجودنا؛ فإن كنَّا في حاجة لمن يثبت وجودنا؛ فغيرنا لن يعدّنا إلّا عدمًا؛ ولذلك لا ينبغي أن نكون كما تنصّ عليه مقولة الفيلسوف ديكارت: (أنا أفكر، إذن: أنا موجود)[71]. بل ينبغي أن تكون مقولتنا: (أنا موجود، إذن: أنا أفكر)، وبمقارنة المقولتين نتبيّن الفارق بينهما؛ فالمقولة الأولى: (أنا أفكر، إذن: أنا موجود) تضع التفكير شرطًا للوجود، وكأنَّ الذي لا يفكّر غير موجودٍ؛ فالكون والوجود والعدم والأنهار والمحيطات على الرَّغم من وجودها فإنّها لا تفكّر؛ فهل عدم مقدرتها على التفكير يلغي وجودها؟

أمَّا المقولة الثَّانية: (أنا موجود، إذن: أنا أفكر) تضع الوجود شرطًا للتفكير. أي لو لم يكن ديكارت موجودًا ما فكَّر فيما فكَّر فيه؛ ولذا فمن يكون موجودًا ولا يفكّر فلا يعدّ عقله إلّا عدمًا.

---

[70] التين: 4.

[71] ديكارت: مقال عن النهج، ترجمة: محمود الخضيري، مراجعة وتقديم: د. محمد مصطفى حلمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1985م، ص 190.

أمَّا قوله: (أنا أكون، أنا موجود I am, I exist)؛ فهو كمن يقول: لا أشكّ في وجودي، وهذه المقولة مع أنَّها جاءت سابقة على قوله: (أنا موجود، إذن: أنا أفكر)، فإنَّها أكثر وثوقًا؛ فالموجود لو لم يكن موجودًا ما سُئل عن وجوده؛ ممّا يدعو الموجود إلى عدم الإجابة؛ ليكون امتناعه عنها أكبر دليل على وجوده؛ ومن ثمّ يعوّض الوقت الذي أضاعه زمن استماعه لذلك السُّؤال، ويصبح الوقت بالنّسبة إليه لم يعد صفرًا[72].

وإذا راجعنا معنى العدم لغة فإنَّه يعني: "فقدان الشَّيء وذهابه، وعَدِم الشَّيء: فقده فلم يعثر عليه"[73]. "أنه تعالى هو المنعم على عَبيده، بإخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغه عليهم النعمَ الظاهرة والباطنة"[74].

و"أنه هو الذي أحيا الخلق من العدم، ثم يميتهم ثم يبعثهم"[75].

وبما أنَّ في علم اللغة العدم (فقدان الشَّيء وذهابه، وفقده وعدم العثور عليه)، فكيف يكون ذلك المفقود شيئًا وفي ذات الوقت لا يمكن العثور عليه؟ فبما أنَّه شيء لا يمكن أن يخرج عن الوجود، وإذا كان العدم هو وجودًا إذًا ليس له مفر من أن يكون مخلوقًا، وإذا سلمنا بذلك فلا يحق لنا القول: إنَّ الله خلق المخلوقات من العدم، أي وكأنَّنا نقول لو لم يكن العدم ما كان الخلق. نحن نقول إنَّ الخالق خَلق الحياة أوَّلا من لا

---

72 عقيل حسين عقيل، موت الموت، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 2022م، ص 157 – 163.

73 تفسير الطبري، ج 1، ص 55.

74 تفسير ابن كثير، ج 1، ص 194.

75 المصدر السابق، ج 4، ص 531.

شيء، مما يجعل الحياة شيئًا مخلوقًا له بداية ونهاية، ثم خَلق الأزواج فيها؛ حيث قال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}[76] ثم خلق الموت لملاحقة الحياة؛ ليكون لكل بداية نهاية في الحياة الدُّنيا، من أجل الوصول إلى الآخرة، في المراحل التي يمرّ بها الخلق وهي:

1 . الحياة:

2 . الموت:

3 . العدم:

4 . البعث:

5 . موت الموت:

6 . الخلود:

ومع هذا لم نغفل عن قوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}[77] في هذه الآية دليل على خَلق الموت العادم للحياة، وإن تقدَّم الموت على الحياة، فليس من باب أسبقيَّة الموت على الحياة ولا تقديم الحياة على الموت، وإنما خَلْق الله بفعل (كن فيكون) بصرف النَّظر عن المادّة والمدّة، ومع هذا لا تناقض فيما ذهبنا إليه من أنَّ الموت يلاحق الحياة، فهي تتقدّمه وهو يتبعها، فكيف يكون ذلك ولا يعارض الآية.

---

[76] - يس 36

[77] - الملك 2

وإذا نظرنا إلى قوله تعالى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[78] علمنا أنَّ هذا القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فعندما خَلق الخلق أمواتًا، وجب أن يقول (خلق الموت والحياة) ليناسب السِّياق القرآني، والله تعالى لم يبثّ في الإنسان الحياة، وإنما بثَّ فيه الرُّوح، ذلك أن الحياة عامة بدليل الخلق العام، فالحياة هي الخلق، والموت جزء من الخلق، فهو جزء من الحياة بدليل موته كما سيأتي.

ودليل آخر أنَّه لو كان الموت أسبق من الحياة، لم تكن الآية بالصُّورة التي هي عليها، وإنَّما وجب أن تكون: كنتم أحياء فأماتكم ثمّ يحييكم ثمّ يميتكم، وهذا لا يستقيم لا شرعًا ولا عقلًا، فالدَّائرة التي انتهت بالحياة يجب أن تكون ابتدأت بالحياة.

الموت عبارة عن عدم صفة الحياة عن مادة تقبلها، بمعنى أن الموت والحياة من باب العدم والملكة، فإنَّ الحياة هي الإحساس والحركة الإراديَّة والاضطراريَّة كالحاجة للتَّنفس، والموت عدم ذلك: "عمَّا من شأنه أن تكون الحياة ما يصح بوجودها الإحساس، والموت عدم ذلك ومعنى خلق الموت والحياة إيجاد ذلك المصحح وإعدامه. أي إيجاد أثر الموت بقطع ضوء الرّوح عن ظاهر الحي وباطنه مع كونه في غاية الاقتدار على الحركة والتقلب بنفسه بالإرادة، وهذا العدم ليس عدما محضًا، بل فيه شائبة الوجود، وإلَّا لم يعتبر فيه المحل القابل للأمر الوجودي؛ فلذلك صح تعلق

[78] - البقرة 28

الخلق بالموت كتعلقه بالحياة، وبهذا التقرير اندفع ما اعترضوا به من أن العدم حال لا يكون مخلوقًا"[79]

وعليه: لا عدم إلَّا بعد الحياة المبثوثة بنفخ الرُّوح في الصّورة، ثم لا نهاية للحياة إلَّا بالموت، ثم لا موت إلَّا بعدم، ولا خروج من العدم إلَّا ببعث يؤذن بالخلود، ولا خلود إلا بموت الموت؛ ولذلك فمعطيات الحياة وفق ما تقدم هي:

1. خلق الحياة في الأحياء: بث الرُّوح في الصورة.

2. مفارقة الحياة للأحياء، إخراج الرُّوح من الصُّورة (الموت).

3. دخول الأحياء في العدم.

4. البعث: الخروج من العدم وبثّ الرُّوح في الصورة.

5. موت الموت: في الحياة الآخرة.

6. الخلود: حياة سرمديَّة للأشقياء والسّعداء.

قال تعالى: {وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا}[80] الكلام موجه للمخلوق الذي خُلق بالأمر (كن) بفعل التزاوج وهو أهون من خلقه من لا شيء، أي إنَّ الإنجاب عن طريق الأشياء المخلوقة من كائنات حيوانيَّة وبشريَّة وغيرها لم يكن أصعب من الخلق من لا شيء؛ ولذلك في قولٍ للمقارنة فقط إن توفرت الأشياء فهذا أيسر للخلق، ولكن أن تتيسر أمور الخلق بالفعل (كن) دون أن يكون هناك وجود لشيء مخلوق فهنا ينبغي أن يكون التفكير والتدبُّر من أجل بلوغ المعرفة الواعية المؤدِّية للإيمان.

---

[79] - تفسير حقي ج 15، ص 437

[80] مريم 9

. التفكير في الخلق من لا شيء على المستوى الذّهني لبني آدم يكون أصعب من التفكير في بعث الأموات أحياء؛ وذلك لبقاء الأموات أثرٌ في عالم الوجود، فالذي له أثرٌ لوجوده فبعثه أيسر من الذي لا اثرَ له، ولكن لأنَّ مالك الملك يملك الأمر في ملكه فكل شيء له ميّسر في ملكه ولا فرق في ذلك سبحانه أنَّه الأعظم.

وبما أنَّه لا عدم إلا لوجود أو موجود، وأنَّ العدم يُعدم ويزول، إذن يعد العدم من عالم الوجود، وإلَّا هل يمكن أن يموت الموت وتبقى الحياة سرمديَّة لو لم يكن العدم موجودًا؟ ولأنَّه موجود فهو يُفعل، ولأنَّه يُفعل يترك أثرًا من بعده. فالموت الأوَّل تخرج الرُّوح به من الصُّورة أو الهيئة التي من بعده تصبح هامدة، والموت الآخر هو الذي يفتك بالموت الأوَّل فتكون الحياة من بعده في عالم الدّيمومة.

. فلو تساءلَ أحدٌ:

هل العدم موجود؟

فماذا يتبادر للعقل والفكر من إجابات؟

وفي اعتقادنا أنَّ الإجابة لا تخرج عن الاحتمالين الآتيين:

1 . نعم إنَّه موجود.

2 . لا. ليس له وجود.

وفي كلا الاحتمالين (سلبًا وإيجابًا) نتساءل:

هل يمكن لك أن تنفي شيئًا لو لم يكن موجودًا؟

تكون الإجابة بالطّبع لا.

هل يمكن لك أن تعترف بشيء لو لم يكن موجودًا؟

أيضًا تكون الإجابة بالطّبع لا.

إذن في كلتا الإجابتين اعتراف واضح لا لبس فيه بوجود العدم، وبما أنَّه موجود (مخلوق) فلابد من ورائه واجد (خالق عظيم).

ولأنه كذلك فهو يتساوى مع المخلوقات الأخرى من حيث كونه مخلوقًا ويتميَّز عن غيره من المخلوقات بالخصوصيَّة كما غيره يتميَّز عنه بالخصوصيَّة التي خلق عليها.

ولذلك لا يتم الاتفاق مع القائلين بأنَّ العدم هو الأصل كما جاء في تفسير الرَّازي "الأصل هو العدم"[81]. فالأصل هو السّمة السّائدة والغالبة، وبمقارنة العدم بالحياة، نلاحظ أنَّ السَّرمديَّة هي للحياة وليس للموت، وبهذا تكون الصّفة السّائدة والغالبة بالقوَّة هي الحياة.

وعليه فالحياة حياتان:

1 . في الدُّنيا: الحياة فانية بالموت.

2 . الحياة الباقية: الحياة الدَّائمة بعد موت الموت وهذه السِّمة الدَّائمة (سمة الحياة). "فجنس الموت كله ينقضي وينتهي، والحياة ثابتة دائمة؛ ولذلك ورد ما صح عنه عليه الصَّلاة والسَّلام في أن الموت يُذبح، إعلامًا بانقضاء جنسه وثبات الحياة"[82].

والقول: "بأن القبلية تقتضي العدم الذي هو صفة المخلوق"[83] قول يحتاج إلى إضافة وهي كل قبلية وبعدية في ثنائية (الحياة والموت) تقتضي العدم إلى أن يتم بلوغ الحياة الدَّائمة بعد العدم الدَّائم.

---

[81] تفسير الرازي، ج 1، ص 53.

[82] نظم الدرر للبقاعي، ج 1، ص 48.

[83] نظم الدرر للبقاعي، ج 2، ص 58.

وقد يتساءل البعض:

. ما هي العلاقة بين الحياة المؤقتة والعدم المؤقت؟

علاقة بداية ونهاية. الحياة الدُّنيا حياة زائلة بالموت الذي يلاحقها دون أن تفلت منه.

. ما هي العلاقة بين الموت الدَّائم والحياة الدَّائمة؟

علاقة سرمديَّة. الموت لن يبعث من جديد؛ وبذلك سيكون في موته سرمديًا، والحياة الآخرة لن يكون من بعدها عدم فتبقى سرمديَّة.

ولذلك فمن يقول "الذي أوجدني من العدم في أحسن تقويم"[84] يكون صائبًا لو قال الذي خَلقني من تراب بدلًا من الذي أوجدني من العدم؛ مصداقًا لقوله تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آَدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[85]؛ وذلك لأنَّ العدم شيء والتراب شيء آخر سابق عليه، ونحن الذين خُلقنا من التراب والطِّين اللازب ولم نكن مخلوقين من العدم الذي هو الآخر مخلوق لأجل القضاء على الحركة الحياتيَّة.

ومن حيث الأسبقيَّة لا يمكن أن يكون العدم أوَّلًا، فلو كان أوَّلًا لما كان للحياة وجود، وهذا المبرر كاف لبقاء المخلوقات على قيد الحياة حتى تعدم بالموت، فإذا اعتبرنا المعركة حامية الوطيس بين قابيل وأخيه هابيل هي المسبب لكشف اللثام عن وجه الموت وإعلان نفسه مخلوقًا قادرًا على إنهاء الحياة بالأمر (كن) الذي أصدره الله إليه: {فَطَوَّعَتْ لَهُ

---

[84] المنتخب، ج 2، ص 139.

[85] آل عمران 59.

نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ}[86] ألا يكون ذلك دليلًا على أسبقيَّة الحياة على العدم؟ أي إنَّه دليل على ملاحقة الموت للحياة أينما تكون؟

. قال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[87] من هذه الآية الكريمة يتم الوقوف على أولويَّة الخَلق وهي الإحياء من الموت كونه من الوجود، ثمَّ تأتي الموت التي من بعدها يأتي الإحياء الدَّائم؛ قال تعالى: {قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}[88]

ولدفع الوهم الذي يتبادر إلى الذهن من الآيتين اللتين ابتدأتا بالموت وهذه الآية ابتدأت بالحياة نقول: ذلك لمناسبة الآية التي قبلها في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[89] فعندما ذكر الخَلق في بداية الآية وهي الحياة، وانتهت بالموت (الأجل المسمى) ما كان ينبغي إلَّا أن يذكر في الآية التالية الحياة أوَّلًا ثمّ الموت ثنيًا لمناسبة السّياق القرآني، علمًا أنَّ الموت خلق من الشَّيء ضمن الخلق العام للحياة كما تقدم.

---

[86] المائدة 30، 31.

[87] غافر 68.

[88] الجاثية 26.

[89] غافر 67.

. وهناك من يقول: "وهو خلقكم أوَّل مرَّة من العدم"[90] هناك لبس في المفهوم من حيث الخلق الأوَّل، فالخلق الأوَّل كما سبق القول ليس من العدم بل من لا شيء، ثم خلق الشَّيء، ثم خلق الأشياء من الشَّيء، وهكذا من ضمن خلقه للشيء خلق الموت ليلاحق الحياة إعداما لها حتى النهاية التي سيقبر الموث فيها؛ ولذلك كان الخلق على النحو الآتي:

الأوَّلُ: خلق الشَّيء من لا شيء: قال تعالى: {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا}[91]. إذًا خَلْقُ الشَّيء من لا شيء هو الخلق الأوَّل الذي خَلق منه الأشياء، وكل مخلوق مناسب في شيئه لطبعه وصفاته وخصائصه وخُلق التراب والطّين لكل صنف ومخلوق وهو الأصل، والشَّيء هو البداية، ولكل بداية نهاية تلاحقه فلا تكون إن لم يكن.

الثَّاني: خَلق الأشياء من الشَّيء: (المخلوق الأوَّل) خلق آدم من التراب وهو الشَّيء الذي منه الطّين اللازب، أي إنَّه خلق الزَّوجين من الشَّيء الواحد؛ قال تعالى: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[92]، وجعل الموت يلاحق ما خلق وفقًا لقاعدة (كل شيء بحسبان)؛ قال تعالى: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ}[93]؛ فالذي خوّلهم فيه تعالى هو الشَّيء الذي منه وله خلقوا، فالأرض هي الشَّيء الذي منه خَلق المخلوقات

---

[90] المنتخب، ج 2، ص 335.

[91] مريم 67.

[92] الذاريات 49.

[93] الأنعام 94.

الأرضيَّة (المخلوقة من الأرض) وهي الشَّيء ذاته الذي خوَّله الله تعالى لمن يخلفون في الأرض ليصلحوا فيها ولا يفسدوا ولا يسفكوا الدِّماء بغير حقٍّ.

الثَّالث: الخَلق مِن المخلوقين مِن الأشياء: الخلق من النُّطفة المترتِّبة على خلقه تعالى للزّوجين من التراب: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[94] نلاحظ عمليات التطوّر للخلق في أحسن تقويم، فكان الخلق من التراب، ثم من النّطفة، ثم من العلقة، ثم إخراج الطّفولة مولودًا، وهكذا يستمر النمو لمن لم تكن له النهاية المبكرة في أي مرحلة من مراحل النمو إلى النهاية: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ}[95]. ووفقًا لما سبق تبيانه، فالتراب هو الذي منه خلق الزّوجين الذَّكر والأنثى، ومن الزّوجين خلق التكاثر.

الرَّابع: خَلق البعث: الذي لا يمكن أن يكون له البقاء إن لم يُعدم الموت من الوجود الحي؛ ولذا فالبعث إعادة الحياة لمن سبق وأن عاش الحياة الأولى؛ قال تعالى: {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ}[96]؛ قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ

---

[94] غافر 68.

[95] الزمر 30.

[96] يس 79.

اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ}[97].

يلاحظ من هذه الآيات الكريمة السَّابقة أنَّ وراء كل خلق في المراحل السَّابقة موت وعدم إلَّا المرحلة الرَّابعة (خَلق البعث) فهي مرحلة الخلق الدَّائم، التي لا يلاحقها عدم؛ حيث موت الموت؛ ولذلك الدَّار الدّنيا دار فناء والدَّار الآخرة دار بقاء. ولكن أين يكون البقاء فيها؟

الإجابة على هذا السّؤال ترتبط بما قدّمت يدا الإنسان من عمل فإن كان من المستخلفين فيها فالجنّة هي المأوى؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفس عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الجنّةَ هِيَ الْمَأْوَى}[98]، وإن كان من المفسدين فيها وسافكي الدِّماء فجهنَّم هي المأوى؛ قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآَثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى}[99].

ـ وهناك من يقول "العدم ليس بشيء"[100]، ونحن نعتقد أنَّه:

ـ لو لم يكن شيئًا، ما كان له وجود.

ـ ولو لم يكن شيئًا ما كان يُفعل.

ـ ولو لم يكن شيئًا ما كان له أثرٌ.

ـ ولو لم يكن شيئًا ما كانت له النّهاية السرمديَّة.

ـ ولو لم يكن شيئًا ما تحدثنا عنه اختلافًا واتفاقًا.

---

97 المؤمنون 12 ـ 16.

98 النازعات 40، 41.

99 النازعات 37 ـ 39.

100 مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ج 2، ص 368.

. ولو لم يكن شيئًا ما كتبنا عنه شيئًا.

فالعدم شيء من الأشياء المخلوقة، مثله في الخلق مثل جميع المخلوقات الإدراكيَّة التي لا تتجسَّد في مادّة، وإنما تلاحظ من خلال انعكاس نتائجها على الأشياء الماديَّة مثل الخير والشَّر.

ولو أنَّ البعض يقول: "إنَّ الشّرَّ إمَّا عدم وإمَّا من لوازم العدم"[101].

ونحن نقول: إنَّ الشرَّ عمل وفعل من أفعالنا ولسنا مجبرين عليه، إنَّه من اختياراتنا وإرادتنا، ولم يكن فرضًا لا مفرّ منه كما هو حال إعدام الموت الذي لا مفرّ منه أبدًا؛ قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}[102]؛ وقال تعالى: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}[103]؛ ولذا فالشرّ من صفات المفسدين في الأرض وسافكي الدِّماء بغير حقٍّ، والشرّ ألم، والألم ليس عدمًا، ولأنَّ الشرّ ألم فهو قد يؤدّي إلى العدم، وإذا ما أدّى إلى العدم، فإنَّه يصبح من مسبباته، والمسبِب غير السَبَب وغير المسَبَب؛ ولذلك وراء كل علَّة معلول.

ولهذا لم نقف في القرآن الكريم على لفظة العدم، ولم ترد لا بجذرها اللغوي(عدم) ولا من اشتقاق لفظها، ولم تكن من أسماء الله تعالى ولا من صفاته، لا نصًا ولا تصريحًا ولا تلميحًا، وإنما جاء قوله تعالى: {بَدِيعُ

[101] مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ج 5، ص 110.

[102] فصلت 46.

[103] آل عمران 180.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[104] أي هو مبدعهما، فقد ابدعهما ولم يكونا شيئًا، فالبديع هو المبدع، وهو الذي يبدع الأشياء و يحدثها، أو ينشئها على غير مثال سابق، والإبداع الإلهي هو إيجاد الشَّيء لا عن شيء دفعة واحدة من غير مادَّة ومدَّة، إذ ليس للعدم وجود ولا ذكر.

قال تعالى: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}[105].

وهذه الآيات تلم شعث ما تفرق في هذا الموضوع إن كان ثَمَّ تفرقٍ؛ وذلك لأنَّها تدلُّ على أنَّ:

أ . جميع الخلق مذعنٌ لله تعالى.

ب . هناك من الخلق من يشتبه الخلق عليهم.

ج . الله تعالى خالق كل شيء.

د . الله تعالى له القدرة المطلقة في قهر كل شيء.

إنَّ جميع ما خلق الله تعالى هي أشياء، والشَّيء لفظ عام يشمل المادي والمعنوي والحسي والإدراكي، والمشاهد والغيبي، والنَّفسي والذهني،

---

[104] البقرة 117

[105] - الرعد 15- 16

والرّوحي والقلبي، كبيره وصغيره وجليله ودقيقه وكل شيء ما عدا الله تبارك وتعالى؛ لذلك قال رَسُول الله عليه الصَّلاة والسَّلام:" كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السّماوات والأرض، وكتب في الذّكر كل شيء"[106].

وقد اتفق الفلاسفة والمتكلمون والفقهاء على الرّغم من اختلاف آرائهم الفكريَّة في القضايا والكليَّات والجزئيَّات، بأنَّ لفظة العالَم هو ما يضم مجموع الأشياء المخلوقة، وكل ما هو موجود سوى الله، وعلى كل ما هو موجود ليس وجوده بذاته.

فالذين يقولون هذا شيء من العدم، فقد أدخلوا العدم ضمن الشيئية، فإذا دخل ضمن الشيئية كان جزءً من الخلق، وطالما أنه جزء من الخلق فهو إذن مخلوق، وطالما أنَّه مخلوق فقد أوجده موجد الأشياء، وأمَّا ظهوره وخفاؤه، بالنّسبة إلى المحسوسات، فظهورها وجودًا، وخفاؤها عدمًا، وبالنّسبة إلى المدركات يستوي فيها الظهور والخفاء، وتدرك من خلال اتصاف المحسوسات بها، أو عدم اتصافها عندما تفارقها.

وعلى هذا يكون فقدان الشَّيء هو عدم وجوده بعد أن كان موجودًا، أي إنَّه خرج من حيّز الوجود إلى حيّز العدم، وهنا يمكن أن نقول أنَّ العدم عالَم من عوالم ما بعد خلق الشَّيء وليس قبله، وبهذا يكون إعدام المعدومات، هو انتقالها من حالة الظّهور إلى حالة الخفاء، بصرف النّظر عن ماهيتها وتغيّر طبيعتها، فإعدام الأنفس مثلًا لا يعني وصولها

---

[106] - صحيح البخاري ج 24، ص 237

إلى ما وراء اللاشيء فقد قال تعالى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[107]

والذي ثبت وصحّ مَن فهم هذه الآية، أنَّ الحياة المذكورة إنَّما هي ضم الجسد إلى النَّفس ونفخ الرّوح فيه، وأنَّ الموت المذكور ليس إعدامًا لا للنّفس ولا للجسد، إنما هو التفريق بين الجسد والنَّفس والرُّوح.

. وبالعودة إلى قانون المادّة (لا تفنى ولا تخلق من عدم).

نقول: المادَّة ستظل باقية في صورتها التي خُلقت عليها أو تتغيَّر بأسباب، ومهما تغيرت ستظل مادَّة وإنِ تغيَّرت، فالرَّماد مادَّة تغيَّرت من الحطب الذي التهمته النَّار، فقبل أن يصبح الحطب حطبًا كان شجر أخضر، ثم أصبح الحطب رمادًا وفي كلا الحاليتين انعدم الحطب وبقي الرَّماد مادَّة، ومع أنَّ الحطب سابق على الرَّماد إلَّا أنَّه لم يخلق من العدم؛ وذلك لأنَّ مصدر خلقه معلوم وسابق عليه وهو (الأرض)، ولهذا يتساوى خلق الإنسان مع خلق الحطب من حيث أنَّهما مخلوقان من الأرض حتى وإن اختلفت عناصر خلقهما؛ حيث خلق الإنسان في أحسن تقويم، وخلقت الأشجار غير مساوية له.

قال تعالى: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ

[107] - البقرة 28

جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ}[108].

فقوله (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا) تعني بعد الموت تتحوَّل الأجساد إلى تراب (عدم) أي أصبحت على هلاك لا صورة لها أو وكأنَّها غير ذات علاقة بما كانت عليه قبل الموت والعدم؛ ولذلك فقوله (قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ) بأسباب التغيّر مثلما تغيّر الحطب وأصبح رمادًا، وستظل المادّة تتغيّر بأسباب الحركة والسّكون والزّمان، ومع أنَّها تتغيّر إلَّا أنَّها لن تفنى في الحياة الفانية؛ ولذا فهي دائمًا قابلة للبعث من جديد بأمر من يمتلك أمر الكينونة جلَّ جلاله. وقوله (أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) الخلق الأوَّل هو الخلق من لا شيء أي إنَّه المرحلة الأولى لخلق الأشياء من لا شيء، وبعد الخلق الأوَّل خَلق الموت الذي يترتّب عليه فعل العدم، فالإنسان على سبيل المثال: يخلق حيًّا ثم يموت، ثم يصبح عدمًا؛ مصداقًا لقوله تعالى: (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ)، ثم يبعث من جديد؛ قال تعالى: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ}[109].

---

[108] ق، 3. 15.

[109] النمل 65.

وهنا نقف على تساؤلات حول ما قَبل الحياة وأثنائها وما بعد الموت:

1 . هل الخلق البشري عندما كانوا نطفًا في أصلاب آبائهم وفي أرحام أمهاتهم جيلًا قبل جيل معدومين أم إنَّهم كانوا موجودين في العدم؟

2 . إخراجهم من الأصلاب والأرحام إلى الحياة هل كان من العدم أم من الأشياء؟

3 . دخول الأحياء في الموت هل هو إعدام أم دخول في العدم؟

فالإجابة على التساؤل الأوَّل تقول: أنَّهم لو كانوا عدمًا لما وجدوا، لأنَّهم قبل اللاشيء، وقبل اللاشيء، أي لا وجود، وقبل اللاوجود كان الله ولا شيء معه، ثم خلق الله الأشياء بالكينونة. والعدم من الأشياء، إذن هو مخلوق، فإنْ كانوا في العدم، فقد كانوا به، بعد خلقه، وعلى هذا فهم خرجوا من الظرفيَّة أشياءً، ولم يخرجوا من الكلية أجزاءً. بمعنى أنَّه خرج شيء من العدم الذي هو شيء من الخلق؛ ولم يكن جزءً من العدم اللاشيء.

الثَّاني: بعد أن اتضح الأمر الأوَّل أصبح من اليسير فهم إخراج الموتى من الموت الأوَّل إلى الحياة عن طريق أصول أشيائهم، وهذا يعني أنَّهم لم يأتوا من العدم اللاوجود الذي اصطُلح على فهم معناه بهذه الدّلالة البعيدة عن حقيقة المعنى، وإنَّما خرجوا من الظّرف العدمي الذي يضم المعدومات بأسباب إعدامها، وتخرج منه بأسباب وجودها.

الثَّالث: دخول الأحياء في الموت مرَّة أخرى لا يعني إعدامها من ضمن دائرة الوجود، وإنَّما دخولها ظرف العدميَّة الخفي، وليس على شكل

وجودها الأوَّل الذي خرجت منه بعودتها إلى أصول أشيائها، وإنَّما استقلّت وأصبحت أشياء معدومات بذواتها.

وربّ قائل يقول كيف يكون عدمًا ويكون معروفًا؟

فهنا عود على بدء ما أسلفنا مما أقرَّه أصحاب العقول على اختلافاتهم، وأثبتته الشّريعة بالأدلة النقليَّة والعقليَّة من أنَّه كان الله ولا شيء معه، وهو قبل كل شيء، ثم خلق الأشياء بمشيئته، وخلق العدم من جملة الأشياء، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

فمن قال غير هذا فقد جعل العدم عدمين:

1. عدم مخلوق يضم المعدمات التي أعدمت والتي لم توجد بعد.

2. عدم مفترض توجد منه الأشياء إلى الوجود، وهو مخالف للمشيئة.

فالعدم الثَّاني هذا كيف يكون ولم يشأه الله، والله تبارك وتعالى شاء الشَّيء وخلق منه الأشياء، وهذا العدم كيف يكون شيئًا وهو خارج الشَّيء، فما كان خارج الوجود لا وجود له.

وأمَّا نحن فنقول: إنَّ العدم مخلوق يضم المعدومات وهو مصاحب للموجودات ونستطيع أن نقف عليه كونه مخلوقًا؛ حيث من المعروف أنَّ علماء الأصول برهنوا على أنَّ الاستصحاب أربعة أقسام، والذي يعنينا منها أوَّلها، وهو استصحاب العدم: "الأوَّل استصحاب العدم الأصلي حتى يرد الناقل عنه وهو البراءة الأصلية والإباحة العقليَّة؛ كقولنا: الأصل براءة الذّمّة من الدِّين فلا تعمر بدين إلَّا بدليل ناقل عن الأصل يثبت

ذلك. والأصل براءة الذمَّة من وجوب صوم شهر آخر غير رمضان فيلزم استصحاب هذا العدم حتى يرد ناقل عنه"[110].

ولذا كيف يكون عدمًا ومستصحبًا في الوقت نفسه؟

نقول: هذا الأمر كنفي صلاة سادسة وسابعة، ونفي وجوب صوم شوال بعد رمضان.

فالصلوات خمس معروفة الكيفيَّة، والذين يصلّون الخمس، يمكن أن يصلّوا سادسة، ولكن نفي الوجوب جعلها حاضرة في العدم.

وكذلك الصَّوم، فهناك من يصوم شهرين متتابعين في النّذر مثلًا، أو كفارة القتل الخطأ؛ قال تعالى: {فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}[111].

إذن هناك من يستطيع أن يصوم شهرين متتابعين، وشوال يتبع رمضان، فالشّهر الثَّاني موجود، والذي يستطيع صومه موجود أيضًا، ولكن نفي الوجوب جعله قائمًا في العدم، فالأمر قائم تصورًا وكيفيَّةً ضمن الظَّرف العدمي، وهذا معنى استصحاب العدم.

وأمَّا إيجاد المعدوم من العدم بعد أن كان عدمًا، فمعروف في معاملات البيوع، وهو دليل على أنَّ العدم مخلوق بما فيه: "إذ ليس في كتاب الله ولا في سنة رَسُول الله عليه الصَّلاة والسَّلام، ولا في كلام أحد من الصَّحابة أنَّ بيع المعدوم لا يجوز لا بلفظ عام، ولا بمعنى عام وإنَّما في السُّنة النَّهي عن بيع بعض الأشياء التي هي معدومة كما فيها النَّهي عن

---

110 - أضواء البيان ج 4، ص 286

111 - النساء 92

بيع بعض الأشياء الموجودة، فليست العلّة في المنع لا العدم ولا الوجود، بل الذي وردت به السُّنة النَّهي عن بيع الغرر وهو ما لا يُقدر على تسليمه سواء كان موجودًا أو معدومًا كبيع العبد الآبق والبعير الشارد وإن كان موجودا؛ إذ موجب البيع تسليم المبيع فإذا كان البائع عاجزًا عن تسليمه فهو غرر ومخاطرة وقمار فإنه لا يباع إلَّا بوكس، فإن أمكن المشتري تسلّمه كان قد قمر البائع وإن لم يمكنه ذلك قمره البائع، وهكذا المعدوم الذي هو غرر نهي عنه للغرر لا للعدم"[112].

ونحن لسنا بصدد المسائل الفقهية، وإنَّما الذي يهمنا من الأمر هو عقود بيع العدم التي تجري على المعدومات قبل إيجادها بصرف النَّظر عن الناحية الشّرعيَّة التي ذهب الفقهاء بها في أكثر من مذهب، إلا أنَّهم جميعًا، ممن أجاز بيع بعض العدم دون بعض، أو الذين لم يجيزوا ذلك على الإطلاق، فإنَّهم أقروا بأنَّ هذه الأنواع من البيوع هي عدم، وسوف تخرج إلى الإيجاد فقالوا:" أن يكون موجودًا فلا ينعقد بيع المعدوم، وماله خطر العدم كبيع نتاج النتاج بأن قال: بعت ولد ولد هذه الناقة، وكذا بيع الحمل، لأنَّه إن باع الولد فهو بيع المعدوم، وإن باع الحمل فله خطر المعدوم، وكذا بيع اللبن في الضَّرع، لأنَّه له خطر لاحتمال انتفاخ الضرع"[113].

وعلى هذا فالمعدوم مخلوق لم يخرج إلى الوجود كما أنَّ الفاني يدخل في العدم، والشَّيء ينتقل من الوجود إلى العدم، كما أنَّ المعدوم ينتقل إلى

[112] – أعلام الموقعين ج 2، ص 28

[113] – بدائع الصنائع ج 11، ص 71

الوجود، أي من الظهور إلى الخفاء، ومن الخفاء إلى الظّهور، وطالما أنَّ العدم شيء فهو يضم المعدومات، إذن ما فني وجودًا، فهو موجود عدمًا ضمن العدم.

كما أنَّ عدم العلم بالشَّيء ليس نفيًا وجوديًّا للعلم، وإنَّما هو معدوم لغير العالم بالعلم، وعدم علمه به لا يشغل حيزه اللاوجود، وإنَّما يشغله الجهل الذي يحل محلّ صفة العالم بالعلم، فإن استُحضر العلم بأسبابه، فقد خرج من العدم إلى الإيجاد، وعلى هذا لا يلزم من نفي العلم بالشَّيء عدمه وجوديًّا، وإنَّما يُؤَكَّد وجوده في العدم.

العدمُ بين النَّفي والإثبات:

إنَّ نفي العدم هو إثبات لوجوده؛ فذلك إن لم يكن موجودًا ما نفي، بدليل أنَّ النَّفي والإثبات هي محاورة جدليَّة تدور بين اثنين أو أكثر من أجل إثبات وجود قضيَّة أو دحضها.

وأي قضيَّة تدخل مجال الحوار لا بدّ من توفر شروطها لدى المتحاورين والعلم بها من جميع الجوانب في أدلة النَّفي والإثبات والوجوب والجواز، وما تجتمع هذه الأمور إلَّا في قضية معلومة حسًا أو إدراكًا، وعلى هذا يكون مبدأ قضيَّة الحوار:

- علم القضيَّة وحيثيتها.
- أدلة وجوبها.
- أدلة نفيها.
- أدلة الجواز فيها.

الأوَّل: إذا عُلم العدم، كان موجودًا، إذن هو مخلوق، والخالق يُدخل الموجودات في العدم، ويخرج المعدومات إيجادًا؛ قال تعالى: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ}[114]

الثَّاني: أدلة الوجوب النقليَّة والعقليَّة أكثر من أن تحصى، فمن الأدلة العقليَّة أنَّ كل حي يموت، وكل ميت داخل في العدم، وأكّدته الأدلة النقليَّة في قوله تعالى: {وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ}[115].

الثَّالث: إذا انتفى العدم، فأين تذهب المعدومات إذا لم تذهب إلى العدم نفسه؛ فإن قال قائل: {وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[116] فنفي العلم بالشَّيء نفي من حيث الخلق ينفي الخوض فيه، أمَّا النَّفي من حيث عدم العلم به فلا يقوم دليلًا.

الرَّابع: إذا استوت أدلة الوجوب وأدلة النَّفي دخلت في الجواز، والجواز يحمل صفة ضدّه، لأنَّ علامة الجواز صحة النَّفي، فالجواز ينفي أحد الجانبين، فإن نفت الوجوب فقد نفت إثباته بدليل وجوده، وإن نفت النَّفي، فنفي النَّفي إثبات.

وعليه: فإنَّ العدم شيء. والأشياء خَلق مما خلق الله تعالى، وعلى هذا فالعدم مخلوق تخرج منه المعدومات إلى الوجود حين تشاء المشيئة، ففي قوله تعالى: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا

114 - الروم 19

115 - الحج 7

116 - النحل 8

وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[117] وقد مرّ بنا سابقًا بيع بعض العدم، وعسل النَّحل من هذا القبيل، حيث يكون موجودًا في العدم قبل أن يخرج إلى الوجود، ثم بعد أن ينتهي يصبح وجوده عدميًّا؛ ومثل ذلك في قوله تعالى: {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[118] إنَّ جميع المخلوقات في الحياة الدُّنيا، إمَّا موجودة أو معدومة، وفي كلا الحالين تكون القضيّة نسبيّة للوجود وللعدم؛ ففي قوله تعالى: {وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آَخَرِينَ}[119] و(كم) تعني الكثرة، أي قرى كثيرة أهلكها الله تعالى، ومعنى الهلاك هو دخولها دائرة العدم النّسبي، وإنشاء أقوام آخرين هو خروجهم من دائرة العدم النّسبي إلى الوجود النّسبي في الحياة الدّنيا، وعلى هذا فالإنسان في الحياة الدّنيا يكون نسبيًّا وجودًا وعدمًا.

أدلةُ وجود العدم على العدم:

أدلة وجود العدم كثيرة وقد مرّ بنا بعض منها، ولكنّنا سوف نؤطّرها وفق قواعد لا تخرج عن هذه الأدلة، فمنها ما يكون الدّليل والمدلول عدميين، ومنها ما يكون الدَّليل وجودي والمدلول عدمي، ومنها ما يكون

---

[117] - النحل 68- 69

[118] - النحل 66- 67

[119] - الأنبياء 11

الدَّليل عدميًا والمدلول وجوديًا، ومنها ما يكون الدَّليل والمدلول وجوديين، فهي أربعة أنواع:

1 . دليل العدم على العدم ومثاله: عدم الغيم دليل على عدم المطر.

2 . دليل الوجود على العدم ومثاله: وجود النَّهار دليل على عدم وجود الليل.

3 . دليل العدم على الوجود ومثاله: عدم الليل دليل على وجود النهار.

4 . دليل الوجود على الوجود بعدم نقيضه ومثاله: شروق الشَّمس دليل على وجود النّهار.

فلا يمكن الاستدلال بشيء على شيء من غير جنسه . ما خل الذَّات الإلهية . التي يستدلّ عليها بآيات الخلق.

والمقصود من غير جنسه لا من حيث المادّة، ولا من حيث النَّوع، وإنَّما يدخل في ذلك جنس الخلق المطلق، بمعنى هل نستدل بالمخلوق على اللامخلوق؟

فهذا لا يستوي عقلًا، ولا يستوي تصوّرًا.

إنَّ البراهين العقليَّة والمنطقيَّة لا تتفق بالاستدلال على اللامخلوق بالمخلوق، أو على اللاخلق بالخلق، وعدم الاتفاق اختلاف، والاختلاف في القضيَّة يدخلها في الجواز، والجواز يحمل صفة نفيه بنفسه، والنّفي لأحد الأمرين يثبت الآخر، والآخر أي آخر منهما لا على التعيين، وبهذا يجوز في كلا الأمرين نفيه وثبوته في آنٍ معًا، وهذا مخالف ومن يسلّم بذلك يجد نفسه مخالفًا للحُجَّة والمنطق.

وكذلك لا يستوي تصوّرًا ذهنيًّا لـ(اللامخلوق) من حيث اتحاد الصّورة وتشابهها بين المتصوِّرين، لصورة متخيّلة، لأنَّ شروط قضيَّة البحث تقتضي الوقوف الذهني على حيثياتها، من التصور والأبعاد والماهيَّة ونقطة الارتكاز، وتصور هذا العدم المفترض لا تنطبق له صورة واحدة لدى جميع الأفراد، واختلاف الصّورة يؤدِّي إلى تعددها، وهذا التعدد يجعل منها قضايا متعددة في تصورات مختلفة يعطي رؤى متباينة لا يخرج بنتيجة لاختلاف الموضوع، وبهذا يكون البحث والجدل في قضيّة مختلفة في تصوّر كل آخر.

فالعدم الذي ما قبل الشَّيء الذي يدور عليه المصطلح نقول إنَّه لا وجود له، وإنَّما العدم شيء مخلوق يضم المعدومات، فلا يمكن أن يكون عدمًا في ما وراء الخلق يضم المعدومات المخلوقة.

فمن قال بأنَّه عدم لا وجود له، فكيف يتكلّم عن العدم؟ وإن جعله لا داخل الخلق ولا خارجه فقد لجأ إلى حجَّة فاسدة وهي محال.

فإنْ قال: العدم موجود في عدم فقد عُلم الأوَّل وجُهل الثَّاني، وهذا لا يقوم دليلًا، لأنَّها قضيَّة فاسدة عقلًا.

فإن قال: العدم الأوَّل مخلوق، والعدم الثَّاني خارج الخلق، فكيف يكون المخلوق ضمن اللامخلوق وهو محال أيضًا.

وأمَّا إذا كان المقصود بالعدم هو اللاشيء واللاخلق مع يقيننا بقوله تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا}[120] فنحن لا نعلم طبيعة ذلك

---

[120] الكهف 45

اللاشيء وهو خوض في علم الغيب الذي لم يطلع الله تعالى عليه أحد من خلقه، وهذا ممتنع من حيث الوصف.

وأمَّا أن يكون هذا العدم الذي يتكلمون عنه مخلوقًا أو غير مخلوق وفي الحالتين لا نعلمه، فإذا كان مخلوقًا وهو خارج علمنا به فهو ممتنع من حيث الإدراك.

وإن كان غير مخلوق ونقدّر افتراضه فهو ممتنع أيضًا عن العقل، لأنَّ الصّورة الذّهنيَّة المتخيَّلة لا يمكن أن يكون عليها إجماع من حيث الماهيَّة، لأنَّ الماهيَّات صور ما قبل الخلق، ويختلف تصورها من عقل إلى عقل ومن ذهن إلى ذهن، فهو ممتنع أيضًا، إمَّا للتعدد وإمَّا للتغاير، وإمَّا للامتناع نفسه. وعلى هذا فالعدم شيء، والأشياء مخلوقة، فالعدم خلق من خلق الله تعالى. ونسأل الله العفو عن السّهو والخطأ والزلل.

أحوالُ العدم في الإنسان:

قال تعالى: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ}[121] ظاهر من سياق الآيتين الكريمتين أنَّ الذين كفروا، يظنّون أنَّهم إذا ماتوا فإنَّهم يعدمون وجودًا، لأنَّهم أنكروا البعث والنشور بعد الموت لأنَّه رجْع بعيد الوقوع كما زعموا، غير أنَّ الله تعالى ردّ على دعواهم بعلمه مقدار ما تأخذ الأرض من أجسادهم بعد الموت، وما يبقى فيها وما يتبخر من ماء وما يتطاير من غازات من تلك الأجساد بعد أن تفارقها الرّوح وتدخل في الموت.

---

[121] - ق 3- 4

عندما نتمعن في طيات هذه الآيات، نجدها تحمل معنى القانون العلمي الذي يدلّ على أنَّ المادة لا تفنى، بل إنَّها تدخل في العدم، ودليل ذلك أنَّ الوقود المعروف(النّفط) أو الشَّمعة عندما تحترق لا تفنى مادتها، بل إنَّها تتحوَّل في أثناء احتراقها وبعده، إلى مواد إمَّا غازية وإمَّا سائلة وإمَّا صلبة، أو حالتين مما ذكر، أو اجتماع الحالات الثَّلاث كما في الشّجر مثلًا عند احتراقه فإنَّه يتحوَّل إلى بخار ماء وغازات ورماد، ومع هذا فقد دخلت في العدم، أي إعدام الحالة التي كانت عليها، واستحالتها إلى حالة أخرى.

فلو استطاع الإنسان استخلاص عناصرها الجديدة، سوف يجد ما يقابل تلك العناصر، ولكن بهيئات أخرى من حيث الشكل والهيئة، الذي يدلّ على إعدامها، وإعدامها هو دخولها حالة العدم، وليس انتهاؤها وجوديًّا كما هو الظَّن السَّائد من مفهوم العدم.

إنَّ حقيقة بقاء الأشياء وعدم فنائها من الوجود هو قائم في التحولات التي تجري على المادَّة، وإنَّما تدخل في العدم، لأنَّ العدم من الأشياء المخلوقة من الشَّيء الأوَّل، وهو القانون الإلهي وسنة الخالق في خلقه، فلن تجد لسنة الله تبديلًا، ولن تجد لسنة الله تحويلًا عندما خلق الشَّيء وخلق منه الأشياء.

. إذا كان كلّ اهتمام مجالات البحث في الجانب الفكري والعقلي هي خدمة الإنسان لتقدّم له المعرفة من أجل مصلحته، فإنَّ هذا الإنسان الذي هو أكرم مخلوقات الله هو من التراب؛ حيث قال تعالى: {إِنَّ مَثَلَ

عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[122]
وقد ذكر الخاصَّة من خلقه وهم الأنبياء كناية عن تشريفهم على بقية الخلق، وبهذا يدخل العموم في الخصوص، لأنَّ الخصوص هو الأصل(آدم) عليه الصَّلاة والسَّلام، والعموم هو الإنسان، والإنسان جزء من المادّة.

وعليه: فإنَّ الإنسان الذي هو جزء من المادَّة لم يخلق من العدم، ولما كان الإنسان جزء من المادّة، والمادّة شيء، وخلق الأشياء من الشَّيء المادي الذي ترتّب عليه خلق أشياء أخرى من الحركة والأقوال والأفعال فعليه تكون أنواع الخلق:

أ . خلق مادّي.

ب . خلق معنوي.

ج . خلق روحي.

فالخلق المادي هو هذه الأشياء من المحسوسات التي نشاهدها ونقف عليها ونتعامل معها بالشّكل والحجم والعرض والطّول والارتفاع والكثافة والوزن النوعي وما إلى ذلك.

وأمَّا الخلق المعنوي فهو المتولّد من تلك الحيويّة المتولّدة في النَّفس، وكذلك ما يتولّد من الأقوال والأفعال وما ينتج عنها من تصورات وانعكاسات الشّعور غير النتائج الماديَّة، والحركة وما ينتج عنها، مثل الليل والنهار والسنين والأيَّام، والإيجاد والإعدام في التحولات وتبدل الخلق.

وأمَّا الخلق الرّوحي الذي ندركه ولا نعلمه؛ فذلك لأنَّ الله تعالى اختص نفسه به.

---

[122] ـ آل عمران 59

. إنَّ الإنسان كان موجودًا في الشَّيء، ومن الشَّيء خرج، حيث أوجده الله تعالى من ذلك الشَّيء المخلوق من الشَّيء الأوَّل الذي خلقت منه كلّ مكونات الحياة، وبعد ذلك يدخل في العدم مرّة أخرى إلى البعث الدَّائم الذي تأتي منه الحياة السرمديَّة.

وعلى ما تقدَّم فإنَّ العدم هو تغيّر حالة الشَّيء الآنيَّة إلى حالة ثانية بإعدام الحالة الأولى، ولما كان الإنسان من الشَّيء، فإنَّه يجري عليه ما يجري على الأشياء، من الإعدام والإيجاد؛ ولذلك يقال أعدم فلان من النَّاس، وهذا الإعدام يكون على مراحل، نستطيع أن نقف على مرحلتين منها، من خلال المشاهدة والتجريب:

أ . إعدام الحياة وهي مفارقة الروح للجسد حينما يتوفّى الله الأنفس.

ب . إعدام الجسد في فنائه وتحوله إلى عناصر أخرى.

فقد أعدمت الحياة بمفارقة الرّوح وتوقُّف الجسد عن الحركة والإرادة، وهو أوَّل تحوّل عدمي، ثم يعدم الجسد بالفناء لعدم قدرته في المحافظة على خصائصه وصفاته، وهو العدم الثَّاني.

لقد تكوَّنت الخلائق في أوَّل أمرها من التراب، وبعد ذلك تناسلوا وتغذوا بما تخرجه الأرض من نبات وبما يتغذى من الأرض من حيوان، ثم إنَّهم بعد ذلك يقبرون، ثم يبعثون ولا ينقصون، أي إنَّ النَّاس نشئوا نشأتهم الأولى من الأرض، ثم إنَّهم إلى الأرض يعودون؛ ويؤيد ذلك قوله تعالى: {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى}[123]. ومعنى ذلك أنَّ الإنسان الذي يُعدم الحياة، فإنَّ جسده يتحلل ويصبح رميمًا

---

[123] - طه 55

وسائلًا وغازات في التراب والفضاء، ولم ينتهِ من الوجود، وإنّما ترجع إلى أصلها كما كانت، فهي محفوظة بأمر الله الخالق، فقد علم ما أنقصته الأرض من أجسادهم ممّا تناثر في التراب وما تطاير في الفضاء؛ فعنده سبحان وتعالى كتاب حفيظ لكل شيء وكل ذرّة في السّماوات والأرض؛ حيث قال تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[124].

وعليه: يدخل في ذلك جميع أنواع الخلق من الإنسان والنبات وأنواع الأحياء كافّة لشمول العموم، لأنَّ الخلق لا يخرج عن كونه إمَّا رطب وإمَّا يابس، وجميع هذه المخلوقات يجري عليها العدم، وهي داخلة فيه.

فكيف يذهب الإنسان وهو أشرف المخلوقات هباءً ويتبدّد سُدى؛ قال تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ}[125].

إنَّ مادّة أجسام الأحياء لا تنتهي من الوجود بعد موتها، بل هي باقية موجودة في العدم بصور مختلفة بخلق آخر.

العدمُ ظاهرٌ وخفيٌّ:

قبل التوغل في ثنايا العدم لا بدَّ أن نوضّح الفرق بين العدم والإعدام والمعدوم؛ كي تتّضح غوامض من يلتبس عليه الأمر فنقول:

---

[124] – الأنعام 59

[125] – المؤمنون 115

1 . العدم: خَلق من خَلق الله يضمّ المعدومات قبل خروجها منه أو بعد دخولها فيه.

2 . الإعدام: هو ما يسري على المعدومات من فناء الحالة التي كانت عليها حين دخولها في العدم بعد أن كانت موجودة، وقبل دخولها في الظَّرف العدمي.

3 . المعدوم: هو ما يجري عليه العدم من أشياء فيفقدها خواصها ومميزاتها الحسيَّة أو الإدراكيَّة أو كليهما معا.

إنَّ الخوض في متاهات هذا النَّوع من الموضوعات تتطلّب دقّة في البحث وملاحظة النتائج من خلال تحليل القضايا؛ كي لا يبدو الأمر معالجة للقضايا الحسيَّة التي نستطيع أن نقف عليها بالمشاهدة، فيستوي في ذلك أولو البصر وأولو البصائر؛ لذلك سنتناول هنا قضيَّة جزئيَّة من خَلق الإنسان يجري عليها العدم، وهو عدم جزئي يطال الإنسان بأن يأتي على حاسَّة من حواسّه؛ ولتكن حاسَّة البصر.

إنَّ أولو البصر يدركون القضايا الحسيَّة كونها لا تخرج عن الحس في ماديتها، أمَّا إدراكات ما وراء الحس فتحتاج إلى البصيرة إضافة إلى البصر؛ وذلك أنَّ البصيرة هي التي تقف على إدراكات ما وراء الحس من خلال التأمُّل في آيات الله تعالى؛ فقد جاء في محكم التنزيل قوله تعالى: {كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ}[126]. وهذا الشَّأن هو التصرّف في خلقه لشأنٍ أراده الله لهم في هذا اليوم أو الذي قبله أو الذي يليه. فمن خلال آيات الله في خلقه نستطيع أن نقف على أنواع من العدم الظّاهر والعدم الخفي

[126] - الرحمن 29

والعدم المؤقت والعدم الدّائم، وكل هذه الأنواع التي نتناولها إنَّما هي من معدمات الحياة الدُّنيا وتظهر لنا في شاهد واحد وهو عدم البصر.

. **عدم البصر**:

ربما يكون هذا النَّوع من العدم فيه من الغرابة ما يستدعي التساؤل لدى القارئ، كيف يكون عدمًا ظاهرًا خفيًّا دائمًا مؤقتًا؟

قال تعالى: {سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[127]. فمن آيات الله تعالى في خلقه نعمة البصر التي أنعم الله بها على عباده. فالأصل في الإنسان أن يكون له عينان يبصر بهما، وعدم البصر هو وجود العينين أو ما يدلّ على وجودهما مع عدم الإبصار، وحالات فقدان البصر هي عدمه أو عدم وجوده بدرجات مختلفة وهو ينقسم إلى ثلاثة أنواع:

1 . الأكمه الذي يولد ويعيش ولم يرى شيئًا، فقد أتى على بصره عدم دائم، وصاحب هذا النَّوع من العدم لبصره لا يعرف معنى البصر وإنَّما يرسم له صورة ذهنيَّة متخيّلة لا تنطبق على واقع الرّؤيا والمشاهدة، فتكون صور الأشياء في ذاكرته من خلال حاستي السَّمع واللمس في دائرة توقّعه لذلك الشَّيء الذي يغاير حقيقة واقع الأشياء المشاهدة، وهنا يكون قد جرى على الأكمه عدم ظاهر دائم بالنّسبة إلى الآخرين، وفي الوقت نفسه هو عدم خفي دائم بالنّسبة إليه، لأنَّه لم يعرف البصر، ولم يدرك حقيقة المبصَرات. وهنا يمكن القول إنَّ الأكمه يمتلك عدمًا ظاهرًا خفيًا دائمًا للبصر.

---

[127] – فصلت 53

2 . الأعمى الذي ولد مبصرًا ثم فقد بصره، فتكون الصّورة في ذهنه مبنية على مشاهدات ما قبل العدم؛ ولذلك يكون العدم لديه، ولدى الآخرين، عدم ظاهر.

3 . الأعمى الذي يرتد إليه بصره، وهو عدم مؤقت كالذي جرى على يعقوب عليه الصَّلاة السَّلام؛ قال تعالى: {وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ}[128] فقد أصابه العمى من شدّة حزنه على يوسف علية الصَّلاة والسَّلام، وهو العدم المؤقت بدليل قوله تعالى: {فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا}[129] فلو لم يكن قد عمي ما أرتدّ بصيرًا.

وأمَّا عدم جزء الجزئي في البصر فيتمثل في الأخفش والأعشى:

1 . الأخفش: هو الذي يضعف بصره في النَّهار فلا يرى بوضوح، وهو عدم جزئي للبصر في النَّهار.

2 . الأعشى: هو الذي يضعف بصره في الليل فلا يرى بوضوح، وهو عدم جزئي للبصر في الليل.

وما عدا ذلك من البشر فهم مبصرون لا يدخلون في عدم البصر، لأنَّ الأكمة والأعمى والأخفش والأعشى داخل في عدم البصر جزئيًّا أو كليًّا، والمبصرون داخلون في عدم العدم للبصر. فمن خلال هذه القضيَّة الجزئيَّة تبين لنا أنواع العدم في البصر جزئيَّة وكليّة.

---

[128] - يوسف 84

[129] - يوسف 96

علاقة العدم بالوجود:

إنَّ التساؤل الذي يراود الذّهن في استيضاح ماهية العدم وكنهه والوقوف عليه في الذّاكرة الإنسانيّة أن يقول قائل: ما هو العدم؟

والإجابة على هذا التساؤل تتمثّل في احتمالين لا ثالث لهما:

. العدم شيء.

. العدم لا شيء.

فالذي يقول إنَّ العدم شيء، فقد أقرَّ بأنَّه مخلوق تخرج منه المعدمات وتدخل فيه المعدومات، وبهذا يكون قد أنصفنا فيما ذهبنا إليه.

وإنْ قال إنَّ العدم ليس بشيء، فقد ابتعد عن جادة الصَّواب وظلم نفسه، فقد قال عليه الصَّلاة والسَّلام: "كان الله ولا شيء غيره وكان العرش على الماء، فكتب في الذّكر كل شيء، ثم خَلق سبع سماوات"[130].

فكان الله تعالى ولا شيء معه، وعندما خلق الأشياء بفعل المشيئة، كان العدم من ضمن الأشياء المخلوقة، فهل بعد هذا شكٌّ؟

لذلك قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}[131].

فالله تعالى جعل من الماء كل شيء حي، ولكن للوهلة الأولى يظنّ المتتبع أنَّ الاستشهاد بهذه الآية لا ينطبق على واقع موضوع العدم لذكر (حيّ). ولكن كلمة (كلّ شيء) استغرقت الموجودات المخلوقة ما علمنا منها وما لم نعلم، وهذا الظّن من التساؤل الذي يراود البعض، لأنَّهم ينظرون إلى

---

130 – السنن الكبرى ج6، ص363

131 – الأنبياء 30

الحياة التي اختصت بما اصطلح عليه من أحياء الإنسان والحيوان والنبات، والأمر ليس كذلك.

فالخالق عزَّ وجلَّ أعلمنا بأنَّ جميع خلقه أحياء، فغير الأحياء المعهودة لنا من المحسوسات، هناك أحياء ما وراء الحسّ كالجنّ والملائكة وحياتهم ثابتة بالنصوص القطعيَّة الدلالة، وهذه الحياة معلوم بالضّرورة أنَّ لها مواصفات فيزيائيَّة وكيميائيَّة تختلف عن حياتنا، فالملائكة عليهم السَّلام لا ذكورًا ولا إناثًا ولا يأكلون ولا يشربون ولا يتناسلون، فهم شيءٌ حيٌّ من خلق الله تعالى، فإذا تدرجنا في أنواع الخلق سنجد أنَّ الجمادات لها حياة أيضًا، ولكن لا نعرف عن طبيعتها شيئًا إلَّا ما جاء به القطع في وضوح الدّلالة بقوله تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}[132].

وهنا دخل في التسبيح كل ما خطر على قلب بشر، لأنَّ كلّ ما خلق الله تعالى من الموجدات الحسيَّة والإدراكيَّة ما علمناه منها وما لم نعلمه، قد دخلت في لفظ (شيء). ومعلوم أنَّ التسبيح هو قول أو لفظ أو إشارة أو حركة، وهي من سمات الأحياء، وعليه دخلت الأشياء المخلوقة من الشَّيء الأوَّل في الحياة الخاصَّة بطبيعة خلقها التي لا نفقه تسبيحها.

ولقائل إن يقول: هناك من نفقه قوله ولكنَّه لا يسبح مثل الطّبيعيين والوجوديين والكفَّار.

---

132 – الإسراء 44

إنَّ هؤلاء لا يسبِّحون لأنَّهم جحدوا الخالق، ولكن أعضاءهم وجوارحهم من ضمن الشَّيء الذي يسبح لخالقه وهو نفسه لا يفقه تسبيحها.

وعليه فإنَّ كلّ شيء يسبّح بحمده، فمنهم من نفقه تسبيحه، ومنهم من لا نفقه تسبيحه ولا ندركه، لأنَّه يسبّح ضمن الظّرف العدمي بالنّسبة إلى العقلاء، فلو شاء الله لأسمعنا تسبيحهم.

فهل تسبيح هذه المخلوقات الحية بخصوصيتها، هو معدوم أم داخل في العدم؟

إنَّ هذه الأمور وأمثالها معدومة بالنسبة إلينا، قائمة وموجودة حقيقة في عدمها أو في ظرفها العدمي، مثلها في ذلك مثل الأشياء الحسيَّة التي تخرج من العدم إلى الوجود، إلَّا أنَّ الفرق بينها وبين المعدومات الحسيَّة، أنَّ المعدومات الحسيَّة تخرج إلى الوجود بالمشيئة، والمعدومات العدميَّة تبقى في العدم بالمشيئة.

إنَّ كل ما في هذا الكون ـ ما عدا الله تبارك وتعالى ـ يدخل ضمن الموجودات في الوجود، أو ضمن المعدومات في العدم، والموجودات على قسمين:

1 ـ وجود حسّي مادّي، كالأشجار والجبال والكواكب وأمثال ذلك.

2 ـ وجود معنوي إدراكي، كالمعلومات والصّفات القائمة على الأعراض كالطّول والعرض والجمال والقبح والفضائل والرذائل.

وأمّا المعدومات فهي على ثلاثة أقسام:

1 . معدومات عدميَّة لا تخرج من العدم وهي قائم فيه، كالجنّ والملائكة.

2. معدومات وجوديَّة تدخل في العدم كجميع الأحياء من الإنسان والحيوان والنبات.

3 . معدومات معدومة تخرج من العدم إلى الوجود عن طريق اكتسابها الأعراض.

وجميع هذه الأنواع إنْ لم تكن ممكنة فهي مماثلة للممكن بوجود موجباتها الوجوديَّة مثل ما سُخِّر لسليمان عليه الصَّلاة والسَّلام من الأشياء المعدومة لغيره؛ قال تعالى: {وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ}[133] إنَّ استخدام الجنّ في العمل والكلام مع الطّير هو شيء من العدم بالنسبة إلى البشر، ولكن عندما وجد موجبها خرجت من العدم إلى الوجود، وهذا النَّوع ينضوي تحت العدم الحسي الذي وقف عليه قوم سليمان عليه الصَّلاة والسَّلام بالمشاهدة.

وأمَّا خروج المعدوم الإدراكي كالمعلومة والصّفة من العدم إلى الوجود، فإمَّا أن يصاحب الأعراض التي كانت معدومة، فيظهر بظهورها، كطول النّخلة عندما تنشقّ عنها النواة، وألوان جذعها وسعفها وثمرها، أو بوضع موجبات هذا النَّوع من العدم في وضعها الصَّحيح، فمثلًا عندما يفقد الحقّ والعدل والحريَّة، فإنَّ هذه القيم تكون من المعدومات، مع أنَّ موجباتها لم تنعدم، وإنَّما دخلت في العدم الأمر الذي أدّى إلى إعدام تلك القيم.

---

[133] - النمل 17

فعندما تنعدم الحقوق والحريّة والعدل في مجتمع معين، فهي موجودة في مجتمع آخر، والمجتمع الذي يحاول تحقيق هذه القيم التي انعدمت فيه، إنَّما يسعى إلى إزالة موجبات عدمها من أجل إيجادها، وإيجادها إنَّما هو إخراجها من العدم إلى الوجود، وبما أنَّها معدومة في مجتمع وموجودة في مجتمع آخر، فهذا يعني أنَّ العدم مسألة نسبيَّة. مثلها في ذلك مثل المعدومات والموجودات الحسيَّة التي تخرج من العدم وتدخل فيه.

وعليه: إنَّ الله تعالى خلق العدم والمعدومات والوجود والموجودات، وخلق أسباب وجودها وأسباب إعدامها، فالله سبحانه وتعالى هو خالق كل شيء؛ قال تعالى: {قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}[134]؛ فالله سبحانه وتعالى هو خالق السّماوات والأرض ومبدع الوجود من الشَّيء، فهو الذي أعطى كل شيء خَلقه الذي هو عليه، أي صورته وشكله وحجمه، وطبائعه وصفاته وغرائزه وحدّه ومقداره؛ ولخّص ذلك بقوله تعالى: {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}[135]، فكل شيء أعطاه حدّه في الخلق الذي هو مسخّر له من أنواع المخلوقات في صورته وشكله اللائق به، مشتملًا على خواصّه وصفاته ومميزاته.

فالمراد بالخلق المخلوق، ويفهم منه أنَّ ضمير الجمع في ربنا عام ليس لموسى وهارون وفرعون فقط، وإنَّما لهم ولغيرهم؛ لذلك لم يقل ربنا الله، بل وصفه بأفعاله ليُستدل بالفعل على الفاعل، ثم هدى وجه كل

[134] - الرعد 16

[135] - طه 50

واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغي له طبعًا كما في الجمادات، وغريزة كما في الحيوان، واختياراً كما في الإنسان، وإدراكاً كما في المتصوّرات كالجمال والحريَّة والعدم، وهيّأ كل نوع من الخَلق لما خُلقَ له من الوجود الظّاهر أو الوجود العدمي، ودورة الظهور والعدم لبعض المخلوقات، أو الحضور في العدم الدَّائم لبعضٍ منها كالجنّ والملائكة، أو الوجود الدَّائم للبعض الآخر الذي لا يدخل العدم بكليّته كالأرض والشّمس والكواكب في الحياة الدُّنيا، لأنَّ لكل نوع من الخلق له حياته الخاصَّة بطبيعته وما هو مسخّر لها، في إيداع صفاتها بها والقوى المحركة لها والقوى المدركة فيها.

إنَّ لجميع المخلوقات حياة وروحًا، إمَّا صوريَّة كما في الإنس والجنّ والملائكة ومن يتبعهم، وإمَّا معنويَّة كما في الجمادات والنباتات؛ قال تعالى: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ}[136].

إنَّ لفظ (كلّ شيء) في الآية الكريمة من سورة طه، أدخل ما يوصف بالشَّيء تحت عموم اللفظ، ومعلوم أنَّ الفعل أعطى يأخذ مفعولين، (كلّ شيء) مفعول أوَّل لأعطى و(خلْقَه) مفعوله ثانٍ وعليه:

ـ إنَّ لفظ (كلّ شيء) أدخل ضمنه العدم، لأنَّه لا يمكن للعدم أن يكون إلاّ شيئًا.

ـ ولفظ (خلقه) الذي أعطي له دليل على أنَّه مخلوق.

وهنا لا يمكن الاعتراض على أنَّ العدم ليس شيئًا لشموله بعموم اللفظ في الآية، لأنَّه دخل عموم الأفراد، أي أعطى كل شيء من الأشياء

---

[136] ـ الإسراء 44

الأمر الذي طلبه بلسان استعداده من الصّورة والشّكل والهيئة في الوجود أو العدم، وكذلك الأمر اللائق بما نيط به من الخواص والهيآت والصّفات المطابقة له، مثلما أعطى العين الهيئة التي تطابق الأبصار والأذن الشّكل الذي يوافق الاستماع، وكذلك الأنف الذي مهيأٌ للشمّ عن طريق التنفس، وهكذا بقيّة أعضاء الإنسان من اليد والرِّجل واللسان، كل واحد منها مطابق لما علق به، وخلق من أجله، وكما أنَّ هذه الأعضاء مهيأة بالطّبع لأداء الوظيفة في الوقت المعلوم إلى الأجل المحدود، كان ضرورة أن يجري عليها العدم لوجود الأجل المحدود الذي كان في العدم وخرج إلى الوجود فأعدم الشَّيء بوجوده.

وهنا نستطيع أن نقف على الدّليل الذي يعطينا الحجَّة في أنَّ العدم هو شيء من خلق الله خلقه لاستمرار الحياة لإعدام الموجودات وإيجاد المعدومات.

أمَّا قضية الإيجاد من مصطلح العدم بمعنى (اللاشيء) فهذا أمر يرجع إلى ما قبل أن يخلق الله الشَّيء وهو محال، وإنَّما استحداث موجودات من المعدومات، فهو أمر ظاهر جليّ في الصِّناعة والزّراعة، لأنَّ أصولها موجودة في العدم يمكن استحداث أشياء كانت معدومة في الشَّكل والهيئة التي خرجت بها إلى الوجود؛ لذلك أظهر اللهُ تعالى عجز كل مخلوقاته أن يخلقوا ذرَّة من الوجود؛ فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاس ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ

وَالْمَطْلُوبُ}[137]؛ ولذلك كان من نظريَّات علماء المادَّة، أنَّ المادَّة (لا تفنى ولا تخلق من العدم).

ولذا فنحن نقول: إنَّ المادَّة تدخل في ظرفها العدمي بالفناء، وتستحدث منه بأسباب وجودها.

وهذا حقّ وطبيعي بالنّسبة إلى المخلوق، وأمَّا الخالق فهو الذي أخرج هذا الكون من الشَّيء وخلق منه الأشياء، هو الذي يتصرّف فيه بما يشاء، وأمَّا المخلوق فإنَّه أعجز من أن يخلق شيئًا؛ لذلك كان الإعجاز في إظهار ضعف الإنسان وعدم قدرته على الخلق، بأنْ ضرب الله مثلًا لإظهار عجز البشر بعدم قدرتهم على خلق أضعف مخلوقاته مثل البعوض والذّباب.

ونحن عندما نتكلّم عن الوجود والعدم، إنَّما ينصب اهتمام البحث على الموجودات التي أوجدها الله تعالى بما نحيط به علمًا حسًّا وإدراكًا من هذه الحياة الدُّنيا، فالحسّي هو هذه الموجودات الماديَّة، والإدراكي هي تلك المعاني التي ليس لها شكلًا ولا مادَّة.

لذلك لم يكن من نافلة القول: إنَّ المادّة لا تفنى ولا تخلق من عدم، وإنَّما تدخل في العدم وتخرج منه بموجباتها وآجالها وفق نظام خلقه الله تعالى لتسيير هذا الكون وفق المشيئة التي أرادها عزّ وجلّ، دون أن يغيّره كما غيّره لموسى عليه الصَّلاة السَّلام في ابتلاع عصاه لعصي وحبال السّحرة، في الطَّريقة التي أعدمت بها تلك العصي والحبال بأمر خارج عن العادة، ويعتبر من الخوارق في معجزات الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام.

---

[137] - الحج 73

ـ إنَّ من المسلّمات البديهيَّة أنَّ هذا الكون ممكن وليس واجبًا، فإن كان واجبًا فهو واجب بمرجح خارجي؛ إذ لا واجب بذاته إلَّا الله تعالى، وطالما أنَّه ممكن الوجود، فيستوي فيه طرفاه ـ الوجود والعدم ـ وطالما استوى طرفاه فهو يقبل الوجود والعدم: كالمخلوقات التي نشاهدها، فإنَّها كانت معدومة فقبلت الوجود، ثم بعد وجودها هي قابلة للعدم، شأنها في ذلك شأن ما نشاهد من آثار من مضى قبلنا وأحوالهم، خرجوا إلى الوجود ودخلوا في العدم، وبهذا نعلم بمن تقدّم من الخلق، أنَّ من تأخَّر يشاركه في الصِّفات.

إنَّ ما شاهدناه في ماضينا من المخلوقات، وما نشاهده منها في حاضرنا هو ممكن: أي جائز الوجود والعدم؛ وذلك لأنَّا نراه يتحوَّل من عدم إلى وجود، ومن وجود إلى عدم، وهذا التغيّر والتحوّل دليل على إمكانه؛ إذ لو كان واجبًا لما سبق وجوده العدم، ولما لحقه فناء أعدمه، ولو كان مستحيلًا، لما قبل الوجود لأنَّ المستحيل لذاته لا يوجد؛ وحيث إنَّنا قد شاهدناه موجودًا بعد أن كان عدمًا، ثبت أنَّه ممكن، وعليه يمكن أن يكون معدومًا بعد وجوده.

وحيث ثبت أنَّ العالم ممكن، والممكن ما استوى طرفاه ـ وجودًا وعدمًا ـ بالنّسبة إلى ذاته، فوجوده ليس من ذاته، وعدمه بعد وجوده ليس من ذاته أيضًا، إذن لا بدَّ له من سبب يرجّح وجوده على عدمه؛ إذ لو وجد بدون سبب خارج عن ذاته وحقيقته، للزم ترجيح أحد المتساويين على الآخر بلا مرجح خارجي، وهو محال.

ولو أوجد الممكن نفسه بنفسه للزم من ذلك أن يكون متقدِّمًا على ذاته باعتباره خالقًا لها، ومتأخرًا عن ذاته باعتباره مخلوقًا لها، وتقدّم الشَّيء على ذاته وتأخُّره عنها محال بالضَّرورة لما فيه من التناقض والامتناع.

وعليه: فإنَّ الممكن لا بدَّ له من موجد غير ذاته؛ كي يوجده ويدبّر شؤونه في كل أحواله وصفاته التي اختصّ بها.

ولذا لا يمكن أن يوجده المستحيل، لأنَّ المستحيل ممتنع محال، وفاقد الشَّيء لا يعطيه، لأنَّ المستحيل غير موجود.

وهنا يبقى الواجب والجائز الممكن.

فأمَّا الجائز فيستوي فيه الوجود والعدم.

وأمَّا الواجب، فإمّا واجب بذاته وهو الله تعالى.

وإمَّا واجب بغيره وهو الممكن الجائز.

فمن خلال ما تقدَّم، ظهرت بعض التساؤلات حول الواجب والممكن الجائز والمستحيل:

- هل العدم واجب الوجود؟
- هل العدم مستحيل الوجود؟
- هل العدم جائز ممكن الوجود؟

بالنّسبة إلى التساؤل الأوَّل، فإنَّ القول بوجوب الوجود بالذَّات فقد اختصت به الذّات الإلهية، وهذا ثابت في العقل والنّقل، وبهذا يخرج أي شيء عن وجوب الوجود بالذَّات، ويدخل إمّا في المستحيل كشروق الشّمس من الجنّوب، وقيام السَّاعة الآن، وإمَّا في الممكن؛ وربّ قائل

يقول: ألا يقدر الله على ذلك؟ فنقول: بلى، ولكن سبقت مشيئته بما جرى به القلم.

وهذا يقودنا إلى التساؤل الثَّاني؛ إذ لو كان العدم مستحيلًا، لما انشغلت به العقول على اختلاف توجهاتها الفكريَّة، فالمستحيل غير متحقّق، وعليه فالعدم لا يتحقّق في هذا الباب.

نخلص مما تقدَّم: أنَّه لا مناص من أنَّه ممكن، والممكن لا يكون إمكان وجوده إلا بمرجّح خارج عنه، ولما شغل موضوع العدم أفكار العلماء والفقهاء والفلاسفة، فإنَّ هذا الشاغل هو قضيّة، والقضايا على قسمين:

- إمّا حسيَّة.
- وإمّا إدراكيَّة.

ولما انتفت عنه الحسيَّة، فهو قضيَّة إدراكيَّة، وعليه: فالقضايا أشياء، والعدم شيء من الأشياء، وطالما أنَّ الأشياء مخلوقة، فالعدم مخلوق، ومنه تخرج المعدومات، وبه تدخل؛ وبذلك ثبت أنَّ مُوجده هو الواجب بذاته، وهو الله تعالى، فقد ترجَّح العدم بمرجّحٍ خارجي.

لأنَّ الشَّيء الذي قَبِل الوجود والعدم هو شيء بعينه يقبل الوجود والعدم، فهو خرج من الظَّرف العدمي ودخل في الظَّرف الوجودي، ثم يخرج من الوجود؛ ليكون في العدم.

وهذا يدلُّ على أنَّ كل الموجودات الحسيَّة هي بالضَّرورة داخل الظَّرف الوجودي، وبما أنَّ هناك معدومات تدخل في هذا الظَّرف

الوجودي، وموجودات تخرج منه، إذن هناك ظرف عدمي يضم المعدومات.

فهل هذا الظَّرف العدمي الذي يضمّ المعدومات واجب الوجود أم ممكن الوجود؟

لقد ثبت بالدّليل النقلي والدَّليل العقلي أنَّه لا واجب الوجود بذاته سوى الله تعالى، وعليه:

فإنَّ كلّ ما ينضوي تحت لفظ الشَّيء هو ممكن، وطالما أنَّه ممكن فهو يحتاج إلى مرجّح لإيجاده، وليس ثمّة من يقول إنَّ العدم غير موجود، وعلى هذا فوجوده بمرجّح خارجي ضرورة، إذن فالعدم شيء مخلوق.

وعلى ما تقدَّم، فما من شيء إلَّا ويدخل تحت أحد هذه الأقسام الثَّلاثة:

1. الوجوب.

2. الاستحالة.

3. الإمكان.

لأنَّ جميع المتصوّرات العقليَّة، سواء منها ما كان له وجود خارجي في الكون، أو وجود داخلي في الذّهن، لا يخرج عن هذه الأقسام.

- واجب، وهو الذي لا يمكن عدمه.

- ومستحيل ينتفي وجوده.

- وممكن يصحّ في حقِّه الوجود والعدم، في دائرة المتوقَّع وغير المتوقَّع.

وكل المتصوّرات تدخل تحت هذا القسم، لأنَّه يصح في حقّها الوجود والعدم.

فالوجود والعدم هو ثنائيَّة تدلل على وحدانيَّة الخالق عزَّ وجلَّ، وتفرده وربوبيته، لأنَّه ما مِن شيء في هذا الكون، إلَّا وهو قائم إمّا على ثنائيَّة التجاذب في الذّكر والأنثى كما قال تعالى: {مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ}[138] وإمَّا على ثنائيَّة التناقض كما في الوجود والعدم، والخير والشَّر؛ فقد قال تعالى: {وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ}[139].

ولا يقتصر هذا على الذَّكر والأنثى المشاهد المعروف، بل يتضح في تركيب الذرَّة والنَّواة التي في داخلها تحمل شحنة موجبة، بينما الاليكترونات التي تدور حول النّواة تحمل شحنة سالبة مكافئة لتلك الشّحنة الموجبة، "وقد ثبت أنَّ للمادَّة قرابة الثَّلاثين نوعًا من أنواع اللبنات الأوليَّة، وكل واحدة منها لها نقيضها، كما أنَّ الجسيمات الأوَّليَّة للمادَّة لها لكل جسيم نقيضه، وأنَّ المادَّة ككل لها نقيض المادّة، وإذا التقت النقائض فإنَّ كل واحد منها يفني نظيره، لأنَّهما يتخليان عن طبيعتهما الماديَّة، ويتحوَّلان إلى طاقة تعلن عن فناء المادَّة؛ ومن هنا كان الوجود والعدم"[140].

وعليه فإنَّ المادَّة التي تحوَّلت إل طاقة، تكون قد خرجت من المجال الحسي إلى مجال ما وراء الحسّ، وبهذا تكون قد دخلت المادّة في العدم بخروجها من الوجود المادّي بخصائص فيزيائيَّة جديدة، وهذا التحوّل من الوجود إلى العدم لا يعني أنَّها أصبحت لاشيء، وإنَّما بابتعاد النقائض

[138] - هود 40

[139] - يونس 11

[140] - الإعجاز العلمي في القرآن ج 39، ص 13

عن الالتقاء يمكن للمادَّة أن تخرج من العدم إلى الوجود مرَّة أخرى وتستعاد بموصفاتها التي كانت عليها أو بمواصفات ماديَّة جديدة كالمواد العضويَّة التي تدخل في العدم ثم تتحوّل إلى بترول أو غاز أو أيَّة مادَّة أخرى، أو تستعاد على شكل طاقة غير مدركة، وإنَّما يستدل على وجودها بما نقف عليه من نتائجها كالكهرباء مثلًا.

فهل المادَّة التي أنتجت الكهرباء انعدم وجودها أم دخلت في العدم؟

وهل الكهرباء نفسه عدمًا أم إنَّه شيء كامن في العدم؟

فهذا التحوَّل من المادّة الحسيَّة إلى اللامادَّة لن ينفيها من الوجود، بل خرجت من الوجود من حيث مواصفاتها التي كانت عليها في ماديتها ودخلت في العدم بخصائص فيزيائيَّة تناسب حالة الإعدام التي دخلت فيها.

التهيؤ للاستخلاف:

لقد هيَّأ الله تعالى الإنسان على العقل الذي به يميّز بين المشاهد والملاحظ ويدرك ما يجب وما لا يجب، ويستبصر بعد معرفة وتبيّن واختيار ويستنبط ويستقرى ما يدلّ به وما يدلّ إليه، والاستعداد لذلك بما يؤدّي إلى الإصلاح والفلاح ويجنب الخراب وسفك الدّماء فيها بغير حقّ؛ ولذا كان آدم بعلمه للأسماء (الأسرار) خليفة في الأرض.

فخلق الله الإنسان وأراد بمشيئته أن يكون خليفة في الأرض، فقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}[141] وقد هيّأه الله تعالى لهذه الخلافة في إعمار الأرض وإصلاحها ودفع المفاسد

[141] البقرة 30

عنها، فكان أوّل هذا التهيّؤ كما قال تعالى: {وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}[142]، وبصرف النَّظر عمّا قاله العلماء في معنى هذه الأسماء، من أنَّها صفات الأشياء ونعوتها وخواصها، أو أنَّها أسماء ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، أو أنَّها أسماؤه تعالى، أو أنَّها اللغة كما ذهب بعض العلماء، حتى وإن كانت أسماء مفردة، فمن تلاقي اسمين تتكوّن الجملة، ومن الجمل تتشكّل العبارة، ومن العبارات، تكون الفقرة وهكذا حتى تصبح سلسلة من الأفكار تساوي تلك الأسماء وعلاقة التركيب فيما بينها وما يتولّد عنها من معانٍ، وما أودع الله تعالى فيه الإرادة، لأنَّ الإرادة ليست مكتسبة عن طريق الأفكار، بدليل أنَّ الطّفل حديث الولادة سرعان ما يلتقط ثدي أمّه ويأخذ بالرِّضاعة دون أن يكون له أدنى فكرة عن هذا الأمر، وبهذا علم الإنسان الخير والشّر والإصلاح والإفساد، وما يضرّ وما ينفع، والحلال والحرام، وهو يملك الإرادة، فأصبح بذلك مهيّأ للخلافة بما يعمر أمر دنياه وآخرته.

التهيّؤُ بالدِّرايةِ:

الدِّراية إلمام رفيع بالمدرى به إنباءً، مع وافر الوعي مقدرة واستطاعة، ولا مضاد لمفهوم الدِّراية إلَّا الأميَّة، التي كانت صفة للنَّبي محمَّد، قبل أن

[142] البقرة 31-33

يتمَّ إنباءه بالمدرى به، والذي من بعده أصبح النَّبي المدري بعلم السَّماء يقينًا.

والدِّراية لا تكون إلَّا بعلم الغيب من عالم الغيب، وهو العلم الذي لا يُمكن معرفته إلَّا بالنبأ المنزَّل على الرُّسُل الكرام عليهم الصَّلاة والسَّلام.

ولأنَّ علم الغيب بيد عالم الغيب والشَّهادة، فلا إمكانيَّة لمعرفة شيء منه إلَّا وحيًا يُوحى: {يَسْأَلُكَ النَّاس عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا}[143]. أي: مع أنَّ الله قد أظهر للنبي محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام ما أظهره عليه من وحي مُنزَّل، فإنَّه لم يظهره على كل الغيب وعلمه؛ ومن هنا فإنَّ علم السَّاعة ما زال علم غيب ولا دراية لنا به مع علمنا وتسليمنا.

إذن: الدِّراية هي العلم بالشّيء يقينًا، وعن عي واستطاعة، وهي الدَّالة على إحداث النُّقلة من حالة الأميَّة إلى حالة الالمام بالعلم المنزَّل.

والدِّراية لا تكون إلَّا استنارة بعلمٍ كان مجهولًا كما تستنير الظُّلمة بنورٍ يضيء مساحتها وإنْ عظمت.

ولهذا فإنَّ علم الدِّراية لا أميَّة فيه أبدًا؛ ومن ثمَّ فإنَّ مفهوم الأميّة يعطي مفهومًا مضادًّا لمفهوم الدّراية، وفي المقابل يصبح مفهوم العلم مضادًّا لمفهوم الجهل؛ ولهذا مع أنَّه لا وجود لأمَّة أميّة بعد الرِّسالة الخاتمة والرَّسُول الخاتم، فإنَّ الجهل بين أفراد الأمم قيدٌ على كلِّ بداية ونهاية.

[143] الأحزاب 63.

والأمَّة الجاهلة هي الأمَّة التي تعيش التخلُّف ولا تُدرِك الحالة التي هي عليها من تخلّفٍ، وهي التي لم تأخذ بأسباب العلوم ولا تسهم في إحداث النُّقلة وبلوغ الأمل ونيله دراية.

ومع أنَّ الأميَّة على العقل قيدٌ صلبٌ فإنَّ الدّراية قادرة على كسر قيدها؛ وذلك كما كسرت أميَّة النَّبي محمَّد -عليه الصَّلاة والسَّلام-الذي كان قبل الوحي أميًّا والذي أصبح من بعده نبيًّا مدريًا.

وإذا أردنا أن نكسر قيد الأميَّة معرفةً فعلينا بتحديد المفاهيم ذات العلاقة بها وما تقيّده من مفاهيم متضادّة، والتي منها:

. **الجهل** في مواجهة **العلم** (الجهل قيد دون العلم).

. **الشَّك** في مواجهة **اليقين** (الشَّك قيد دون اليقين).

. **الغفلة** في مواجهة **الصَّحوة** (الغفلة قيد دون الصَّحوة).

. **الوعي** في مواجهة **الغيبوبة** (الغيبوبة قيد دون الوعي).

. **الضلال** في مواجهة **الهداية** (الضلال قيد دون الهداية).

. **التيه** في مواجهة **المعرفة** (التيه قيد دون المعرفة)؛ ذلك لأنَّ التائه هو الذي ليس له من الدّليل شيءٌ ليستدل به على الشيء معرفة.

. **الدِّرايةُ** في مواجهة **الأميَّة** وهي المام معرفي بلا نواقص، وهي الممكِّنة مِن معرفة العلاقة بين السّماء والأرض، وهذه خاصيّة خصَّ الله بها الرُّسُل والأنبياء الكرام عليهم الصَّلاة والسَّلام وحيًا وإنباءً.

ومع أنَّ الدِّراية خاصيّة خصَّ الله تعالى بها الأنبياء والرّسُل، فإنَّ المؤمنين بمعجزاتهم يدرون بها علمًا ومعرفةً تمكِّنهم مِن التمييز بين العلم

الممكن، والعلم المعجز، والعلم المستحيل؛ ومفهوم العلم هنا ليس كما يظن البعض ذلك التعليم الممنهج، بل هو علم الدِّراية يقينًا واستنارةً.

والدِّراية لا تكون استنارةً إلَّا من بعد الإلمام التَّام بما ينبغي الإلمام به، وأنَّ المدرى به سيكون قيدًا على من التزم به أوامر ونواهٍ؛ ولذا فالدّراية رفعة عن كلِّ ما من شأنه أنْ يؤدّي إلى الانحدار والسُّفليَّة؛ وذلك بغاية بلوغ ما يُمكِّن من إحداث النُّقلة، التي:

. تغذي الرّوح نشوة.

. تطمئن النَّفس سكينة.

. تخاطب العقل دراية.

. ترضي القلب يقينًا.

. تشبع البدن حاجة.

. تزيد الذّوق رفعةً وارتقاءً.

وعليه: فإنَّ الحياة الدُّنيا وبما فيها من دراية عقليَّة، فإنَّها إذا ما قورنت بتلك الحياة العليا لا تزيد عن كونها حياة الحاجات المنقوصة، وحياة الفتن والعداوات التي بدأت أوَّل ما بدأت بين الأخوين (ابني آدم)، ثمّ اتّسعت وتكاثرت مع التكاثر فأصبح الصّدام والاقتتال انحدارًا بين بعض النَّاس، وفي المقابل يرتقي بعضهم رفعة؛ فآدم الذي خسر ذلك الموقع الرّفيع، أصبح يأمل العودة إليه دراية؛ ولذلك فقد سعى استغفارًا وتوبة أهَّلته لأن يكون نبيًّا يُنبئ بما عُلّم به من قِبل خالقه؛ ومن ثمّ فلا مكان له بعد النبأ العظيم إلّا الجنّة، التي لا تبلغ ارتقاء إلّا بالعمل الصّالح عقلًا ودراية.

ولذلك أصبح العمل ارتقاءً أمل المصلحين السّاعين إلى الكسب الحلال بلا حدود؛ ولذا فالسّاعون ارتقاء مهما بلغوا من المراتب والقمم فهم يأملون مراتب عظيمة من بعدها قمّة أعظم؛ ولهذا وجب اتقان العمل إخلاصًا ودرايةً، حتى الارتقاء بالأرض الدّنيا ورتقها في السّماء جنّة.

عليه: وجب العمل الممكّن دراية من بلوغ الأحسن والأرقى، شريطة ألَّا يكون التحسّن على حساب إشباع حاجات الغير، بل ينبغي أن يكون العمل تُرسًا من تروس عجلة الحياة العامّة؛ ذلك لأنَّ الارتقاء الممكّن من العمل المرضي لا يُمكن أن يتحقّق والغير يتألم؛ ولذلك فالعمل وفقًا لأهداف الحياة ينبغي أن يكون من ورائه غرض خاصّ وهو: إحداث النُّقلة عن درايةٍ، وغرض عام يُحفِّز الآخرين ويدفعهم للرّفعة، وإلّا فألم الغير لن يفسح الطّريق أمام من يسعى إلى الارتقاء غاية وهو لا يدري.

ومن هنا فإنَّ بني آدم في دائرة الممكن هم بين متوقَّع الارتقاء عقلًا ودراية، ومتوقَّع الدّونيَّة غفلة وشهوة، ومن جهة أخرى هم يتبدّلون؛ إذ لا ثوابت؛ فمنهم من يبقى على الارتقاء، ومنهم من يتخلّى عنه قيدًا، ومنهم من نراه في دونيَّة، ولكن من بعدها يبلغ القمم ارتقاء؛ ولذلك ينبغي العمل مع بني آدم من حيث هم، من أجل الارتقاء بهم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه دراية واستنارة.

ومن ثمّ ينبغي على بني آدم عند رسم السّياسات أن يجعلوا وراء كلّ هدف غرضًا، من ورائه أغراض تحقّق لهم المكانة والرّفعة، أي: تحقّق لهم المكانة الشّخصيَّة قدوة، وتحقّق لهم الكرامة الآدميَّة فضيلةً، وتحقّق لهم

العيش السعيد قيمةً، ولكن إن لم يعملوا ويفعلوا فلا شيء لهم إلّا البقاء على الرّصيف بين حاجة وشُبهة، وهنا يكمن الانحدار قيدًا.

إذن: فعلى العقل الآدمي درايةً أنْ يعي بإمكانيَّة بلوغ السّماء ارتقاء كلّما عمل وفقًا لأهداف تنجز، وأغراض تتحقّق، وغايات يتمّ بلوغها، ومأمولات يتم نيلها، ولكن إن أحسّ العقل وهو منفردٌ بشيءٍ من التّعب، فعليه بوضع اليدين مع الأيدي صعودًا وارتقاء.

فالارتقاء عقلًا ودراية مثل المعمار ينبغي أن يُبنى لبنة فوق لبنة (قيمة فوق قيمة، وفكرة من بعد فكرة، وهدف فوق هدف، وغرض فوق غرض، وغاية من فوقها غاية، وأمل من بعده مأمول أعظم)، ولكن في المقابل هناك من يهدم المعمار رأسًا على عقب، وهناك من يهدّه لبنة بعد لبنة، فالصِّراع بين بني آدم لن ينتهي بين البناة رُقيًّا، والهادمين له انحدارًا؛ ولأنَّ الخالق خلقنا على الاختلاف فلا بدَّ أن نظل عليه مختلفين: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[144]، ولهذا فالصِّراع والصّدام بين أهل العقول والدِّراية وبين أهل الشّهوة والتمدُّد على حساب الغير سيظل قيدًا ساريًا بين حقٍّ وباطلٍ.

ولذا فإنَّ الاختلاف الذي خُلقنا عليه وسنظل عليه مختلفين قيمة خيّرة، هو: اختلاف التنوّع المشبع للحاجات المتطوّرة عن رغبة وإرادة، ولكن هذا الإشباع لا ينبغي أن يكون على حساب ما يشبع حاجات الآخرين؛ ولذلك يجب أن تحدّد الأهداف والأغراض والغايات بعيدًا عن

[144] هود: 118، 119.

كلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الخلاف الذي فيه الاقتتال والفتنة، أي: ينبغي عقلًا ودرايةً أن تحدّد الأهداف وفقًا لما يجمع شمل المتفرّقين خِصامًا، ويحلّ تأزّماتهم، ويشبع حاجاتهم المتطوّرة عدلًا وارتقاءً.

ومن أجل الارتقاء قمّة ينبغي الابتعاد عمّا يؤدِّي إلى الاقتتال والفتن، فالاقتتال والفتن قيود وضياع فرصة، والزّمن لا يعطي الفرصة مرّتين، ومن ثمَّ يجب عدم إضاعة الفرص كلّما سنحت الظّروف دراية واستنارة، ومن يضيّعها سيجد نفسه على غفلة من أمره، وحينها لن ينفعه النّدم، فالنّدم قيد وعندما تضيع الفرص قد يؤدّي بأصحابه إلى الهاوية، ولكن إن كانت الفرص لا زالت سانحة فقيد النّدم دراية يؤدّي إلى تصحيح المواقف الخاطئة بمواقف صائبة، أي: متى ما غلبت الشَّهوة عقل الإنسان انحدر غفلة، ومتى ما قوي عقله دراية ارتقاء تذكّر، فاتّعظ واعتبر، ومتى ما تدبّر عمل وأنتج، ومتى ما فكّر درايةً حدّد أهدافًا من ورائها أغراض، وغاية من ورائها مأمول يتم نيله.

إذن: وجب التدبُّر دراية بما يبعد بني آدم عن الجلوس على رصيف المتسوّلين، فالتسوّل يؤخّر أصحابه عن الالتحاق بأهل العقول والدّراية، وفي المقابل لا ينبغي أن تجرّ العاطفة أصحابها إلى دعم مواقف المتسوّلين (الذين يتخذون التسوّل مصدرًا للعيش)، بل العقل المتدبّر لأمره يجب أن يدفع أصحابه إلى ما يُمكّن المتسوّلين من المشاركة في العمل المنتج، الذي يحفّزهم على تنمية قدراتهم وتوجيهها وفقًا لما يحقّق لهم الارتقاء نهضة ورفعة، فيخلّصهم من التسوّل إرادةً وعملًا، وكذلك لا ينبغي أن يضع بنو آدم أنفسهم في مواقف الاستعطاف، ولا ينبغي لهم الأخذ بالعاطفة

فيما يؤسّس إلى ترسيخ الفضائل والقيم وبناء الدّولة، فرجالات الدّولة كلّما أخذتهم العاطفة أخّرتهم عن إنجاز الأهداف السّامية، والأغراض الرّفيعة، والغايات العظيمة، والمأمولات قمّةً وارتقاءً.

فرجالات الدَّولة عقلًا ودراية هم من لا تأخذهم العصبيَّة؛ ذلك لأنَّ العصبيّة قيدٌ ومقبرة للذين لا يعلمون، فرجالات الدّولة دراية وارتقاء كلّما حكموا عدلوا، وكلّما قالوا صدقوا، وكلّما عاهدوا أوفوا، وكلّما كَبِروا تواضعوا، أمَّا المدّعون لذلك فهم مع كلّ هبَّة ريح يميلون، وهنا تكمن علّتهم وسُفليَّة الدَّولة ودونيَّتها.

فقيام الدَّولة ورفعتها ارتقاء لا يكون إلَّا عن عقلٍ ودرايةٍ؛ ولهذا ينبغي أن يتم استهداف رجالات بعينهم لإدارتها وفقًا لما هم عليه من مكانة ودراية وخبرة وتجربة، ومع ذلك ينبغي أن يتم إخضاعهم للتقييم قبل أن يتمّ اختيارهم إلى مناصب إداراتها، وكذلك فهم بعد الاختيار يقوّمون كلّما حادوا عن الدّراية قيمًا وخُلقًا؛ وذلك أوَّلًا: بهدف إعادتهم إليها ارتقاءً، وثانيًا: محاسبة من انحرف منهم عن قيم حَمْل المسئوليَّة التي تم اختيارهم إليها إرادة.

ومن ثمّ فمن يرى نفسه رجل دولة فعليه باختبار نفسه وتقويمها قبل أن يُختبر ويقوّم من قِبل الغير.

فبنو آدم سواء أكانوا رجالات دولة، أم مواطنين كرام يدركون أنَّ السّبيل إلى النّجاح هو الارتقاء عن كلّ شيء يؤلم، أو يؤزّم العلاقات، أو يؤدّي إلى تفكّك اللحمة الاجتماعيَّة، أو الوطنيَّة، أو الإنسانيَّة، أو يمسّ معتقدًا دينيًّا، ومع ذلك فهناك من يجهل ويغفل، فيقع في فخّ مصيدة

الغاوين والمزيّنين والمضللين، التي تزداد ضيقًا على رقاب من يقع في فخّها كلّما حاول أن يرى نفسه غير مختنقٍ.

ومع أنَّ للألم أوجاعًا، وللتأزّم أوجاعًا، فإنَّ أكثر الأوجاع بين بني آدم ما يتركه الغدر والخيانة من ألم، فآلام الغدر والخيانة لا تموت، حتّى وإن سامحك من أجرمت في حقّه؛ ولذلك وجب الدِّراية وأخذ الحيطة والحذر، حتى لا يحدث الوقوع في فخّ المصيدة مرّتين.

أمَّا الحقد بين بني آدم فهو مثل حطب نار جهنّم يحترق قبل أن يحرق غيره، أي: إنَّ نار الحقد تحرق أوَّل ما تحرق حطبها (الحاقدين)؛ ولذلك فالحقد يُلهي الحاقد من بني آدم في نفسه، والحاقد في حقيقة أمره في حاجة لمن يطفئ عنه النَّار التي بها نفسه تحترق، ومن ثمّ فمن يعتقد أنَّه إذا تمكّن من عضّ يد أحد وعضّها، فلا شكّ أنَّ عضَّ اليد يفكر الآخر في أنيابه إن لم تكن له مخالب.

ولذا فإنَّ حُرقة الجهل والظّلم والعدوان والكيد والمكر والحسد عندما تشتعل نيران غضبها بين بني آدم فلا سبيل لهم إلّا الرّكون للتخلّف قيدًا، وفي المقابل الشّعوب دراية ترتقي علمًا ومعرفةً وتسامحًا وخبرةً وتجربةً، فتغزوا الأرض سلامًا، والسّماء بحثًا وارتقاءً.

وعليه: فبنو آدم بلا عقل ولا دراية وبلا أمل لا يعدّون إلّا أمواتًا وهم على قيد الحياة، والذين يأملون الارتقاء ولا يعملون من أجله فسيبقون على أملهم وكأنَّهم بلا أمل، أمَّا البعض الذي يأمل ويعمل ويفعل فلا شكّ أنَّه سيُسهم في إحداث النُّقلة دراية وارتقاء، وفي المقابل هناك من يهدم وهو لا يعتقد أنَّ الهدم سيقع على رأسه وكأنّه بلا رأس.

وهكذا بلا عقول ولا دراية هناك من يصدّق كلّ ما يقال، ثمّ يحمّسه بين بني آدم مثلما يحمّس القمح في الحمّاس؛ ولذلك لا ينبغي أن يكون بنو آدم سماعيّين فيصدّقون كلّ ما يقال، بل عليهم بالتذكّر اتعاظًا، وعليهم بالتدبّر تحليلًا وتفسيرًا وتخطيطًا وسلوكًا وعملًا، وعليهم بالتّفكّر دراية من أجل ما يجب حتى يتمكّنوا من الارتقاء من خلال ما يمارسونه من حقوق عن رغبة، وما يؤدونه من واجبات عن إرادة، وما يحملونه من مسئوليَّات وهم متحمّلون كلّ ما يترتّب عليها من أعباء جِسام.

وعليه:

فبنو آدم وهم تحت قيد العقل والدِّراية يصلحون أحوالهم ويعفون ويصفحون من أجل بلوغ ما يأملون رفعة وقمّة، ومع ذلك فهم في حاجة للمزيد المعرفي الممكِّن من زيادة الارتقاء قمّة، وخير وسيلة لذلك المزيد من البحث العلمي والمعرفي في الكون المتسارع اتساعًا وتمدّدًا.

والارتقاء بالنّسبة إلى بني آدم هو: أملٌ قابلٌ لأن يتحقّق ويتمّ بلوغه، ولكنّ مفهوم الارتقاء غاية لا يتّضح إلّا بمقارنة بين العُليا والدُّنيا؛ فالعُليا هي السّماء وما فيها من نعيم الجنّة وبقاء الحياة، أمَّا الدُّنيا فهي الأرض وما عليها من مخلوقات وزوال الحياة؛ ولذا فبين هذا وذاك وجد الإنسان نفسه بين التّخيير تارة، والتّسيير تارة أخرى؛ فالتّخيير (تؤمن أو لا تؤمن، تعمل صالحًا أو تعمل طالحًا، تَصدُق أو تكذب أو تنافق أو تدّعي ما تشاء....)، أمَّا التّسيير فلا خيار لأحدٍ فيه (حياة أو موت، شروق أو غروب، برق ومطر ورعد وصواعق وزلازل وبراكين وتمدّد كوني متسارع، ومفاجآت عظيمة....).

ولهذا فالارتقاء قمّة يمكّن بني آدم عقلًا ودراية من العيش الرّغد في الحياة الدّنيا (الزائلة) ويمكنّهم من العيش السّعيد في الحياة العليا (الباقية)، فبنو آدم عقلًا ودرايةً لا يقصرون أملهم على الحياة الزّائلة، التي يصرّون على أخذ نصيبهم منها، بل يقيّدون أملّ عيشهم فيها بأمل العيش في الحياة الدّائمة؛ ومن هنا فهم يعملون ويسعون إلى بلوغ المزيد المرضي ارتقاء[145].

التهيّؤ بالعلم وصولًا إلى الخلافة:

العلم هو الذي يتمّ به حصول المراد من خلافة الله تعالى في أرضه، ونقصد بالعلم، هو علم التوحيد المتعلّق بمعرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله وحقّه على عباده، والذي يتحصّل عليه المسلم ممّا ورد في القرآن الكريم وأحاديث النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم، وفق منهج عماده العقل ومادَّته اليقين، بعيدًا عن الشَّطط الذي جاء على ألسنة بعض المتكلمين والفلاسفة والغلاة.

وبالرّجوع إلى القرآن العظيم، وسنَّة النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم وواقع دعوته، نجد أنَّها تولي أهميَّة بالغة وعناية خاصَّة بإزالة ما علق في قلوب النَّاس من مفاهيم وعقائد وظنون خاطئة، وذلك بالتركيز على تجلية أسماء الله وصفاته وأفعاله، وحكمته وقدره وحقّه على عباده، والرّد على من أثبت خلاف الحقّ في ذلك، وبهذه التجليّة والبيان الواضح والرّد الحاسم ينفك المسلم عن الطّاغوت، وكل ما يمتُّ إليه بصلة، ويستمسك بالإيمان وكل ما يتّصل به، فإذا وصل إلى هذه الدّرجة من الإيمان يكون قد تخلّق

[145] عقيل حسين عقيل، الدِّراية من الأمر إلى الطاعة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 2022م، ص 6 – 16.

بصفات أسماء الله تعالى التي تهيئه لأنْ يكون خليفة في الأرض؛ فقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[146]. هو دعوة للتهيّؤ للخلافة، فخليفة الله تعالى هو عادل محسن غير ظالم، وهذه من الشّروط التي يجب أن تتوفّر في الخليفة، والخلل في الاتصاف النسبي بصفات الخالق تبارك وتعالى، أو حكمته وقدره، أو حقّه على عباده وواجبات عباده له، يُوجِد سوء ظن بالله بقدر يتناسب مع هذا الخلل في الاتصاف بتلك الصّفات، سواء كان بجهل تلك الأسماء وما تدلّ عليه من الصّفات، أو جهل بعض تفاصيل القدر وتوحيد الألوهيّة، أو كان بفهمها فهمًا يخالف الحقّ الذي دلَّ عليه الكتاب والسُّنة.

بل إنَّ التفكير السّديد يدلّ على هذه الصّفات متناسقة مع واقع الإنسان وما فُضّل به من العقل والخلق، ويتجلّى ذلك في ظهور التكريم للإنسان وتفضيله وتكليفه، ومؤاخذته في تفاصيل هذه المطالب، فالحكمة ظاهرة خلق التهيّؤ والتكليف بالخلافة.

فالعقل يدرك أنَّ ما حصل من تكريم الله للإنسان من خلقه له بيده، وإسجاد الملائكة له، أنَّه يتناسب مع مكانة الإنسان ووظيفته التي كلّفه بالقيام بها من الخلافة في الأرض وتحقيق العبوديَّة. كما أنَّ العقل يقرّر أنَّ عبوديَّة المخلوق لخالقه، والمتفضل عليه والذي يملكه ويدبّره هي الحقّ المتعين عليه، والخلافة في الأرض على منهجه هو الغرض والغاية، كما يحكم بأنَّ الإنسان بما أعطي من عقل وقدرات نفسيّة وبدنيَّة هو

[146] النحل 90.

المهيّأ وحده للقيام بهذه الوظيفة على الأرض. والعقل يرى أنَّ العدل أن يبعث النَّاس للحساب، فيقتصّ للمظلوم من الظَّالم، ويجازي المحسن بالإحسان، والمسيء بالعقاب والحرمان. فالفطرة السّليمة تدرك أنَّ هذا الخالق الحكيم لا بدَّ أن يكون وراء تنظيمه لهذا الكون، ووضع الإنسان فيه غاية وحكمة، وتعالت حكمته أن يكون خَلق هذا كله عبثًا؛ حيث قال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}[147]. وهذا الحقّ الذي به خُلقت السّماوات والأرض هو ما يستشفّه العقل وتحسّ به الفطرة ــ وإن يكن إحساسًا داخليًّا غامضًا ــ أنَّ لهذا الإنسان في الوجود رسالة وأنَّ وراء هذه الحياة ــ حياة الابتلاء والفناء ــ حياة أخرى، هي الغاية وإليها المنتهى يُجزى فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، حتى لا يستوي الخبيث والطيب، والبرّ والفاجر، وهذا ما تقتضيه الحكمة.

لقد اهتدى الإنسان بتهيّؤه إلى سرِّ وجوده ووجود العالم كلّه، لقد عرف الله فعرف به كل شيء، وحلّ به كل لغز، واهتدى به إلى كلِّ خير، فالعالم مملكة الله، وكل ما فيه من آثار رحمته تعالى، والإنسان خليفة الله، خُلق لعبادة الله، وتحمّل أمانة الله، والحياة هبة من الله، والموت قدر من الله، والدّنيا مزرعة لطاعة الله، والآخرة موعد الحصاد، والجزاء من الله، والسَّعيد من اهتدى بهدى الله، والشّقي من أعرض عن ذكر الله.

وحيث إنَّ خلق الإنسان ليس للإنسان أثر فيه، وبما أنَّ المصير والمنتهى ثمرة ونتيجة لسعي الإنسان في الدُّنيا متوقّف على مدى تحقيقه

---

[147] الدخان 38- 39.

للغاية التي من أجلها خلق؛ فلذلك كانت معرفة الغاية والحكمة من خلق الإنسان مطلبًا أساسيًا في سلوكه واستقراره النَّفسي.

والإسلام يجعل غاية الإنسان وهدفه الأساسي هو حُسن الصلة بالله تبارك وتعالى، والحصول على مرضاته بالقيام بالعبوديَّة الخالصة التي تؤدِّي إلى الخلافة، فهذه غايته ومنتهى سعيه وأمله: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ}[148]، والكدح المجدي الذي ينتهي بصاحبه نهاية سعيدة في الدُّنيا؛ كونه مهيّأ للخلافة، والخلافة تهيّئه للجنَّة من قيامه بحقِّ الله، وهو عبادته وحده لا يشرك به شيئًا.

لقد هيَّأ الله تعالى الإنسان للخلافة بما وهبه من قدرات أعلاها العقل الذي هو مدعاة العلم، ومقدرته على الدّراية والاستنارة، وكذلك طبيعته الفريدة التي تتميّز بكونه قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله؛ حيث قال تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}[149] فالشهوات كلها أو الدوافع الفطرية أو الغرائز الإنسانية أو القوة الحيوية هي نشاط فطري، ولكنها فطرة مهيّأة للكبح والضبط بالعقل والإدراك، ومهيّأة للسمو الروحي بالإيمان بالله والمثل العليا والعمل على تحقيقها إيجابيا في واقع الحياة.

ونقف على هذا التهيؤ في النَّفس الإنسانية منذ أن وجدت من قوله تعالى: {قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ

[148] الانشقاق 6.

[149] ص 71- 72.

لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}[150]؛ فهو كشف عن فضل آدم وتهيّؤه، وأنَّه قادرٌ على مالا تقدر عليه الملائكة، من إحداث هذا التغيير في وجه الأرض، بما أدخله عليها من إضافات في صورها وأشكالها؛ وذلك ما لا تستطيعه الملائكة من ذات أنفسها، ولهذا أمر الله الملائكة بالسّجود لآدم، سجود إجلال وتعظيم لقدرة الخالق سبحانه، الذي أخرج من تراب الأرض كائنًا يعلِّم الملائكة ما لم يكونوا يعلمون.

وقد غيَّر آدم الأرض فأخرج المخبوء من أسرارها، وسخّرها لخدمته، فعمّر جيبها، وأحيا مواتها، واستأنس متوحشّها، وألان حديدها، حتى أقام تلك المدنيَّات وهذه الحضارات، فركب البحار وسبح في الفضاء، ووصل إلى الكواكب والأقمار؛ حيث نزل على سطح القمر، واستكشف الجديد الذي لن ينتهي استكشافًا.

ثم إنَّ الإنسان لا يقف عند هذا الذي أخرجه من معطيات مدركاته وما هو مهيَّأ له، فإنَّ أمام الإنسان مجالًا فسيحًا للبحث في أسرار هذا الكون الذي أودع به الخالق سبحانه مالا ينفذ من آيات علمه، وحكمته وقدرته، فإذا عجز جيل من أجيال النَّاس عن اكتشاف سرّ من أسرار الكون جاء الجيل الذي بعده، فحاول أن يكشف عن مكنون هذا السرّ، وهكذا تتوالى أجيال الإنسانيَّة، كل جيل يبني على ما أقامه الجيل السّابق حتى يعلو صرح البناء، وينمو نموًّا مطردًا، وهذا بفضل ما هيَّأه الله تعالى

---

[150] ص 71- 72.

في الذّات الإنسانيّة، وأجلّ ما في الإنسان من التهيّؤ هو تهيّؤه للعلم والمعرفة من خلال اتصافه النّسبي بأسماء الله الحسنى.

فالعلم المعرفة من أهم خصائص الإنسان، حيث قال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[151]. والإنسان خليفة الله الخالق المبدع المسيطر على كل قوى الكون، وهو مخلوق تحتفل به السّماوات والأرض، ويتولّى الله سبحانه وتعالى إعلان مقدمه على الملأ الأعلى؛ فالخلافة عن الله فيها معاني الإنشاء والابتكار والتعمير والتغيير والتبديل، وكلّها معانٍ دقيقة نابعة من التهيّؤ.

وعليه: فالخليفة الذي يتّصف بصفات الله وأسمائه الحسان هو أيضًا يجب أن يكون مهيّئًا لنفسه أوّلا لفعل الخيرات والإكثار منها وترك المعاصي والآثام واجتنابها، ولغيره ثانيًا ممّن له احتكاك بهم كالأبناء والجيران والأصدقاء وغيرهم على أن يكونوا مطيعين لله مستجيبين لأوامره ومنهيين عن نواهيه، وكذلك يكون مهيّئًا للأرض من أجل الإعمار والإصلاح الذي أراده الله منه فيها عند استخلافه، فيعمل على تمهيدها واستخراج خيراتها ومعادنها والعمل على زراعتها من أجل إعمارها وإصلاحها وإصلاح حال العباد عليها بالتعاون والرّحمة والمحبّة، وعدم الإفساد فيها، وعدم سفك الدّماء بغير حقٍّ، وعدم أكل أموال النّاس بالباطل، وعدم ظلم الآخرين، وغير ذلك من الأعمال التي تؤدّي إلى جوهر الخليفة الحقيقي والهدف الأساس من وجوده في الأرض وهو عبادة الواحد الأحد

[151] البقرة 31.

الفرد الصّمد الذي لا شريك له؛ لقوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الجنّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}[152].

والتهيّؤ من الخليفة منه ما هو إيجابي ومنه ما هو سلبي، ومن أمثلة التهيّؤ الإيجابي:

أ- تهيئة الطَّبيب مريضه لإدراك خطورة مرضه وتهيئته بالتَّالي للتعامل معه والصبر عليه، فلا بدَّ أن يكون الطّبيب مهيَّأ أوَّلًا لأن يكون إنسانًا يخشى الله وعلى قدرٍ كبير من الدِّراية والخبرة في التعامل مع نفس المريض قبل جسده، فيهيئ نفس المريض للتعامل مع المرض قبل تهيئة جسده، فالنَّفس البشريَّة قد تكون مهيّأة للمرض والصّحة ويدخل في ذلك الكثير من العوامل ومن ذلك.

إيمانه وعلاقته بالمولى عزّ وجلّ؛ فعلى الطَّبيب المستخلف في الأرض أن يهتم بتقوية الجانب العقدي في نفوس المرضى من أجل أن يهيّئهم للرّضا بقضاء الله وقدره.

صبره وقوّة تحمله. من أهم العوامل التي تخفّف الآلام عن المريض الجانب الرّوحي الذي ينمّي فيه الصّبر وقوّة التحمّل باعتبار أنّ ما ألم به من مرض هو من عند الله إمّا لاختبار إيمانه وصبره أو لابتلائه فيصبر على مرضه طمعًا في ثواب الله ومغفرته.

- إرادته. على الطّبيب أن يهيئ مريضه بأن يقوّي إرادته وأمله في رحمة الرّحيم الكريم عزّ وجلّ؛ من حيث أنَّه تعالى هو الشَّافي، وكل شيء بيده تعالى.

---

[152] الذاريات 56.

ب- التهيؤ للتوبة من الذّنوب؛ لقوله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}[153]، من هذه الآية الكريمة يتضح كيف يتهيَّأ من فعل المعاصي للتوبة؛ وذلك بأن يتذكر الله إزاء ارتكاب الفاحشة، ثم يستغفره من فعلته وهو موقن بأنَّه لا يغفر الذّنوب إلّا هو عزّ وجلّ، ثم بعد ذلك لم يعد لفعل ما ندم عليه من الفواحش، ولم يصر على فعله، وهو يعلم تمام العلم أنَّه لا ملجأ إليه إلَّا الله التواب الغفور. ويتضح كذلك أنَّ هناك فريقين من النَّاس، أوَّلهما من يرتكب الذّنوب والمعاصي بعلمٍ ودراية بنتائجها ويستمرّون عليها دون أن يتوبوا، وثانيها من يعمل السّيئات والذّنوب دون علمٍ كاملٍ ووعي بنتائجها، ولا يصرّون على الاستمرار فيها بعد علمهم بها، والله جعل من البشر مهيئين للتوبة والعودة عن المعاصي فتأتي إرادة الإنسان التي تختلف بين النَّاس وتولد موانع للشر وموانع للخير، فمن موانع الشّر ما يلي:

. مخافة الله تعالى: مخافة الله تعالى تهيئ الإنسان لفعل الخيرات، وإن حصل أن ضعُف مرّة أو قصّر فإنَّه يكون دائمًا متهيَّأً للعودة لله بالتوبة، فخشية الخالق تهيئ النَّفس لردع الفساد والشَّر.

---

[153] آل عمران 135: 136.

. التربية السَّليمة: التربية تهيئ الإنسان لأن يكون فرداً صالحًا في المجتمع، بداية من اختيار الأب والأم إلى التربية الدِّنية والنَّفسية داخل هذه النّواة الصّغيرة التي تساهم في تشكيل المجتمع السَّليم.

. العلم النَّافع: من الأساسيات التي تدّعم التهيئة السليمة والصحيحة هو تحصيل العلوم النافعة باختلافها، فيتهيأ المرء لأن يأخذ مكانه في المجتمع كعضو فعّال ومفيد.

القدوة الحسنة: كل فضيلة أو خُلق حميد يكون إثر مثلٍ عالي أو قدوة حسنة تهيّؤه لأن يسير على هذه الخطى، وأحيانًا تكون هذه القدوة لجماعات وليست لمجرد فرد، وأفضل مثال لهذا أنَّ رَسُولنا الكريم محمَّد – صلَّى الله عليه وسلَّم- كان وسيظل أفضل قدوة للأمَّة الإسلاميَّة التي بسيرها على خطاه تكون مهيّأة لأن تتحدّى الصّعاب وتقهر الجهل والضّعف.

ومن موانع الخير:

. إتباع الشَّيطان: قالت تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ}[154]، فإتباع الشّيطان تهيئ الإنسان لأن يكون فاسدًا لا يبدر منه إلَّا كلّ سوءٍ وفاحشة، لأنَّ في سيطرة الشّيطان عليه تهيّؤ لقبول الرَّذائل والفواحش.

فالإنسان حين يكون اتجاه تفكيره ومداركه للشّر، فبالطبع يكون متهيّئ لكل ما هو شرير وسيء.

---

[154] النور 21.

. سوء التربية: التربية السّليمة لها الدَّور الفعّال في تهيئة المرء لأن يكون المسلم الحقيقي الذي يتحمّل عبء أمانة استخلاف الأرض، أمَّا انهيار المجتمع ومتهيئاته لأن يكون على شفا حفرة هو ناتج من سوء التربية داخل الأسرة نتيجة إهمال الوالدين أو الجهل في طريقة التعامل المادِّي والنَّفسي.

وسوء التربية لا يقتصر على فترة زمنية محدّدة، بل إنَّها تشمل حياة الإنسان منذ طفولته ليمتد أثرها إلى آخر عمره، لأنَّ الأساس يكون مهيَّأ للانهيار والضّياع الناتج عن سوء التربية.

. القدوة السّيئة: قد يلجأ الشّخص إلى الاقتداء بمثلٍ أو شخصيَّةٍ تنال إعجابنا، ولكن المشكلة تبقى في ميولنا تجاه اختيارنا لهذا المثل، فنجد مثلًا من يأخذ من شخصيَّة فاسدة أو عدوانيّة مثلًا له فيتهيّأ نفسيًا لأن يكون مثله في العدوانية والفساد والشّر.

. الجهل: من أخطر الأمراض على التهيئة السّليمة هو الجهل، فلا يمكن أن نكون متهيّئين للأفضل ونحن على جهل وغفلة مما هو مفيد وما هو ضار.

. تهيئة الوالدين للأبناء: مسئوليّة الوالدين عظيمة جدًا، فالله تعالى هيَّأ الإنسان لأن يكون مسئولًا بأن زرع فيه المسئوليَّة وهيَّأه لذلك، ففي داخل كل إنسان تهيؤ فطري لأن يكون أبًا، أو أمًّا حسب جنسه، وهذه الرّغبة الكامنة فينا تجعل منا مهيئين لذلك، فبعد أن هيّأنا الله تعالى لذلك لزم علينا أن نكون على قدر هذه المسئوليَّة، فلا بدَّ للوالدين أن يكونوا مهيئين للأبناء لأن يكونوا صالحين يتّقون الله ويخشونه ويحبّونه.

وقد بيّن الله تعالى وهو الودود الرحيم أنَّ أساس التعامل بين الأبناء والآباء هي الرَّحمة في قوله تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا}[155]؛ فبذلك قد هيَّأ الرَّحيم المطلق العلاقة بينهما على هذا الأساس، ووضَّح المنهاج الذي يجب أن تقوم عليه هذه العلاقة[156].

الخليفة:

شغلت لفظة (خليفة) حيّزًا معرفيًّا كبيرًا في الفكر العربي سواء أكان ذلك على الصَّعيد الشَّرعي أم التَّاريخي في تشكلٍ يدعو إلى تساؤلٍ عن كثير من الجوانب الفكريَّة والمعرفيَّة، التي تردَّدت بين ثنايا كتب التَّاريخ حول حقيقة المفهوم.

وبداية حديثنا عن الخليفة في اللغة، يقول ابن منظور في لسان العرب "اسْتَخْلَفَ فلانًا من فلان جعله مكانه وخَلَفَ فلان فلانًا إذا كان خَلِيفتَه، ويقال خَلَفه في قومه خِلافةً وفي التنزيل العزيز: {وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ}[157]، وخَلَفْتُه أَيضًا إذا جئت بعده، ويقال خَلَّفْتُ فلانًا أُخَلِّفُه تَخْلِيفًا، واسْتَخْلَفْتُه أَنا جَعَلتُه خَليفَتي واسْتَخْلفه جعله خليفة، والخَلِيفةُ الذي

---

[155] الإسراء 23: 24.

[156] عقيل حسين عقيل، مقدمة موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق – بيروت: 2009م، ص 196 – 208.

[157] – الأعراف من الآية 142.

يُسْتخْلَفُ ممّن قبله والجمع خلائف"[158]، وفي لغة الفقهاء أنَّ الخليفة هو: "مَن يخلف غيره ويقوم مقامه"[159].

وورد لفظ (خليفة) في النَّص القرآني في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[160]، كان هذا السّياق ضمن سياق الآيات العظيمة التي كانت تمثل البداية الأولى للبشريَّة، فسماع هذه الآية يحيل إلى تشكلات مختلفة كانت تؤشّر بداية البشريّة، ومن بين هذه التشكلات هي الخلافة، فقد وردت ضمن سياق قصة رسمت البداية الأولى في كل تفاصيلها، ومن بين هذه التفاصيل كانت الخلافة، وسياق الخطاب القرآني في هذه القصّة اتسم بالتشريف لآدم عليه السَّلام، فهذا المخلوق شرّفه الله تعالى وعرضه للملائكة بطريقة ارتسمت فيها عظمة الله تعالى وقدرته وعلّمه أن خلق ما في الأرض كانت لأجله فتَهَيَّأتْ نفسه لسماع قصّة إيجاد منشأ النَّاس الذين خُلقت الأرض لأجلهم، ليُحيط بما في ذلك من دلائل القدرة مع عظيم المِنّة، وهي مِنّة الخلق التي نشأت عنها فضائل جمَّة ومِنَّة التفضيل، ومنة خلافة الله في الأرض[161].

ويلاحظ أنَّ لفظة الخليفة في النَّص القرآني وردت بصيغة التنكير التي تحمل دلالة الإطلاق المنفتح غير متحقّق على اسم شخص بعينه،

---

158 – لسان العرب ج 9 ص 82.

159 – معجم لغة الفقهاء ج 1 ص 200.

160 – البقرة 30.

161 – التحرير والتنوير ج 1 ص 205.

ولهذا كانت البداية لورود اسم الخليفة بداية لتشكل نمط معرفي للصّورة التي يكون عليها النسق المراد تحقيقه في الأرض.

وهنا تكمن الأصول والمعايير والتوافقات التي تتحد في ضوء اختيار ربّاني، وهكذا كان الخليفة آدم عليه الصَّلاة والسَّلام.

فهنا في هذا السِّياق تجيء قصّة استخلاف آدم في الأرض، ومنحه مقاليدها، على عهد من الله وشرط، وإعطائه المعرفة التي يعالج بها هذه الخلافة، كما أنَّها تمهّد للحديث عن استخلاف بني إسرائيل في الأرض بعهد من الله؛ ثم أعطى مقاليدها للأمَّة المسلمة الوافية بعهد الله فتتسق القصّة مع الجو الذي تساق فيه كل الاتساق[162]؛ إذ يقول تعالى: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ}[163]. ويلاحظ في الآية الكريمة أنَّ صيغة الخطاب وإنْ قُصد بها بني إسرائيل إلَّا أنَّها تشمل عموم المؤمنين بالله وملائكته ورسله.

وإيحاءات لفظة (خليفة) ترسم أبعادًا مهمة لما سيتحقّق في الأرض بعد خلق آدم عليه الصَّلاة والسَّلام، فمهمَّته لم تكن يسيرة وفق ما تمليه عليه لفظة (خليفة). كما أنَّ الخلافة التي أرادها الله تبارك وتعالى لم تتوقّف عنده، بل استمرّت؛ وذلك من خلال الرُّسُل الذين بعثهم الله تعالى إلى أمم في أماكن وأزمان مختلفة؛ إذ يقول تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا

---

[162] – في ظلال القرآن ج 1 ص 27.

[163] – البقرة 40.

لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}[164]، واستمر هذا النّسق إلى مبعث نبيّنا محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام، فبمبعثه انقطعت الرِّسَالات والنّبوّات؛ فكان خاتمًا لها.

أمَّا من حيث الخلافة فهي تسير كما نعتقد وفق صيغة مطابقة لاستمرار الرُّسُل؛ وذلك في قوله تعالى (تَتْرى) فهذه اللفظة ترسم صورة التتابع المتحقّق للرُّسُل، لكن هذا التحقّق ينتهي بخاتم الرُّسُل والأنبياء نبيَّنا محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام، أمَّا الخلافة فلا تنتهي إلَّا بنهاية الوجود الحي على الأرض المستخلفون فيها.

ولم يكن أمر الخلافة مرتبط بـ(آدم) عليه الصَّلاة والسَّلام فقد وردت في سياقات أخرى في النَّص القرآني؛ من ذلك قوله تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاس بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}[165]، وقوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}[166].

وآية النّور الخطاب فيها لرَسُول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ولمن معه، وعدهم الله بالنَّصر على الكفر، وبوارثة الأرض، فيجعلهم فيها خلفاء، كما فعل ببني إسرائيل، حين أورثهم مصر والشَّام بعد إهلاك الجبابرة،

[164] – المؤمنون 44

[165] – ص 26

[166] – النور 55

وأنْ يُمكِّن الدِّين المرتضى وهو دين الإسلام، وأن يؤمن سربهم، ويزيل عنهم الخوف الذي كانوا عليه؛ وذلك أنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابه مكثوا بمكّة عشر سنين خائفين، ولما هاجروا كانوا بالمدينة يصبحون في السِّلاح ويمسون فيه، حتى قال رجل: ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السّلاح؟ فقال صلَّى الله عليه وسلَّم: "لا تغبرون إلَّا يسيرًا حتى يجلس الرَّجل منكم في الملأ العظيم محتبيًا ليس معه حديدة، "فأنجز الله وعده وأظهرهم على جزيرة العرب، وافتتحوا بعد بلاد المشرق والمغرب، ومزقوا ملك الأكاسرة وملكوا خزائنهم، وفتحوا الدّنيا، ثم خرج الذين على خلاف سيرتهم فكفروا بتلك الأنعم وفسقوا[167].

وبعد وفاة الرَّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام كان لا بدَّ أن تستمر الدَّعوة الإسلاميَّة وأن يتمَّ الدِّين؛ مصداقا لقوله: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}[168]، وهذه الدَّعوة تحتاج إلى من يوجهها ويرسم لها اتجاهاتها العامَّة والخاصَّة ضمن دائرة الإسلام، وعليه نتساءل:

كيف تسير الأمور الدِّينية والدّنيوية؟

من يقودها؟

كيف يتحقّق الاستخلاف؟

ومن يُستخلف؟

[167] - الكشاف ج 4 ص 421

[168] - المائدة 3

وقبل الإجابة عن هذه التساؤلات نستدعي التَّاريخ ليطلعنا على ما جرى بعد وفاة النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام وذلك:

لنرى كيف تحقَّقت الخلافة؟

ووفق أيَّة معطيات؟

استأثر الله بنبيّه صلَّى الله عليه وسلَّم وقد أكمل له ولنا دينه، وأتم عليه وعلينا نعمته؛ كما قال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}[169]؛ وذلك بتكميل الشَّرائع بما فيها من أصول وفروع، ولهذا كان الكتاب والسّنَّة كافيين كل الكفاية، في أحكام الدِّين أصوله وفروعه؛ فضلًا عن ذلك أنَّ الله تعالى اختار ورضي لان يكون الدِّين الإسلامي ديننًا. قال أنس: "ما نفضنا أيدينا من تراب قبر رَسُول الله صلَّى الله عليه وسلَّم حتى أنكرنا قلوبنا. واضطربت الحال، ثم تدارك الله الإسلام ببيعة أبي بكر، فكان موت النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم (قاصمة الظّهر) ومصيبة العمر"[170].

واضطراب الحال تشكَّل وفق رؤى مختلفة كلّ طرف كان يرى أنَّه الأحق بالخلافة من غيره، وقد تحقَّق هذا الأمر في سقيفة بني ساعدة "واجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة يتشاورون، ولا يدرون ما يفعلون، وبلغ ذلك المهاجرين، فقالوا: نرسل إليهم يأتوننا، فقال أبو بكر: بل نمشي إليهم، فسار إليهم المهاجرون، منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة، فتراجعوا الكلام، فقال بعض الأنصار: منَّا أمير ومنكم أمير. فقال أبو

---

169 – المائدة 3.

170 – العواصم والقواسم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ج 1 ص 64

بكر كلامًا كثيرًا مصيبًا: نحن الأمراء وأنتم الوزراء، إنَّ رَسُول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: "الأئمة من قريش" وقال: "أوصيكم بالأنصار خيرًا: أن تقبلوا من محسنهم، وتتجاوزوا عن مسيئهم"[171] إنَّ الله سمَّانا (الصَّادقين) وسمَّاكم (المفلحين) وقد أمركم أن تكونوا معنا حيثما كنا فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}[172]، إلى غير ذلك من الأقوال المصيبة والأدلة القويَّة، فتذكَّرت الأنصار ذلك وانقادت إليه، وبايعوا أبا بكر الصّديق رضي الله عنه"[173]. فالخلافة تحقّقت وفق الرُّؤيا التي طرحت، وليس مِن قِبل استخلاف رَسُول الله عليه الصَّلاة والسَّلام، وفي النَّص السَّابق اتضحت سمة الإدراك عند أبي بكر الصّديق رضي الله تعالى عنه في قوله (نحن الأمراء وأنتم الوزراء)؛ ذلك أنَّ أبا بكر يدرك أنَّ الخلافة غير متحقّقة بتكليف شرعي لانَّ النَّبي لا يخلفه إلَّا نبي والرَّسُول لا يخلفه إلَّا رَسُول، بل ركَّز على الإمارة لأنَّه منصب يقوم بأمر الدِّين والدُّنيا، وهذه اللفظة تليق بالمنصب المترتّب بعد وفاة الرَّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام؛ فضلًا عن ذلك أنَّها تدلُّ على وعي أبي بكر وحرصه وإيمانه بأنَّه لا خليفة بعد رَسُول الله عليه الصَّلاة والسَّلام، ولإيمانه بأنَّ الأمر بعد رَسُول الله عليه الصَّلاة والسَّلام شورى.

إنَّ اختيار أبي بكر وترجيح كفَّته لم يكن أمرًا اعتباطيًّا، بل كان أمرًا يخضع لكثير من الأمور، منها ما كان بشكل نصّ قرآني، ومنها ما كان بشكل اعتباري؛ أمَّا النَّص القرآني فهو قوله تعالى: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ

[171] الدرر السنّية، الموسوعة الحديثة.

[172] – التوبة 119

[173] – العواصم من القواسم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ج 1 ص 70

نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[174]، هذه الآية الكريمة اشتملت على قصّة تعد البداية الأولى لظهور أبي بكر ضمن اختيار فريد لأمر غاية في الأهميَّة؛ إذ كان الاختيار دقيقًا وموحيًا بعظمة هذا الرَّجل، ومنزلته عند رَسُول الله عليه الصَّلاة والسَّلام "خرج رَسُول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وأبو بكر أوَّل الليل إلى الغار، وأمر عليًا أن يضطجع على فراشه ليمنعهم السواد من طلبه، حتى يبلغ هو وصاحبه إلى ما أمر الله به، فلمَّا وصلا إلى الغار دخل أبو بكر الغار أوَّلًا، يلتمس ما في الغار، فقال له النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم، "مالك؟ " فقال: بأبي أنت وأمي، الغيران مأوى السِّباع والهوام، فإن كان فيه شيء كان بي لا بك، وكان في الغار جحر، فوضع عقبه عليه لئلا يخرج ما يؤذي الرَّسُول، فلمَّا طلب المشركون الأثر وقربوا، بكى أبو بكر خوفًا على رَسُول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فقال عليه السلام:

"لا تحزن إن الله معنا، فقال أبو بكر: إنَّ الله لمعنا"[175].

إنَّ لفظة الصَّاحب في النَّص القرآني لها دلالات عدّة، ومن أهم هذه الدَّلالات هي الملازمة، والملازمة لا تتحقّق إلَّا وفق اختيار مسبق مدروس، وضمن ضوابط تحدّد لها معاييرها وصفاتها، فمصاحبة رَسُول الله عليه الصَّلاة والسَّلام تنم عن اختيار الرَّسُول الأعظم لشخصيّة لها

---

[174] – التوبة 40

[175] – تفسير الرازي ج 8 ص 27

ثقلها ورمزها بين النَّاس؛ فضلًا عن ذلك القيمة التي يدركها الرَّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام في شخصيَّة أبي بكر، كما أنَّ المواقف التي وقفها أبو بكر في الإسلام تشهد له وتمنحه سمة مميزة تؤهِّله التقدُّم على باقي الصَّحابة رضي الله عنهم.

ويعد تقدّم العُمر عند العرب من السّمات التي تؤهّل صاحبه بأن يتقدّم إلى المناصب العليا المتحقّق فيها سمات القيادة المهمّة؛ لذا فعُمر أبي بكر الصّديق وسبقه أهلاه لان يكون خليفة للمسلمين، فقد كان عمره في بداية الستّينات، فعمره كان مناسبًا لان يتولَّى هذا المنصب الذي يعد الأخطر في تاريخ كل من تقلده وهو من السَّابقين للإسلام. فعاملي السّن والسّبق يوجبان التقدير والاحترام في الأمور العظام، ووفقًا لهذه القاعدة يكون أبي بكر مقدَّمًا على غيره، الأكبر عمرًا والأسبق إيمانًا هو الذي يقدّم في الأمر، ولهذا كانت معطيات تقدُّم أبو بكر ليست سياسيَّة إنَّما هي متغيّرات علائقيَّة تؤكّد القيم الآتية:

1 ـ قيمة التقدير.

2 ـ قيمة الاحترام.

3 ـ قيمة الاعتراف.

4 ـ قيمة الاعتبار.

5 ت قيمة التفهّم.

هذه القيم هي التي صيرت من أبي بكر خليفة، ولا أعني خليفة رَسُول الله، إنَّما أخذ هذا اللقب من قوله تعالى: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً).

وكان العرب قبل الإسلام يتقاتلون فيما بينهم، ومن نتائج القتال يسقط منهم قتلى فيتطلّب ذلك ديّات تكون هي الفاصل لكثير من النزاعات فكان أبو بكر حاملًا للديّات "كان أبو بكر رضي الله عنه من رؤساء قريش في الجاهليَّة، محبّبًا فيهم، مألفًا لهم، وكان إليه الأشناق في الجاهليَّة، والأشناق: الدِّيَّات. كان إذا حمل شيئًا صدَّقته قريش، وأمضوا حمالته وحمالة من قام معه، وإن احتملها غيره خذلوه ولم يصدِّقوه"[176]. فأمر الدّيَّات أمرٌ عظيم، ولهذا لا يُلجا في هذا الأمر إلَّا إلى عظيم، فحقن الدِّماء يمثل صورة السَّلام الذي يتحقّق بين أيدٍ يكون صاحبها عظيمًا.

وذلك لأنَّه لكل عصر من العصور معطياته الخاصّة التي يتميَّز بها عن غيره من العصور السَّابقة له واللاحقة، والمبررات التي أوجبت أن يكون هناك خليفة ما بعد رَسُول الله عليه الصَّلاة والسَّلام، هي مبررات حتمية لا مناص منها من أجل أن تستمر الدَّعوة الإسلاميَّة بالصُّورة التي أريد لها، ولهذا فهل يمكن لنا أن نجتهد ونستقرأ تلك الظُّروف ونحن في القرن الواحد والعشرين؟ إنَّ الإحاطة بهذا الأمر يتطلَّب الوقوف على كثير من الأحداث التي رافقت تحققه كي يتسنى لنا الحكم أو حتى إبداء الرَّأي الذي يصل بنا إلى الحقيقة التي هي مطلب كل من يبحث عنها.

إنَّ المتغيرات في كل عصر هي التي تحدّد توجهات الدَّولة في كل جوانبها السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة، فضلًا عن ذلك الجانب الدِّيني لا سيما في دولة يكون الدِّين هو القاعدة الأساسيَّة التي بُنيت عليها، وهذا ما يجعل الدَّولة تغيّر كل أهدافها وفقًا للمتغيّرات التي تتعرَّض

[176] – أسد الغابة ج 2 ص 138

لها، فبعد وفاة رَسُول الله عليه الصَّلاة والسَّلام ومبايعة أبي بكر خليفة للمسلمين لم يكن في خلد أبي بكر أو في خلد المسلمين أن يكون الواقع بعد وفاة رَسُول الله عليه الصَّلاة والسَّلام بالصّورة التي تحقَّقت، وفي هذه الفترة الحرجة لا بدَّ أن يسير الفكر الدِّيني والسِّياسي والاقتصادي والاجتماعي على وفق ما يحقّق نصرة الإسلام والمسلمين، أو بمعنى آخر لا بدَّ أن تتحقّق التعبئة العامَّة في كل الميادين من أجل أن تتهيَّأ لما حدث، هذا الاضطراب المفاجئ يحتاج إلى سياسة تتفق مع حجمه وهدفه كي يتحقق الرّد المناسب، فانْ لم يتحقّق الرّد المناسب تتَّجه الأمور نحو الهاوية أو المصير المجهول الذي يهدم كل ما بُني وأريد له الاستمرار، ولهذا نجد أنَّ ردّ أبي بكر في أوَّل متغيّر تعرَّض له بعد خلافته يتماشى مع الزَّمن الذي ظهر فيه، بمعنى أنَّ الحزم الذي نهجه أبو بكر في أمر الرِّدة ومانعي الزّكاة يتناسب مع المرحلة التي ظهرت فيها، فهذه الأحداث جاءت بعد وفاة الرَّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام، في وقت حرج يتطلّب فيه الوقوف بحزم؛ لكن هذا الحزم يجب أن يتماشى مع الرِّسالة الإسلاميَّة التي أرادها الله تعالى ورَسُوله الكريم عليه الصَّلاة والسَّلام، ولنستمع إلى ما دار من حديث بين عمر بن الخطاب وأبي بكر، عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ لَمَّا تُوُفِّىَ رَسُول اللَّهِ –صلَّى الله عليه وسلَّم– وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لأَبِى بَكْرٍ كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاس وَقَدْ قَالَ رَسُول اللَّهِ –صلَّى الله عليه وسلَّم– "أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاس حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ فَمَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ فَقَدْ عَصَمَ مِنِّى مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلاَّ بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ ». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَاللَّهِ لأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاة

وَالزَّكَاةِ فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِى عِقَالاً كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ. فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ رَأَيْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِى بَكْرٍ لِلْقِتَالِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ" [177].

إنَّ ما قام به أبو بكر في هذا الأمر في وقت اختلَّ إيمان بعض المسلمين، واختلفت آراء الصَّحابة في قتالهم، ولم يتزلزل أبو بكر وصمَّم على قتالهم، ولم يزل على ذلك حتى ردهم إلى الإسلام، فكان قتال أبي بكر لهؤلاء بداية النهاية لملوك الفرس وغيرهم، وبداية للفتح الإسلامي الذي انبلج ليُخرج النَّاس من الظُّلمات إلى النُّور.

إنَّ فترة حكم أبي بكر الصّديق تختلف عن فترة حكم عمر بن الخطاب؛ ذلك أنَّ المتغيّرات في حكم أبي بكر تختلف عن المتغيّرات في حكم عمر بن الخطاب، فالمماثلة بين العصرين غير متحقّقة؛ ذلك أنَّ المتغيّرات في عهد أبي بكر لم تتحقّق في أي عصر من العصور التي جاءت بعده، فالذي وقع في أيام أبي بكر يعد من الأمور الكبار وهي، إنفاذ جيش أسامة وقتال أهل الرّدة، وما نعي الزّكاة، ومسيلمة الكذاب وغيره من مدّعي النّبوة.

أمَّا في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانت المتغيّرات أكثر شمولًا واتساعًا، فقد تجاوزت الرّقعة الجغرافيَّة التي تركها أبو بكر الصّديق، فكانت الفتوحات الإسلاميَّة التي صاحبها دخول متغيّرات مختلفة في الشَّأن العربي والإسلامي، ويقف على رأس الهرم من هذه المتغيّرات

---

[177] - صحيح مسلم ج 1 ص 38

الامتزاج الذي اتضحت معالمه في عنصرين مهمّين وهما: الثَّقافة والحضارة، هذه المتغيّرات غيّرت الصّورة التي كان عليها المجتمع العربي المسلم إلى صورة جديدة أكثر انفتاحًا على الآخر، حتى نجد أن من نتائج هذا الامتزاج مقتل الخليفة عمر بن الخطاب، فقد كان على يد فارسي وهو أبو لؤلؤة فيروز، ولم يكن بيد عربي، كما أنَّ مقتل الخليفة عمر بن الخطاب يمثّل صورة من صور الصِّراع الذي لم يتحقّق قبل ذلك، مما يفضي إلى فتح صفحة جديدة في تاريخ الدَّولة الإسلاميَّة يؤرخ فيها لبداية صراع ثقافي وحضاري.

ومن الجدير بالقول أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقب بأمير المؤمنين إلَّا أنَّه موضوعيًّا هو أقرب إلى أن يُطلق عليه لقب الخليفة بناءً على اختيار أبي بكر الصّديق بأن يكون خليفة له.

أمَّا خلافة ذي النُّورين عثمان بن عفَّان ففيها كثير من المتغيّرات، ومن أهم هذه المتغيّرات هو انفتاح الخليفة عثمان بن عفَّان على أقربائه فكان يقربهم إليه؛ إذ كان ينظر إلى الأمور من باب الأقربون أولى بالمعروف. مما نتج عن ذلك قبولا لدى بعض المسلمين ورفض لدى بعضهم الآخر الأمر الذي أحدث نوعًا من الخلاف الذي هيَّأ لحدوث انقسامات حادّة بين المسلمين بعد ذاك.

أمَّا زمن سيّدنا علي بن أبي طالب فكان زمنًا متعدّد التغيّرات في صورة مترامية الأطراف تنطق بحال الأمَّة الإسلاميَّة، فقد كانت البداية لصراع طويل ومرير بين أقطاب عدّة نظّرت لأفكار لم يتحقق فيها السَّند الشَّرعي الذي تركه رَسُول الله عليه الصَّلاة والسَّلام، ومن هذه الأقطاب

معاوية بن أبي سفيان والخوارج والشّيعة؛ فضلًا عن ذلك التعصّب الذي بدت بذوره بالنمو والظّهور على السَّطح.

وقد كانت خلافة علي بن أبي طالب تمثّل الباب الذي خرج منه كل التأويلات والانحرافات المختلفة التي مهدت لبداية مرحلة جديدة من مراحل الحكم الإسلامي في صورة لم يألفها المسلمون طوال السَّنوات التي أعقبت وفاة رَسُول الله عليه الصَّلاة والسَّلام.

ومع أنَّ لكلٍّ فترة من الفترات السَّابقة معطياتها الخاصَّة، وكل هذه الفترات كانت ضمن فترة زمنيَّة وجيزة، فما بالك بالمتغيّرات التي تدخل على السِّيادة أو السُّلطة أو الخلافة خلال فترة زمنية طويلة.

أمَّا في العصر الحديث فقد ظهر الصِّدام الحضاري والصِّراع بين الدِّول الكبرى والصّغرى، والصِّدام بين الدّول الكبرى من أجل التهام الدّول الصّغرى، وهذا الأمر استوجب مناهضة الاستعمار والوقوف بوجهه، ولهذا نجد أنَّ المعطيات أظهرت حكم الملك والطّاغية والأمير والرّئيس والزَّعيم والحزب الواحد والطَّائفية وحكم الأسرة، وعبر التَّاريخ لكلٍّ مبرَّراته.

ويظل الحقُّ باق لكلٍّ من يتعلَّق الأمر به، ولن ينتهي الصِّراع أو الصِّدام إلَّا إذا كان الأمر بين النَّاس شورى في كل ما يتعلّق بهم من أمرٍ.

ومِنَ العلماء العرب الذين كتبوا عن الخلافة ابن خلدون فهي عنده "نيابة عن صاحب الشَّريعة في حفظ الدِّين، وسياسة الدُّنيا به، تسمَّى خلافة وإمامة، والقائم به خليفة وإمامًا. فأمَّا تسميته إمامًا فتشبيهًا بإمام الصَّلاة في إتباعه والاقتداء به، ولهذا يقال: الإمامة الكبرى.

وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النّبي في أمّته، فيقال: خليفة بإطلاق، وخليفة رَسُول الله. واختلف في تسميته خليفة الله، فأجازه بعضهم اقتباسًا من الخلافة العامّة التي للآدميين في قوله تعالى: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}[178]، وقوله: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ}[179]، ومنع الجمهور منه، لأنَّ معنى الآية ليس عليه، وقد نهى أبو بكر عنه لما دعي به، وقال: " لست خليفة الله ولكنّي خليفة رَسُول الله صلّى الله عليه وسلّم "ولأنّ الاستخلاف إنما هو في حقِّ الغائب، وأمّا الحاضر فلا"[180].

فاستخدام مصطلح (خليفة) جاء خطأ، فالخليفة لا بدَّ أن يكون هناك من استخلفه، والرَّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام لم يستخلف أحدًا بعده باتفاق أغلب المسلمين؛ يقول تعالى:{وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ}[181]، هذه الآية الكريمة تبيّن أنَّ الاستخلاف كان من قبل موسى عليه الصَّلاة والسَّلام لأخيه، فلمَّا أراد موسى عليه الصَّلاة والسَّلام الذِّهاب إلى ميقات ربّه، استخلف أخاه هارون مكانه ليتولّى مهامّه في بني إسرائيل بالإصلاح وعمل الخير، وبعدم اتباع طريق المفسدين؛ لذا فإنَّ تسمية أبي بكر خليفة رَسُول الله مسألة فيها نظر لأنَّه لم يصح أنَّ رَسُول الله صلّى الله عليه وسلّم

---

[178] البقرة 30.

[179] الأنعام 165.

[180] – مقدمة ابن خلدون ج 1 ص 97.

[181] – الأعراف 142.

نصَّ على خلافتهُ فهو ليس خليفته وإنّما هو خليفة في الأرض بما تهيَّأ له من طاعة الله والقيام بأمر إعمار الأرض.

ففي أيِّ شيء يخلف الخليفة الرَّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام؟

هل يخلفه في الرِّسالة؟

أم يخلفه في المهمَّة؟

أم في أيِّ شيء يخلفه؟

وما الصّلاحيَّات التي يملكها؟

جاء الرَّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام مبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله تعالى؛ مصداقاً لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِي إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا}[182]، ومحرّضًا؛ يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِي حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ}[183]، فضلا عن ذلك أنَّ الرَّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام أسوةٌ حسنةٌ؛ يقول تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُول اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}[184]

وقبل البحث في هذه التساؤلات يمكن القول إنَّ الخلافة الإسلاميَّة هي نظام من الحكم يسير وفق نسق متحقّق من الكتاب والسُّنَّة؛ وذلك

---

[182] - الأحزاب 45 - 47

[183] - الأنفال 65

[184] - الأحزاب 21

ضمن قراءة متفحِّصة للنّصوص جميعها دون قطيعة مع أيِّ نص قد يتعارض مع النَّفس والهوى.

كما إنَّ وفاة الرَّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام أظهرت أمرًا مهمًّا ألا وهو بداية الخلاف الإسلامي؛ حيث كان المسلمون عند وفاة رَسُول الله على منهاج واحد في أصول الدِّين وفروعه غير من أظهر وفاقًا وأضمر نفاقًا وأوَّل خلاف وقع منهم اختلافهم في موت النَّبي عليه السَّلام فزعم قوم منهم أنَّه لم يمت وإنَّما أراد الله تعالى رفعه إليه كما رفع عيسى بن مريم إليه وزال هذا الخلاف، وأقرَّ الجميع بموته حين تلا عليهم أبو بكر الصّديق قول الله لرَسُوله عليه السَّلام (إنَّك ميَّت وإنَّهم ميّتون)، وقال لهم من كان يعبد محمَّدا فانَّ محمَّدا قد مات، ومن كان يعبد ربّ محمَّد فانَّه حي لا يموت، ثم اختلفوا بعد ذلك في موضع دفن النَّبي فأراد أهل مكَّة ردّه إلى مكَّة، لأنَّها مولده ومبعثه وقبلته وموضع نسله، وبها قبر جدّه إسماعيل عليه السَّلام وأراد أهل المدينة دفنه بها لأنَّها دار هجرته، ودار أنصاره، وقال آخرون بنقله إلى أرض القدس"[185]، وبعد هذا الخلاف تحقّق الاتفاق بالرّجوع إلى أقواله عليه الصَّلاة والسَّلام، قال أبو بكر الصّديق: سمعت رَسُول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقول: "ما قبض نبي إلَّا دفن حيث قبض، فرفع فراش رَسُول الله صلَّى الله عليه وسلَّم الذي توفي عليه، فحفر له تحته"[186].

---

[185] – الفرق بين الفرق ج 1 ص12

[186] – هذا النص جزء من حديث برقم 3234 رواه البيهقي في دلائل النبوة ج 8 ص 413

وبعد دفن رَسُول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عرفنا من خلال النَّص السَّابق أنَّ الأمَّة اجتمعت على أن يكون أبو بكر خليفة للمسلمين، وهنا نفتح آفاق البحث في الخلافة المتحقّقة ضمن نصّين يحيلان إلى رسم صورة الخلافة وفق انقطاع زمني متحقّق ألا وهو في حياة الرَّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام وبعد موته؛ النّصّ الأوَّل هو قوله تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}[187] من جملة ما ورد في سياق الآية الكريمة قوله تعالى: {وشاورهم في الأمر}؛ وذلك في الأمور "التي تحتاج إلى استشارة ونظر وفكر، فإنَّ في الاستشارة من الفوائد والمصالح الدينيَّة والدنيويَّة ما لا يمكن حصره:

منها: أنَّ المشاورة من العبادات المتقرَّب بها إلى الله.

ومنها: أنَّ فيها تسميحًا لخواطرهم، وإزالة لما يصير في القلوب عند الحوادث، فإنَّ من له الأمر على النَّاس -إذا جمع أهل الرَّأي: والفضل وشاورهم في حادثة من الحوادث- اطمأنت نفوسهم وأحبّوه، وعلموا أنَّه ليس بمستبد عليهم، وإنَّما ينظر إلى المصلحة الكلية العامَّة للجميع، فبذلوا جهدهم ومقدورهم في طاعته، لعلمهم بسعيه في مصالح العموم، بخلاف من ليس كذلك، فإنَّهم لا يكادون يحبُّونه محبَّة صادقة، ولا يطيعونه وإن أطاعوه فطاعة غير تامَّة.

---

[187] - أل عمران 159

ومنها: أنَّ في الاستشارة تنوّر الأفكار، بسبب إعمالها فيما وضعت له، فصار في ذلك زيادة للعقول.

ومنها: ما تنتجه الاستشارة من الرَّأي: المصيب، فإنَّ المشاور لا يكاد يخطئ في فعله، وإن أخطأ أو لم يتمّ له مطلوب، فليس بملوم، فإذا كان الله يقول لرَسُوله -صلَّى الله عليه وسلَّم- وهو أكمل النَّاس عقلًا وأغزرهم علما، وأفضلهم رأيا (وشاورهم في الأمر) فكيف بغيره؟!"[188].

أمَّا النَّصّ الثَّاني فهو قوله تعالى:{وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاة وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}[189]، وإذ كانت الشّورى مفضية إلى الرُّشد والصّواب فمن أفضل آثارها أنَّه اهتدى بسببها الأنصار إلى الإسلام؛ إذ أثنى الله بها على الإطلاق دون تقييد بالشّورى الخاصَّة التي تشاور بها الأنصار في الإيمان وأيُّ أمر أعظم من أمر الإيمان، فالشورى هنا تدخل في سياق الانفتاح غير المقيد على زمن بعينه، بل هي تتجاوز الحدود الزّمنية؛ لتبقى أداة مهمَّة من أدوات القوَّة الإسلاميَّة[190].

والرّبط الذي عمدناه بين أمر الشُّورى والخلافة هو اعتقادنا أنَّ الخلافة ليست بالمنصب الرَّسمي كما صُورت، إنَّما هي أمر تحقَّق وفق سياق أحال إليه القرآن الكريم؛ كي تستمر الرِّسالة الإسلاميَّة بالمنهاج الذي أراده الله تعالى. وعلى هذا فالخلافة تنفيذ ما جاء به الله تعالى لرَسُوله بعد انقطاع الوحي، وعلى هذا ينزل مصطلح الخلافة إلى مرتبة الخلافة البشريَّة

---

[188] - تفسير السعدي ج 1 ص 154

[189] - الشورى 38

[190] - التحرير والتنوير ج 13 ص 139

بوصف أبي بكر واحدًا منهم. فضلا عن ذلك أنَّ الأنبياء والرُّسُل استظلوا بمظلة الكمال، ومَنْ بعدهم استظلوا بالعلائق الاجتماعيَّة ونظم الدَّولة والصِّراع السّياسي.

والخلافة إنَّما يُعرف وجوبها بالشّرع لأنَّ أصحاب رَسُول الله عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر، وتسليم النّظر في أمورهم إليه، ثم استخلف أبو بكر الصِّدّيق عمر بن الخطاب رضي الله عنه. واستخلاف عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه من قبل أبي بكر الصّديق في ما يتعلّق بالحياة السياسيَّة والاجتماعيَّة للدّولة، يُعد استخلافًا من بشر لبشر، فلا يعدّ أمرًا مطلقًا مما يستوجب البيعة من قبل الذين يتعلّق الأمر بهم.

أمَّا عمر بن الخطاب فقد جعل الخلافة بعده شورى، فعَنْ مَعْدَانَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ خَطَبَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَذَكَرَ نَبِيَّ اللَّهِ –صلَّى الله عليه وسلَّم– وَذَكَرَ أَبَا بَكْرٍ قَالَ إِنِّى رَأَيْتُ كَأَنَّ دِيكًا نَقَرَنِى ثَلاَثَ نَقَرَاتٍ وَإِنِّى لاَ أُرَاهُ إِلاَّ حُضُورَ أَجَلِى وَإِنَّ أَقْوَامًا يَأْمُرُونَنِى أَنْ أَسْتَخْلِفَ وَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ لِيُضَيِّعَ دِينَهُ وَلاَ خِلاَفَتَهُ وَلاَ الَّذِى بَعَثَ بِهِ نَبِيَّهُ –صلَّى الله عليه وسلَّم–فَإِنْ عَجِلَ بِى أَمْرٌ فَالْخِلاَفَةُ شُورَى بَيْنَ هَؤُلاَءِ السِّتَّةِ الَّذِينَ تُوُفِّىَ رَسُول اللَّهِ–صلَّى الله عليه وسلَّم– وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ"[191].

إنَّ تحقّق الشّورى على عهد عمر بن الخطاب يعكس أمرًا مهما ألا وهو أنَّ المتغيّرات التي حصلت في عهده ساهمت بطريقة أو بأخرى

[191] – صحيح مسلم ج 2 ص 81

في تحقّق الشورى؛ ذلك أنَّها وجدت الأرض الخصبة، فالاستقرار والاطمئنان مهدًا لانَّ تتحقّق الشّورى[192].

وكذا في كل عصر بعد ذلك، ولم يُتْرك النَّاس فوضى في عصر من العصور، واستقر ذلك إجماعًا دالًا على وجوب تنصيب الخليفة، وقد ورد في القرآن والحديث كثير من النّصوص التي تدعو إلى طاعة أولي الأمر؛ من ذلك قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُول وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُول إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}[193]

وفي الحديث الشّريف عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُول اللَّهِ –صلَّى الله عليه وسلَّم– أَنَّهُ قَالَ "مَنْ أَطَاعَنِى فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ عَصَانِى فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِى فَقَدْ أَطَاعَنِى وَمَنْ عَصَى أَمِيرِى فَقَدْ عَصَانِى"[194].

وغير ذلك من الأحاديث التي وردت في هذا الصّدد، فالبيعة يجب أن تتحقّق حتى تتئد الفتنة، فيذهب شر كثير يبرأ منه العباد وتسير الدَّعوة الإسلاميَّة سيرًا يتناسب مع ما يراد منها، وهذا ما تحقّق جليًا في بيعة عثمان بن عفَّان رضي الله تعالى عنه.

وفي هذا السّياق نجد أنَّ الخليفة لم يترك دون شروط، بل وضعت له شروط تحدّد مهامه؛ إذ يشترط في الخليفة جملة شروط، كلّها تلتقي في تحقيق كفايته للنّهوض بأعباء هذا المنصب الخطير على الوجه المرضي لله تعالى والمحقق لمصلحة الأمة، وهذه الشروط هي:

---

192 – العواصم من القواسم ج 1 ص 74 – 75

193 – النساء 59

194 – صحيح مسلم ج 6 ص 13

أوَّلًا: أمينًا فهي صفة عظيمة لا بدَّ من تحقيقها؛ إذ يقول تعالى: {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ}[195]، هذه الآية ترسم صورة الذي يتولّى أمرُ النَّاس، فيحفظ ما يُستحفظ لديه، ويعلم بوجوه التصرّف فيه، فمن خلال ذلك يكون الخليفة ماضيًا في أحكام الله تعالى، وإقامّة الحقّ وبسط العدل.

ثانيًا: مؤمنًا بالأمر الذي أؤتمن عليه.

ثالثًا: أن يكون حكيمًا في التصرّف في الأمور العظيمة.

رابعًا: حريصًا على أموال النَّاس، فلا يبذر ولا يسرف ويعطي كل ذي حقّ حقه.

خامسًا: تقيًّا يخاف الله تعالى في القول والفعل؛ إذ يقول تعالى: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ).

سادسًا: محقًّا للحقِّ ومزهقًا للباطل.

سابعًا: قادرًا على أداء الواجب وممكّنا من أدائه.

ثامنًا: قادرًا على ممارسة الحقوق وممكّنًا من ممارستها.

تاسعًا: قادرًا على حمْل المسؤوليَّة وتحملها.

والقراءة المتمعنّة في التَّاريخ العربي قبل الإسلام وبعده تشير إلى أنَّ الإسلام رتب أمور الأمَّة الإسلاميَّة وفق صيغة واضحة يراد لها السّير ضمن نسق أوجده الإسلام، فلا يمكن أن تعود الأمور كما كانت قبل الإسلام ضمن تشكّل متفرق إلى قبائل متطاحنة متفرِّقة، فالحالة الإسلاميَّة حالة جديدة تلملم المتفرق، والبعيد وتنظمه بنظام يجمعهم وفق

[195] - يوسف 55

سياقات مختلفة تصب في إيجاد الصُّورة التي أريد لها أن تتحقّق ألا وهي التوحد الكامل تحت راية لا اله إلا الله محمَّد رَسُول الله، فنجد ذلك واضحًا في كل المشاهد التي كان يديرها رَسُول الله عليه الصَّلاة والسَّلام، من ذلك معركة بدر ومعركة أحد ومعركة الخندق، فضلًا عن ذلك صلح الحديبية الذي يعدّ صورة واضحة لنظرة المتبصر بإدارة الأمور بين النَّاس.

ولهذا فولاية الأمر، أمر لا بد من تحقيقه بعد وفاة رَسُول الله عليه الصَّلاة والسَّلام من أجل أن تستمر الدعوة الإسلاميَّة وتنتشر في مشارق الأرض ومغاربها، فهذه هي رسالة الإسلام التي لا بدَّ لها من التحقّق.

فالخلافة الرّاشدة يمكن القول عنها أنَّها كانت نسق ترابطي مطرد يجمع بين الصّفتين الدِّينية والسّياسة، فهي تهدف إلى حراسة الدِّين وسياسة الدُّنيا، ولهذا كان الخليفة إمامًا للمسلمين في صلاتهم وأميرًا لهم في جهادهم، ورئيسًا لهم في إدارتهم وشؤونهم، وبالجملة صاحب الولاية العامَّة عليهم، يجمع في شخصه كل السُّلطات، ويفوّض ما يشاء إلى من يشاء. كما يجمع في شخصه أيضًا صفات الحاكم المسلم العادل الذي يحكم بالشّورى ويستظل بأحكام القرآن وسنة النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام، ويرعى إدارة تلك النّفوس التي اختارته أو بايعته وسلَّمت له مصالحها العامَّة.

يُعدُّ الأنبياء والرُّسُل عليهم الصَّلاة والسَّلام من المستخلفين بأمر الله تعالى؛ إذ يقول تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ

وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[196]، وقوله تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاس بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}[197] بناء على ما جاء في هذه الآية الكريمة لا حكم إلَّا بين النَّاس؛ ولذا علينا أن نفرق بين (حكم النَّاس) وبين (الحكم بين النَّاس):

الأولى: أن يتم حكم النَّاس كما يشاء الحاكم.

والثَّانية: أن يتم الحكم بينهم كما هم يرتضون؛ مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاس أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ}[198]؛ ذلك لأنَّ العدل مرض لكل النَّاس، وهذه الآية الكريمة تؤكّد على أنّ الحكم بين النَّاس ولا تأتي بما يشير إلى حكمهم؛ ولذا فالذين يحكمون بين النَّاس بالعدل هم الخلفاء بارتضاء النَّاس الذين قال فيهم تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[199].

وعليه فالخليفة العادل هو الذي بحكمه العدل يصلح الأرض ولا يفسد فيها ولا يسفك دمًا بغير حقّ؛ ولهذا جاء قوله (وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاس)، ولم يقل (إذا حكمتم النَّاس)، فالحمد لله على استخلافه لنا في الأرض وأمره بالعدل بيننا.

---

196 - البقرة 30

197 - ص 26

198 النساء 58.

199 البقرة 30.

ولذا كان استخلاف داوود في الأرض ليحكم بين النَّاس بالحق (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاس بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى)، وقد يتساءل البعض: ما هي القاعدة التي أسَّس عليها حكم داوود واستخلافه في الأرض؟

أقول: العدل، وإلَّا هل هناك من يظن في غير ذلك؛ والله تعالى يقول: (فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاس بِالْحَقِّ)، وإلا هل هناك من يظن في أنَّ الحكم بين النَّاس بالحقِ لا عدل فيه؟

أقول: لا عدل إلَّا بالحق، أي لولا الحقّ ما كان للعدل وجود.

وقد يتساءل آخر: هل يمكن أن يكون الحكم بين النَّاس بغير عدل؟

أقول: في دائرة الممكن قد يتمّ الحكم بين النَّاس باتباع الهوى الذي نهى عنه الله تعالى في قوله (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى).

وقد يقول قائل: بما أنَّ الحكم بين النَّاس في دائرة الممكن قد يميل بالهوى كما يميل الحاكم للنَّاس، وإذا ما حدث ذلك فلا يكون الفرق بين (حكم النَّاس) وبين (الحكم بينهم).

أقول: الفرق كبير بين من يحكم النَّاس ومن يحكم بينهم، فالذي يحكم النَّاس يكون الأمر كل الأمر بيده، والذي يحكم بين النَّاس يكون الأمر كل الأمر بيد النَّاس؛ مصداقا لقوله تعالى: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[200].

وفي فترة الرِّسالة كان الأمر بين النَّاس مؤسّس على الشّورى، التي تعني فيما تعني: أخذ الرَّأي بعد تبيان الأمر واستيضاحه؛ مصداقا لقوله

[200] الشورى 38.

تعالى: {وشاوِرْهم في الأمر}[201]، وشاورهم كما يقول أبن منظور: "تعني استخرج آراءهم"[202] أمَّا الشيخ الشّعراوي فيقول: "فالمشورة هي تلقيح الرَّأي بآراء متعدِّدة"[203].

ولذلك يستوجب ممارسة الشّورى في الأمر. والأمر هو، كل ما يتعلّق بالإنسان من حقوق وواجبات ومسئوليَّات، سواء كان هذا الأمر سياسة داخليَّة أم خارجيَّة، أو كان هذا الأمر في حالة السّلم أو في حالة الحرب، وسواء كان اقتصادًا أو علاقات اجتماعيَّة؛ ولذلك في الآية السَّابقة يخاطب الله عزّ وجلّ رَسُوله الكريم ويلزمه بالمشاورة في الأمر، أي وكأنَّه يقول، في وجودك يا رَسُول الله لا ينبغي أن تقرّر أي شيء يتعلّق بالنَّاس نيابة عنهم، بل ما يتعلّق بهم من أمرٍ يجب أن تكون فيه في حالة شورى معهم؛ ولذلك جاءت الآية (وشاورهم في الأمر) موجّهة إلى رَسُول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لتبيِّن له أهميَّة المشاورة في الأمر مع الذين يتعلّق الأمر بهم.

وفي حالة ما لم يكن الرَّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام معهم يصبح الأمر بينهم شورى؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وأمْرُهُم شُورى بينهم}[204]. إذًا بكل وضوح إنَّ الأمر الذي يتعلّق بالنَّاس في فترة الرَّسُول صلَّى الله عليه وسلَّم كان في حالة شورى بين الرَّسُول والآخرين الذين يتعلّق الأمر بهم. أمَّا من بعده فيترك الأمر بين الذين يتعلّق بهم شورى يقرِّرون ما

---

201 . سورة آل عمران، الآية 159.

202 . تفسير الجلالين. بيروت: دار الفكر، ص 94.

203 . محمد متولي شعراوي، تفسير الشعراوي. القاهرة: أخبار اليوم، المجلد الثالث، ص 1840.

204 . سورة الشورى، الآية 38.

يشاءون فيه، وينفذونه كما يشاءون، ولهذا لا ينبغي أن يتقدَّم أحدٌ لينوب عن النَّاس فيما يتعلّق بهم من أمر، بل عليهم بمن يحكم بينهم بالعدل إذا ما اختلفوا في الأمر.

وكلمة (أمرُهُم)، تتكوّن من جزأين هما: (أمْرُ)، و(هُم)، فالأمر هو ما سبق تبيانه، أمَّا (هم) فجاءت مطلقة أيّ كل مَن هم على علاقة ارتباط مع الأمر، وهذا يعني لا وجود في الممارسة الدِّيمقراطيَّة بالمفهوم الفكري الإسلامي لأقليَّة وأغلبيَّة، بل الوجود للكل دون استثناء، وكلمة (بينهم) الظرفيَّة تعني، أنْ يقتصر أمر الشّورى على الذين يعنيهم الأمر فقط، ولا مكان لغير ذلك في المشاركة الدِّيمقراطيَّة، ولتأكيد هذا الاقتصار قال عزّ وجلَّ (بينهم)، ولم يقل بين (الحاكم والمحكومين)، أو بين السَّادة والعبيد، أو بين المسئول وغير المسئول.

وعليه: لا أمر يجمع النَّاس إلَّا وأن يكون بينهم؛ مصداقا لقوله تعالى: في آيات متعددات في سبع سور من القرآن الكريم هي:

1 ـ قال تعالى: {كَانَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ **بَيْنَ النَّاس** فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ}[205].

2 ـ قال تعالى: {وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا **بَيْنَ النَّاس**}[206].

[205] البقرة 213.

[206] البقرة 224.

3 . {وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا **بَيْنَ النَّاس** وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}[207].

4 . {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ **بَيْنَ النَّاس** أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ}[208].

5 . {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ **بَيْنَ النَّاس** بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ}[209].

6 . {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ **بَيْنَ النَّاس** وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}[210].

7 . {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ **بَيْنَ النَّاس** بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}[211].

وبناء على ما ورد في الآيات الكريمة السَّابقة فإنَّ الحكم بين المستخلفين فيها لا يكون إلَّا بين النَّاس فيما يجمعهم من أمر على قاعدتين:

1 . إحقاق الحقّ.

2 . إقامة العدل.

---

[207] آل عمران 140.

[208] النساء 58.

[209] النساء 105.

[210] النساء 114.

[211] ص، 26.

ولذلك أرسل الله تعالى أنبياءه إلى النَّاس يبشرون من أطاعه تعالى، بالخير وحسن الثَّواب، وينذرون بالعقاب والعذاب من خالف أوامره وكذَّب رسله؛ وذلك لكيلا يبقى لمعتذر عذر؛ إذ يقول تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}[212]. هذه هي المهمَّة التي حملها الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام، فهم متساوون في هذه المهمَّة، إلَّا أنَّهم ينقسمون على قسمين: فمنهم عبد رَسُول ومنهم نبي ملك، وقد خير الله سبحانه محمَّدا صلَّى الله عليه وسلَّم بين أن يكون عبدًا رَسُولًا وبين أن يكون نبيًّا ملكًا فاختار أن يكون عبدًا رَسُولًا، فالنَّبي الملك مثل داود وسليمان عليهما الصَّلاة والسَّلام؛ قال الله تعالى في قصّة سليمان الذي قال: {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ}[213] وسياق الآيات هنا يبيّن العطاء الذي يتمتّع به سليمان عليه الصَّلاة والسَّلام، فأعط من شئت واحرم من شئت لا حساب عليك، فالنَّبي الملك يفعل ما فرض الله عليه، ويترك ما حرم الله عليه، ويتصرَّف في الولاية والمال بما يحبّه ويختار من غير إثم عليه، وأمَّا العبد الرَّسُول فلا يعطي أحدًا إلَّا بأمر ربّه ولا يعطي من يشاء ويحرم من يشاء، بل يعطي من أمره ربَّه بإعطائه ويولي من أمره ربّه بتوليته

[212] - النساء 165.

[213] - ص 35 – 40.

فأعماله كلّها عبادات لله تعالى، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: "إني والله لا أعطي أحدًا ولا أمنع أحدًا إنَّما أنا قاسم أضع حيث أمرت"[214]، ولهذا يضيف الله الأموال الشرعيَّة إلى الله والرَّسُول كقوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُول فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[215]، وقوله تعالى: {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَسُول وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[216]، وقوله تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَسُول وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[217]

ولهذا كان أظهر أقوال العلماء أنَّ هذه الأموال تصرف فيما يحبَّه الله ورَسُوله، ويعد النَّبي يوسف عليه السَّلام من الأنبياء الملوك، فقد توجت نهاية حياته بمركز يتناسب مع المؤهلات التي وهبها الله تعالى له؛ إذ قال تعالى: {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ

[214] – صحيح البخاري، ج 3، ص 1134.
[215] – الأنفال 1.
[216] – الحشر 7.
[217] – الأنفال 41.

عَلِيمٌ}[218]؛ طلب الملك أن يكون يوسف عليه الصَّلاة والسَّلام خالصًا له، لا يشاركه فيه أحد، وهذا كناية عن شدَّة اتصاله به والعمل معه. وقد دلّ الملكَ على استحقاق يوسف عليه السَّلام تقريبَهُ منه ما ظهر من حكمته وعلمه، وصبره على تحمّل المشاق، وحُسن خُلقه، ونزاهته، فكلّ ذلك أوجب اصطفاءه. واقتراح يوسف عليه السَّلام ذلك إعداد لنفسه للقيام بمصالح النَّاس على سنة أهل الفضل والكمال من ارتياح نفوسهم للعمل في المصالح؛ ولذلك لم يسأل مالًا لنفسه، ولا عَرَضًا من متاع الدُّنيا، ولكنَّه سأل أن يوليه خزائن البلاد ليحفظ الأموال ويعدل في توزيعها ويرفق بالنَّاس في جمعهم وإبلاغهم لمحالّها [219].

إنَّ صورة النَّبي الملك المتحققة في الخليفة سليمان ويوسف عليهما الصَّلاة والسَّلام تتعلَّق بأمر الخلافة الذي نحن بصدده؛ ذلك أنَّ الأنبياء الملوك لم يستخلفوا أحدًا بعدهم، فهذه المقاربة لا تتقاطع مع أمر الخلافة الذي نعتقده بأنَّه ليس بالمنصب المتحقّق من استخلاف، وإنَّما يكون الاختيار والاصطفاء للأنبياء، والاختيار والشّورى لمن أطلق عليهم خلفاء بعد رَسُول الله محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام، فمصطلح الاستخلاف لم يتحقّق عند كلٍّ من الأنبياء الملوك، ولا لمن جاء بعد النَّبي محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام.

فالنَّبي سليمان ويوسف عليهما الصَّلاة والسَّلام لم يستخلفا أحدًا بعدهم، وهما في منصب الملك المتوقَّع منه أن يستخلف أحدًا بعده.

---

[218] - يوسف 54- 55.

[219] - التحرير والتنوير ج 7 ص 284.

أمَّا قوله تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاس بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}[220] لم يرد ذكر الخليفة في غير موضع آدم عليه الصَّلاة والسَّلام إلَّا في هذا الموضع، فالخطاب هنا كان مع النَّبي داود عليه الصَّلاة والسَّلام، وقبل استبطان الخطاب ومعرفة تشكيلاته المختلفة لا بد بداية من تحديد المقصود من لفظة (خليفة) في الآية الكريمة، فالخليفة "هو الذي يخلف غيره في عمل، أي يقوم مقامه فيه، فإن كان مع وجود المخلوف عنه قيل: هو خليفة فُلان، وإن كان بعدما مضى المخلوف قيل: هو خليفة مِن فلان. والمراد هنا: المعنى الأوَّل بقرينة قوله: (فاحكم بين النَّاس بالحقِّ) فالمعنى: أنَّه خليفة الله في إنفاذ شرائعه بين النَّاس المجعول لهم خليفة مما يوحي به إليه ومما سبق من الشريعة التي أوحي إليه العمل بها. وخليفةٌ عن موسى عليه السَّلام وعن أحبار بني إسرائيل الأولين المدعوين بالقُضاة، أو خليفة عمَّن تقدّمه في الملك وهو شاول"[221]. هذه الآراء المختلفة المتعلّقة بتوجيه معنى الخليفة في الآية كلّها تحيل إلى أمر واحد هو أنَّ الله تعالى هو الذي يستخلف الأنبياء بأنبياء غيرهم في الصّورة التي ذكرها تعالى في قوله: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}[222]، وإنْ ذهبت بعض التفاسير إلى تجاوز الاستخلاف إلى غير الأنبياء.

[220] - ص 26.

[221] - التحرير والتنوير ج 12 ص 215.

[222] - المؤمنون 44.

وعليه: أنَّ الخلافة لم تتحقّق من نبيّ إلى نبيّ، أي لم يستخلف أيّ نبيّ بعده نبيّ، فلم يرد في النَّصّ القرآني أيّ إشارة إلى هذا الأمر إنَّما جعل الله تعالى أمر الاستخلاف بيده مطلقًا.

أمَّا ذكر لفظة الخليفة مع داود عليه الصَّلاة والسَّلام، فإنَّنا نعتقد أنَّ السِّياق القرآني الذي ورد فيه لفظ (خليفة) يحيل إلى أنَّ أمر الخلافة ليس بالأمر الهيّن فبه تتعلّق أعظم الأمور ألا وهو الحكم بالعدل الذي لا بدَّ أن يتحقَّق من الخليفة، فانْ لم يتحقّق منه العدل لا تتحقّق معه رسالة السَّماء التي يؤمر بها، فيحدث التناقض الذي يزيد الظُّلم ويضعف الحقّ، ويفضي إلى وقوع الهرج والمرج في الخلق، ويتحقّق الهلاك والفساد في كل المجالات، وبذلك يخرج من دائرة الخلافة التي يُراد منها الإصلاح لا الإفساد.

وقد اشتمل القرآن الكريم على آيات عدّة تتحدّث عن المهاجرين والأنصار في صورة تتبين فيها القاعدة العظيمة التي تشكَّل منها الإسلام، فالمهاجرون والأنصار صورة الإسلام الأولى التي تجلَّت وحقَّقت ما يُراد منها بإخلاص وصدق وأمانة، ولهذا نجد أنَّ الله تعالى أثنى عليهم في كثير من المواضع؛ إذ يقول تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[223]؛ وقال تبارك وتعالى: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ

---

[223] - التوبة 100.

الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا}[224]؛ وقال تبارك وتعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ}[225]؛ وقال تبارك وتعالى: {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ}[226]؛ وقال وتعالى: {أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}[227]؛ وقال وتعالى: {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}[228]؛ وقال وتعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}[229]؛ وقال تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}[230]. سمحت نفوسهم رضي الله عنهم بالنَّفس والمال

---

[224] - الفتح 18.

[225] - الحجرات 3.

[226] - الزمر 18.

[227] - البقرة 157.

[228] - الفتح 26.

[229] - الفتح 4.

[230] - الفتح 29.

والولد والأهل والدَّار، ففارقوا الأوطان، وهاجروا الإخوان، وقتلوا الآباء والإخوان، وبذلوا النّفوس صابرين، وأنفقوا الأموال محتسبين، وناصبوا من ناوأهم متوكلين، فآثروا رضاء الله على الغنى، والغربة على الوطن. هم المهاجرون الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا وينصرون الله ورَسُوله، أولئك هم الصَّادقون حقًا، ثم إخوانهم من الأنصار، أهل المواساة والإيثار، أعز قبائل العرب جارًا، واتخذ الرَّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام دارهم أمنًا وقرارًا؛ يقول تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[231] فمن انطوت سريرته على محبّتهم ودان الله تعالى بتفضيلهم ومودَّتهم، وتبرأ ممن أضمر بغضهم، فهو الفائز بالمدح الذي مدحهم الله تعالى به فقال: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}[232]. فالصَّحابة رضي الله عنهم هم الذين تولى الله شرح صدورهم فأنزل السَّكينة على قلوبهم، وبشرهم برضوانه ورحمته؛ فقال: {يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ}[233]جعلهم خير أمَّة أخرجت للنَّاس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويطيعون الله ورَسُوله، فجعلهم مثلًا للكتابيين، لأهل التوراة والإنجيل، خير الأمم أمَّته وخير القرون قرنه، يرفع الله من أقدارهم؛ إذ أمر

---

[231] - الحشر 9.

[232] - الحشر 10.

[233] - التوبة 21.

الرَّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام بمشاورتهم لما علم من صدقهم وصحة إيمانهم وخالص مودَّتهم، ووفور عقلهم، ونبالة رأيهم، وصفاء نصيحتهم، وتبيّن أمانتهم رضي الله عنهم أجمعين[234].

من هنا نقول: إنَّ أمر الخلافة أمرٌ مفتوح، أي ليس محدّد على شخص بعينه، وهذا ما نلمس تحقّقه ضمن سياق التعريف الذي نطق به المهاجرون والأنصار في استدعاء النّصوص القرآنيَّة التي تشيد بهم وبسماتهم العظيمة.

فالأنبياء كان لبعضهم خلافة خاصَّة، الخلافة الخاصَّة فيها خاصَّة الخاصَّة كالنَّبي محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام فقد خصَّه الله برسالة عموم النَّاس (الكافَّة).

كما يمكن أن تكون الرِّسالة السّماوية برَسُولين، وهي في الوقت نفسه موجهة إلى أمَّة واحدة أو شعب واحد في زمن واحد، وهذا ما تحقّق في رسالة موسى وهارون؛ إذ يقول تعالى: {قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ والسَّلام عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى}[235]. أمَّا بالنّسبة إلى الخلافة فلا يتحقّق فيها هذا الأمر؛ فلم نسمع أنَّ خليفتين جلسا للخلافة مجتمعين في مجلس واحد وعلى كرسي واحد.

---

[234] – تثبيت الإمامة وترتيب الخلافة لأبي سعيد الاصبهاني ج 1 ص 1.

[235] – طه 45 – 47.

وعلى مدى أربعة عشر قرنًا من وفاة الرَّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام طرحت كثير من التساؤلات حول الخلافة والشّخصيَّات التي توالت عليها، والنسق الذي بدأ بابي بكر، ومن ثم عمر بن الخطاب ومن ثم عثمان بن عفَّان، ومن ثم علي بن أبي طالب، فقد يتساءل البعض:

لمَ لمْ تبدأ الخلافة بعلي بن أبي طالب ففي حقه كثير من الآيات والأحاديث النبويَّة التي رسمته رجلًا اجتمعت فيه كثير من الصِّفات التي تؤهِّله لان يكون خليفة للمسلمين، إذًا ما الذي دفعه أن يبايع أبا بكر الصّديق؟ ففي هذا الموقف يمكن القول أنَّ علم سيدنا علي بن أبي طالب عليه السَّلام ومعرفته الحقَّة لفضل أبي بكر الصِّدّيق رضي الله تعالى عنه لما توانى عن الوقوف بوجهه. وكلامنا في هذا السِّياق هو استدعاء لأقوال كثيرة تكرَّرت في البحث عن افتراضات لم يكن لها أن تتحقّق وفق أفكار جاءت متأخِّرة أرادت أن تقلب الحقائق المتحقّقة فيما تريد أن تحقّقه نظريًّا.

وهكذا نقول: لو أنَّ الرَّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام أوصى بالخلافة لأبي بكر الصّديق لجاز للبعض أن يصفه بخليفة رَسُول الله، وحينها تكون توصية أبي بكر باستخلاف عمر بن الخطاب من بعده صورة مكرّرة للخلافة؛ إذ يجوز أنَّ يقال لعمر بن الخطاب بأنّك خليفة خليفة رَسُول الله، ولكن الذي حدث أنَّ الرَّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام لم يسم بعده خليفة؛ لذلك لا يجوز أن يقال له خليفة رَسُول الله حتى وأن قبلنا بالمسمى الذي أطلق عليه بأنَّه خليفة رَسُول الله؛ إذ يقول تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاس بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ

عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}[236]، وقوله تعالى: {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ}[237]، وكان أبو بكر الصّديق يرفض لقب (خليفة الله) فعَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ قِيلَ لأَبِي بَكْرٍ يَا خَلِيفَةَ اللَّهِ؛ فَقَالَ أَنَا خَلِيفَةُ رَسُول اللَّهِ–صلَّى الله عليه وسلَّم– وَأَنَا رَاضٍ بِهِ وَأَنَا رَاضٍ بِهِ وَأَنَا رَاضٍ[238]. وفي خطاب المنادي لأبي بكر الصّديق (يا خليفة الله)، نحن نعتقد أنَّ المنادي مدرك لما يقول استنادًا على قوله تعالى: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) فضلًا عن ذلك أنَّه يرى في أبي بكر صفات الخليفة التي يريدها الله تعالى في الأرض، كما أنَّ سيدنا أبي بكر متيقّن أن لا خليفة لله تعالى مع أنَّه يرى من المستخلفين فيها، وأمره الآن يتعلَّق بما بعد رَسُول الله عليه الصَّلاة والسَّلام، فكيف يمكن أن يكون الاستخلاف من بعده؟ وعليه لقد وضّح أبو بكر مقصده في الحديث السَّابق (نحن الأمراء وأنتم الوزراء).

وهكذا كانت الخلافة الإسلاميَّة بكل تفاصيلها صورة معبّرة عن الواقع الذي تحقّق بعد وفاة الرَّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام، امتحان للأمَّة جمعاء، قادهم إلى التفكر والتّبصر والتأمُّل والاجتهاد، ولانعدام النَّص الذي يلغي كل اجتهاد، فالمراحل الأربع للخلافة الرَّاشدة صور مختلفة لتحقّق التأمير المراد على الأمَّة الإسلاميَّة، فكل صورة من صور التأمير

---

[236] – ص 26.

[237] – الأعراف 142.

[238] – مسند أحمد، ج 1، ص 63.

يرتسم فيها الواقع الذي انبثقت منه، وهذه الصّور هي حتميَّة التكرار إن تحقّقت فيها الدّوافع الحقيقية لبناء دولة الإسلام التي يريدها الله تعالى ورَسُوله الكريم عليه الصَّلاة والسَّلام.

بناءً على ما تقدَّم أقول:

أوَّلا: لا يخلف الرَّسُول إلا رَسُولا.

ثانيًا: لا يخلف النَّبي إلا نبيًّا.

ثالثًا: لا رَسُول ولا نبيّ إلَّا واصطفاه الله تعالى.

رابعًا: لا رَسُول إلَّا برسالة من عند الله.

خامسًا: لا نبيًّا إلَّا بنبأ من عند الله.

سادسًا: من يصطفيه الله يسمّى رَسُولا أو نبيًّا أو الاثنين معًا، ومن يصطفيه النَّاس لا يسمى ولا يلقب ولا ينادي بذلك؛ حيث لا شريك له في الملك فهو الذي يؤتي النبوّة والحكم لمن يشاء؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}[239]؛ وقال تعالى: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[240]، وقال تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ}[241]، وقال تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ

[239] البقرة 105.

[240] البقرة 247.

[241] آل عمران 179.

الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[242].

وعليه أقول:

من يقول عن أبي بكر رضي الله عنه أنَّه خليفة رَسُول الله فقد أخطأ للأسباب السّتّة السَّابقة الذّكر.

ابوبكر الصّديق هو صحب رَسُول الله؛ مصداقًا لقوله تعالى: {ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا}[243]؛ ولذلك فالفرق كبير بين من يصطفيه الله تعالى وبين من تختاره النَّاس، فالرَّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام اصطفاه الله جلَّ جلاله ليبلغ الرَّسالة التي اصطفاه من أجلها للنَّاس كافَّة، وابوبكر اختاره بعض من النَّاس لإدارة شؤونهم؛ ولذا لا مجال للمقارنة ولا يجوز القول أنَّ للرَسُول الكريم خليفة؛ ولذا فأمر الرَّسُل أمر إلهي ترتبط فيه السَّماوات والأرضون بعلاقات يكون الرَّسُل والأنبياء خير منذرين ومبشّرين ومحرضين عليها؛ ولذا فهم الفاعلون للخيرات والأفعال الحسان وهم الوارثون والمستخلفون في الأرض من الله تعالى.

الرَّسُول لا يخلفه إلَّا رَسُولًا من عند الله نوح وإدريس وإبراهيم ويعقوب وشعيب وموسى وهارون وعيسى ومحمَّد خلفاء في الأرض لكلٍّ منهم رسالة أو نبأ عظيم، وغيرهم من الرُّسُل السَّابقين على محمَّد الخاتم كثر، منهم من أقصصه الله علينا ومنهم من لم يقصص: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا

---

[242] آل عمران 26.

[243] التوبة 40.

رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُول أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ}[244]، ونحن المسلمون نصلّي ونسلّم عليهم ولا نفرّق بين أحدٍ من رُسُله؛ تصديق لقوله تعالى: {لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}[245].

ابوبكر رضي الله عنه صاحب رَسُول الله وهو الصّديق معه وله، وهو خير من اختير لإدارة الأمور في البلاد من بعد رَسُول الله صلوات الله وسلامه عليه. ونحن لا اعتراض لنا على المسمى (الخليفة) ولكن لنا اعتراض على أن يكون أحدًا خليفة لرَسُول الله، ولهذا قلنا الرَّسُول لا يخلفه إلا رَسُول من بعده، ولأنَّ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم خاتم الأنبياء والمرسلين فلا رَسُول من بعده ولا أحدًا يأتي من بعده ليقوم مقامه، ولكن من أتى من بعده هم الذين تم اختيارهم لإدارة شؤون البلاد، ممَّا يجعل رسالاتهم دنيويَّة حتى وإن كانوا من الطَّائعين ولا تقارن بالرِّسالات السّماوية التي يصطفى لها المرسلون صلوات الله وسلامه عليهم.

الرُّسُل صلوات الله عليهم لا يدعون إلَّا لأمرٍ من الله تعالى، والذين من غيرهم وإن التزموا وهم مؤمنون بما أمر الله تعالى أن يقال أو يفعل فهم يحكمون بما يروا مجتهدين في إدارة شؤون العباد، الذين لا يستوون في مطالبهم ورؤاهم وحاجاتهم وعاداتهم وانتماءاتهم وأعرافهم ومعتقداتهم ومطامحهم، التي تتباين من مجتمع لمجتمع، ومن شعب لآخر، مما يجعل الحكم بين النَّاس يستوجب العدل؛ ليكون الجميع أمام القوانين والدَّساتير

---

[244] غافر 78.

[245] البقرة 136.

الوضعيَّة والنُّظم التي تؤسّس الدَّول عليها. ونحن المسلمون حتى لا تكون الفرقة والفتنة فلنا في رَسُول الله الأسوة الحسنة؛ قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}[246]، وهكذا كلّ من يتّبع الرَّسُل من قبله كانت لهم ولنا الأسوة الحسنة في إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام والذين معه: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ}[247]. وعلى الرُّغم من وجود الأسوة الحسنة إلَّا أنَّ العصاة هم الكثرة؛ مصداقًا لقوله تعالى: {أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}[248].

{أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}[249].

{أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ}[250].

{أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ}[251].

{أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ}[252].

{أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[253].

{أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ}[254].

{فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ}[255].

---

[246] الأحزاب 21.

[247] الممتحنة 4.

[248] البقرة 100.

[249] الأنعام 37.

[250] الأنعام 111.

[251] الأعراف 102.

[252] يونس 60.

[253] العنكبوت 63.

[254] الروم 42.

[255] فصلت 4.

ولذا فالأسوة الحسنة مثال يقتدى به في القول والفعل والعمل، ولهذا فخير خليفة هو مَن آمن بالله والرُسُلُ ولا يفرّق بين أحدٍ منهم، ويصلح في الأرض ويعمّر فيها ولا يُفسد شيء منها، ولا يسفك دمًا بغير حقٍّ، وإذا حكم بين النَّاس يحكم بالعدل، ولا يتّبع إلَّا الحق.

الخِلافُ على الاستخلافِ:

نحاول أن نجيب على تساؤلات تعرض لذهن المتتبع لهذا النَّوع من البحث الذي ليس له من مصدر غير النَّص القرآني والحديث النَّبوي الشَّريف، فالنّصُّ القرآني يحدّد الفترة الزَّمنية في أسبقيَّة الجنّ على الإنس في قضيّة الخَلق، ومن خلال سياق النّصوص في التقديم والتأخير من خلال سرد القصص القرآني بحيث نستطيع أن نقف على إجابات استنتاجيّه في عمليّة الاستقراء.

ولا نقصد أسبقيّة من ذكر قبل الآخر في ترتيب سور القرآن الكريم؛ ذلك أنَّ قضيَّة خلق الجنّ والإنس التي تحدّث عنها القرآن الكريم جاءت موزعة على عدّة سور، وإنَّما الأسبقيَّة في سياق النّصّ نفسه الذي تدلّ عليه بنية الحدث وتسلسله بشكل منطقي يجعل المتتبع يصدر حكمًا قائمًا على الأدلة من خلال الوقوف على لحظة الخلق وبدء الصِّرّاع ونمو الحدث؛ وبعد ذلك امتداداته وتفرّعاته.

إنَّ معظم النّصوص القرآنيَّة التي تحدثت عن هذا الجانب تشير إلى أنَّ الجنّ خلقت قبل الإنس، منها ما هو قطعي الدّلالة في الوضوح مثل:

قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ}[256].

وقوله تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}[257]

ومنها ما تكون دلالته استنتاجيّة في تقديم السّابق على اللاحق مثل:

قوله تعالى: {يَا مَعْشَرَ الجنّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ}[258].

وقوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الجنّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}[259].

وما اجتمع ذكر الإنس والجنّ في آية إلّا تمّ تقديم الجنّ على الإنس دلالة على أسبقيتهم في الخلق سوى آية واحدة لا يُحتمل فيها تقديم الجنّ على الإنس، لاختلاف الموضوع وتحديد الزّمان من خلال المكان، فالمكان هو الأرض، والزّمان بعد بعثة محمّد عليه الصّلاة والسّلام؛ وذلك في:

قوله تعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الجنّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا}[260].

---

[256] - الحجر 26-27.

[257] - ص 71- 74.

[258] - الرحمن 33.

[259] - الذاريات 56.

[260] - الجن 6.

وعليه فالجنّ والإنس نوعان مختلفان من الخلق، لكل منها أصله الذي ينسب إليه ومادَّته التي خُلق منها.

فهل هذا الاختلاف أدى إلى التصادم والصِّراع؟

أم إنه حسد من الجنّ للإنس؟

أم كلاهما معًا؟

إنَّ إبليس هو من الجنّ بدليل قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجنّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا}[261]. ومع ما ذكر المفسرون والعلماء من شمول إبليس في السّجود مع الملائكة تكريمًا لآدم عليه الصَّلاة والسَّلام على أنَّه من منهم أو أنَّه طاووس الملائكة، فلنا في ذلك رأي مغاير قائم على الأدلة والحجج المنطقية؛ بأنَّه ليس من الملائكة في شيء لما يأتي:

1 . اختلاف مادّة الخلق بين الجنّ والإنس والملائكة، والأدلة والنّصوص في كتاب الله تعالى، وفي الأحاديث النبويَّة الشَّريفة على ذلك أشهر من أن تذكر؛ ولذلك يخرج إبليس منهم.

2 . قوله تعالى (تتخذونه وذرّيته) فهو له ذرية ويتناسلون، بينما الملائكة خلقوا فرادى لا يتكاثرون إلَّا بالخلق بفعل (كن فيكون).

3 . الملائكة خلقوا للعبادة والطَّاعة لا يعصون الله ما أمرهم، والجنّ والإنس منهم الذين يستكبرون ويعصون، ولأنَّ إبليس ليس من الملائكة فقد عصى أمر ربّه.

---

[261] – الكهف 50.

إنَّ مادة خَلق الجنّ والإنس مختلفة عن أجناس الخلق الأخرى، فقد خلق الجنّ من نار السّموم، ومن مارج من نار؛ قال تعالى: {وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ}[262].

وآدم عليه الصَّلاة والسَّلام هو أبو الإنس وهم بنوه؛ قال تعالى: {يَا بَنِي آَدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآَتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ}[263].

وقوله تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ}[264].

وبناءً على ما تقدَّم فإنَّ خلْق الملائكة والجنّ والإنس، كلّ واحد من هذه الأجناس من مادّة مختلفة عن الجنّس الآخر.

مصدرُ مادّة خَلق الإنس:

لقد خلق الله تعالى آدم عليه الصَّلاة والسَّلام ليكون خليفة في الأرض ويعمّرها هو وذرّيته ويخلف بعضهم بعضًا في إصلاحها وعمرانها.

فكيف خُلق آدم وممَّ خُلق؟

لقد أخبر الله تعالى ملائكته أنَّه سيخلق بشرًا من طين، وأمرهم إذا سوّاه ونفخ فيه من روحه أن يقعوا له ساجدين، سجود تكريم لآدم وسجود عبادة لله؛ قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا

---

262 - الرحمن 15.

263 - الأعراف 26.

264 - الإسراء 70.

مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}[265]

سوّى الله تعالى آدم من طين من حمأ مسنون، والتسوية هي الإقامة على أحسن وجهٍ وأتمهِ، حتى إذا صار ذلك الطِّين صلصالًا كالفخّار نفخ فيه من روحه، فإذا هو إنسان حي تام. فسجد له الملائكة كلهم أجمعون، إلَّا إبليس كان من الجنّ فعصى أمر ربّه، ولم يسجد لآدم استعلاءً واستكبارًا.

وقد أعلم الله الملائكة أنَّ هذا البشر الذي خلقه سيجعله في الأرض خليفة؛ قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}[266]، ويكون له سلطان عليها. فيتصرف في مواردها ليجعلها ملائمة لحاجاته، ويكون له فيها ذرّية من نسله، يخلف بعضهم بعضًا. فسأل الملائكة ربهم عزّ وجلّ سؤال استغراب مع العبوديَّة والخضوع، وسؤال استفهام واستعلام؟ حيث قال تعالى: {قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[267].

وبناء على سؤال الملائكة الاستفهامي أراد الله سبحانه وتعالى أن يبيّن لهم بعض ما لا يعلمون من حكمته في خلق آدم، فعلّمه أسماء الأشياء، وطلب من الملائكة أن ينبّئوه، فلم يعرفوا؛ وذلك في قوله تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ

---

[265] - الحجر 28-29.

[266] - البقرة 30.

[267] - البقرة 30.

هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}[268].

وعلى ذلك فإنَّ آدم عليه الصَّلاة والسَّلام خُلق من تراب.

ولكن أيّ تراب خُلق منه؟

هل هو تراب الأرض؟

أم هل من الجنّة؟

إنَّ جميع الآيات القرآنية التي ذكرت دلائل الخلق على أنَّه من تراب، لم تحدد نوعية هذا التراب ولا مصدره، وجميع الآيات جاءت مسبوقة ب(مِن) التبعيضيَّة يليها كلمة (تراب) نكرة غير معرّفة سواء ما كان منها له دلالة على خلق الإنسان من التّراب، أم جاءت مثلًا من أمثال القرآن الكريم. فالآيات التي لها دلالة على خلق الإنسان من التّراب، آية واحدة نصت على آدم عليه الصَّلاة والسَّلام وهي:

. قوله تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[269]

وبقية الآيات تتكلّم عن أصل مادّة خلق الإنسان بشكل عام منها:

. قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاس إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ}[270]

---

[268] - البقرة 31-32.

[269] - آل عمران 59.

[270] - الحج 5.

. وقوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ}[271]

. وقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا}[272]

وآية واحدة ذكر فيها التراب لضرب المثل وهي:

قوله تعالى: {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا}[273]

إنَّ جميع الآيات التي ذكرت التّراب مصدرًا لخلق الإنسان أوردته بصيغة النّكرة، والتنكير في اللغة له معانٍ كثيرة منها:

1 . النكرة ما دلّ على شيئين فأكثر.

2 . كلمة تراب جاءت كلّها نكرة غير موصوفة، ولا معرّفة بالإضافة، وهو زيادة في العموم.

3 . النكرة تدلُّ على التعظيم والكثرة.

4 . النكرة تدلُّ على التحقير والاستهانة.

5 . النكرة تدلُّ على معنى الجنّس.

6 . النكرات بعضها أنكر من بعض[274].

فليس هناك تخصيص لتراب معين نستطيع أن نأخذ منه دلالة على أنَّ آدم عليه الصَّلاة والسَّلام كان قد خُلق منه، غير أنَّ التنكير الذي

---

[271] – الروم 20.

[272] – غافر 67.

[273] – البقرة 264.

[274] – المقتضب ج1، ص 261.

يعطي معنى شمول الجنّس أنَّه وحّد التراب وجعله لا يختلف عن بعضه سواء أكان تراب الأرض أم الجنّة، وعليه يمكن أن نقول إنَّ التراب هو نفسه، ونستدل على ذلك من قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[275]. فمادة التراب تعود إلى أصل واحدٍ عندما كانت رتقًا قبل الفتق، فإن كانت القوانين الفيزيائيَّة لا تساعد الإنسان في العيش على تراب القمر أو تراب المرّيخ، فهذا لا يعني بأيِّ حال أنَّ اختلاف التّراب هو المانع، أو أنَّ المريخ لارتفاع نسبة الحديد في تربته تحول دون ذلك، لأنَّ من تراب الأرض ما يحوي من المعادن والأملاح بشكل يختلف من بقعة إلى بقعة أخرى.

ولذا فالأجسام الخالية من الحياة المعهودة لنا في الإنسان والحيوان والنبات، تتأثر بالعوامل الكيميائيَّة في الحياة الدُّنيا على الأرض مثل التفاعل والأحماض والتركيب، في حال توافر العوامل الفيزيائيَّة؛ مثل الضوء والسّرعة والإشعاع والضّغط الجوي والقوّة والجاذبيَّة، وعليه فإنَّنا نرى التّراب ترابًا أينما وُجد لاتحاده في المصدر(الرّتق) وعدم تأثره كما تتأثّر الأحياء، ودليلنا فيما ذهبنا إليه قوله تعالى: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}[276]. وجاءت الأرض معرفة للذين يعرفون الأرض علمًا أنَّ الآية تتكلّم عن الجنّة بعد يوم القيامة، "يريدون المكان الذي استقروا فيه فإن كانت أرض الآخرة التي يمشي عليها تسمى أرضًا حقيقة فذاك، وإلّا

[275] - الأنبياء 30.

[276] - الزمر 74.

فإطلاقهم الأرض على ذلك من باب الاستعارة تشبيهًا له بأرض الدُّنيا"[277]، والأرض التي يعرفونها تكون قد انتهت، وهذا يعني أنَّه لا خلاف ولا تغاير بين أرض الدّنيا وأرض الجنّة إلَّا بما جعل الله بأرض الجنّة من نعيم.

وأمَّا الآية الوحيدة التي جاء بها التّراب معرّفاً في قوله تعالى: {أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}[278]؛ فهذا التُّراب هو تراب الأرض بعينه، لأنَّه لا سبيل إلى تراب غير تراب الأرض؛ كي يدسّه فيه.

وأمَّا قوله تعالى: {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى}[279]. فالأمر مختلف هنا لسببين:

الأوَّل: أنَّ الخطاب في هذه الآية موجّه للفرع (الذرّيَّة) وليس للأصل(آدم عليه الصَّلاة والسَّلام) بدليل ما سبقها في الآيتين اللتين قبلها وهو قوله تعالى: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى}[280] وعليه فمصدر الخلق والتكوين للذرّيَّة هو الأرض بالغذاء والطَّعام والشَّراب الذي بسببه كان لهم القدرة على التناسل والتكاثر.

---

[277] - تفسير الألوسي ج 18، ص 32.

[278] - النحل 59.

[279] - طه 55.

[280] - طه 53- 54.

الثَّاني: الذي يعزّز ما ذهبنا إليه حديث رَسُول الله صلَّى الله عليه وسلّم: "ما من مولود إلّا وقد ذرّ عليه من تراب حفرته"[281]. وحفرته هي التي يدفن فيها أو المكان الذي يَبلى فيه لمن لا يدفن، وبهذا نستنتج أنَّ خَلق الأصل من تراب وخَلق الذرّيَّة من الأرض التي كانت مصدر الطّعام والشّراب في إيجاد القدرة على التناسل.

وعلى ما تقدَّم نقول: إنَّ عدم علمنا من أيّ تراب خُلق آدم عليه الصَّلاة والسَّلام، واستئثار الله تعالى بذلك، نراه زيادة أخرى في تكريم الإنسان وتشريفه على بقيَّة خلقه، لأنَّ الخلق على نوعين:

1. خَلق بالقول وهو عام في جميع الخلق باستثناء آدم: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[282]

2. خلق بالفعل وهو خاصّ في آدم ولم يدخل فيه أيّ مخلوق آخر سواه، قال تعالى {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ}[283].

إنَّ مخلوق الفعل (الخلق باليد) فيه من الجهد والقوَّة والقدرة والعناية . غير أنَّ المراد هو التكريم لهذا المخلوق والاهتمام به لاختلافه عن جميع المخلوقات الحيَّة لما أودع الله تعالى فيه من المشاعر والأحاسيس والعقل المميّز ليُحسن الاختيار.

وخلق الإنسان من التراب، فيه من الدّلالة ما تتجلّى به قدرة الخالق بأنْ خلق أعظم مخلوقاته (الإنسان) من هذه المادَّة (تراب).

---

281 - حلية الأولياء ج2، ص 280.

282 - النحل 40.

283 - ص 75.

ولذا فإنَّ علاقة الإنسان بالتراب علاقة حميمة، وعلاقة أمومة، فهو خلق منها ودرج في أكنافها وترعرع على ظهرها، وتكون له ستراً بعد موته عندما يحتضنه التراب؛ وبذلك يعود إلى أصله وحضن أمّه الأولى.

خَلقُ الجنِّ:

في صريح النّصوص القرآنيَّة أنَّ الجان مخلوق من النَّار؛ قال تعالى: {وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ}[284]. إنَّ أصل مادّة خلق الجان تختلف عن مادّة خلق الإنسان وعن مادّة خلق الملائكة، وكما أنَّ آدم عليه الصَّلاة والسَّلام هو أبو البشر من تراب، كذلك إبليس هو من الجنّ، وقد خلقه الله تعالى من النَّار وهو جنس مغاير للإنسان والملائكة من حيث المادَّة والصّورة والتشكّل والقدرة، ودليل أنَّه جنس آخر لا ينتمي إلى الملائكة كما يذهب البعض هو؛ قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجنّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ}[285] فقد كان من الجنّ ولم يكن من الملائكة، لأنَّ الملائكة مأمورون مسخَّرون، ولأنَّ إبليس يختلف في صفاته الخَلْقيَّة والخُلُقيَّة عن الملائكة فقد عصى أمر ربه.

ومن الصّفات الخَلقيّة للجنّ:

1- أنَّ الله تعالى خلقهم من النَّار؛ قال تعالى: {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}[286].

---

[284] - الحجر 27.

[285] - الكهف 50.

[286] - الأعراف 12.

2- أنَّهم يتشكَّلون ويُرون، منهم من يتشكّلون في صور مختلفة، كما دلَّت على ذلك الأحاديث النبويَّة، فإذا تشكَّلوا أمكن رؤيتهم، قال رَسُول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "إنَّ عفريتا من الجنّ جعل يفتك عليّ البارحة ليقطع عليّ الصَّلاة وإنَّ الله أمكنني منه فذعته فلقد هممت أن أربطه إلى جنب سارية من سواري المسجد، حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون . أو كلكم . ثم ذكرت قول أخي سليمان ربِّ اغفر لي وهب لي ملكًا لا ينبغي لأحد من بعدي؛ فرده الله خاسئًا"[287].

3 – الجنّ يتكاثرون ويتناسلون ولهم ذرّيَّة؛ قال تعالى: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا}[288]. وقال تعالى: {فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ}[289] .

وأمَّا الصِّفات الخُلقيَّة فمنها:

1 . منهم المسلمون الرَّاشدون؛ قال تعالى: {وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا}[290].

2 . ومنهم الصَّالحون؛ قال تعالى: {وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا}[291].

3 . منهم السُّفهاء؛ قال تعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا}[292].

---

[287] – صحيح مسلم ج3، ص478.

[288] – الكهف 50.

[289] – الرحمن 56.

[290] – الجن 14.

[291] – الجن 11.

[292] – الجن 4.

4 . منهم الرَّجيم؛ قال تعالى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}[293]. وسُمي الشّيطان بذلك لأنَّه عصى الله برفضه السّجود لآدم، فطرده الله من رحمته.

5 . منهم المارد؛ قال تعالى: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ}[294]. ويُطلق هذا الوصف على جنس الشّياطين، لأنَّهم متمرِّدون على طاعة الله والامتثال لأوامره.

6 . الوسواس الخنَّاس؛ قال تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاس مَلِكِ النَّاس إِلَهِ النَّاس مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاس مِنَ الجنّةِ وَالنَّاس}[295]. وسُمي الشّيطان بذلك لأنَّه يوسوس للإنسان بالشر، ويخنس عند ذكْر الله سبحانه وتعالى.

وعلى هذا يتبيّن لنا أنَّ كثيرًا من الصِّفات الخَلْقيَّة والخُلُقيَّة هي مشتركة بين الإنس والجنّ؛ ولذلك لا بدّ من التصادم ووقوع الصِّراع بين هذين النّوعين من الخلق في حال عدم الإيمان بالله تعالى.

فالإنسان مخلوق عاقل مفكر؛ وكذلك الجنّ، وإن كنّا لا نعلم الكثير عن حياتها وعقلها، إنَّما الذي يثبت أنَّهم عقلاء مفكّرون أنَّه ينتابهم الحسد فقد جاء على لسان إبليس قوله تعالى: {قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا}[296].

---

[293] – النحل 98.

[294] – الصافات 6– 7.

[295] – الناس 1– 6.

[296] – الإسراء 62.

وكذلك فهم يحسنون الاختيار دلالة على رجاحة عقولهم؛ قال تعالى : {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا}[297] فقالوا (لن) التي تنفي المستقبل، ولم يقولوا (لم) المختصَّة بنفي الماضي، وأمَّا الملائكة فهم يعلمون ما من الخلق الذي خلقه الله تعالى وجعلهم في الأرض قبل أن يخلق آدم عليه الصَّلاة والسَّلام؛ قال تعالى: { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[298]. فهذا الجواب قائم على علم من تجربة سابقة قبل خلق آدم أنَّ خلقًا من خَلق الله العاقل المميَّز كان في الأرض فأفسدها بالقتل وسفك الدِّماء بغير حقٍّ.

أمَّا نوعية الخلق فلا نستطيع أن نعطي صورة كاملة عن ذلك الخلق الذي كان يفسد فيها ويسفك الدِّماء من حيث الشكل والتكوين، وهل أنَّهم مخلوقات شفَّافة أم مخلوقات مادّيَّة، وما الأصل الذي خلقوا منه. ولكن كونهم عقلاء مميَّزون فهذا ظاهر من حوار الملائكة وجوابها الاستغرابي أنَّهم عقلاء بدليل قولهم (مَن) التي لا تستعمل إلَّا للعاقل، على عكس (ما) التي تشمل العقلاء وغيرهم؛ مثل قوله تعالى:{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[299]، وكذلك قوله تعالى: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ

---

[297] - الجن 1- 2.

[298] - البقرة 30.

[299] - الحشر 1.

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[300]؛ حيث شملت (ما) العقلاء وغيرهم، لأنَّه ما من شيء إلَّا يسبِّح بحمده تعالى، أمَّا (مَن) فهي دليل قاطع على أنَّهم خَلق من العقلاء المميّزين؛ حيث أنَّ (مَن) لا تستعمل إلَّا في خطاب العاقل؛ قال تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً}[301]، وكذلك قوله تعالى: {مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآَتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[302]. ولولا ذلك لم تستغرب الملائكة وعليه:

1. فالإنسان مخلوق عاقل مميَّز مكلّف بالخلافة.
2. الجنّ مخلوق عاقل مميز مكلّف، ولكنَّه ليس بالخليفة.
3. الملائكة مخلوقات مأمورة مسخَّرة، وليسوا بالخليفة.

حواراتُ ما قبل الخليفة:

لقد أعلم الله تعالى ملائكته أنَّه سيجعل في الأرض خليفة؛ قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[303].

هذا الإعلام يطرح تساؤلات عديدة بالنّسبة إلينا نحن المخلوقون. وكذلك إجابة الملائكة فيها من التساؤلات ما يستوقف المتأمل لهذه الآية.

هل الله تعالى أعلم الملائكة بخلق آخر قبل أن يخلقه غير الخليفة؟

---

[300] – التغابن 1.

[301] – البقرة 245.

[302] – العنكبوت 5.

[303] – البقرة 30.

هل الله تعالى بحاجة لإعلامهم؟

لماذا استغربت الملائكة خَلق آدم واتَّهمته بالإفساد وسفك الدِّماء قبل أنْ يُخلق؟

. **التساؤل الأوَّل**: فما وجدنا في القرآن الكريم ما يدلُّ على أنَّ الله تعالى أعلم الملائكة أو غيرهم من خلقه أنَّه سيخلق شيئًا سوى خَلق آدم عليه الصَّلاة والسَّلام، وأمَّا ما ورد من بشارات الخلق فهي كثيرة:

بشرى إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام في قوله تعالى: {رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصالحين فبشرناه بِغُلَامٍ حَلِيمٍ}[304].

بشرى زكريا عليه الصَّلاة والسَّلام في قوله تعالى: {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا}[305].

بشرى مريم عليها السَّلام في قوله تعالى: {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}[306].

فهذه البشارات لم تكن من باب إعلام أحد من خلقه بما سيخلق قبل أن يخلقه لسببين:

الأوَّل: أن هذه البشارات ومثيلاتها هي فرع من الأصل لقوله تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ}[307]. فهذه البشارات هي فرع من الخلق الأول.

---

304 – الصافات 100– 101.

305 – مريم 7.

306 – آل عمران 45.

307 – ص 17.

الثَّاني: أنَّ هذه البشارات لم تكن إعلامًا بخلق غير معروف وغير معلوم لقوله تعالى: {وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[308] . فقد ذكر تعالى قبل هذه الآية خَلق الأنعام والخيل والبغال والحمير وخّلق الزّينة، فكل هذه المخلوقات معروفة معلومة، ثم قال:(ما لا تعلمون) أي خَلْق ما لا تعلمونه، ولا عهد لكم به، ولم يكن مخلوقاً من قبل؛ ولذا تخرج البشارات عن نوعِ الخلق الجديد.

وعليه: فإنَّ الله تعالى لم يُعلم أحدًا بخلق شيء قبل أن يخلقه إلَّا بما أعلم الملائكة من خلق آدم عليه الصَّلاة والسَّلام.

. **وأمّا التساؤل الثَّاني**: فما حاجة الله تعالى أو عدم حاجته إعلامه خلقه عمّا يفعل؛ فقد قال تعالى: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}[309]. إنَّ إعلام الملائكة بهذا الأمر هو من أسرار الحكمة الإلهية التي علمتها الملائكة بعد خلق آدم وعجز الملائكة عن الإنباء بالأسماء التي أنبأهم بها آدم عليه الصَّلاة والسَّلام بما علّمه الله تعالى، ثم جعله عاقلًا مميّزًا، وكُلّف بما لم تكلَف به الملائكة من إعمار الأرض وإصلاحها.

من الواضح في سياق الآية أنَّ الحكمة الإلهيَّة خفيت عليهم في عمارة الأرض والاستخلاف فيها، وإصلاحها وتنميتها، وجعل الحياة فيها متنوِّعة ومتطوِّرة بشكل يناسب حياة تتابع الذُّرِّيَّة التي سيكون منها العابدون والصَّالحون والقائمون بما أمر الله به، وكل ذلك سيكون على يد خليفة الله في أرضه، لأنَّه هو المهيَّأ لذلك، وإنْ كان يفسد أحيانًا،

---

[308] – النحل 8.

[309] – الأنبياء 23.

ويسفك الدِّماء أحيانًا أخرى، غير أنَّ هذا الفساد والشرَّ الذي يصدر من البعض سيكون دافعًا للإصلاح والخير للبعض الآخر؛ قال تعالى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ}[310]. فإن كانت الحركة الصَّادرة عن المفسدين هي أداة الهدم والدَّمار، فإنَّ الحركة ذاتها تكون أداة بناء وإعمار لدى المصلحين؛ ولذا فالله تعالى لم ينفِ الإفساد الذي ذكرته الملائكة في حقِّ من سيخلف في الأرض، وإنَّما كانت الإجابة (إِنِّي أعلمُ ما لا تعلمونَ).

. **التساؤل الثَّالث**: يحمل في طيَّاته تساؤلات كثيرة؛ إذ أنَّ الملائكة لا تعلم الغيب، ولم ترَ آدم أو هذا الخليفة الذي لم يخلق بعد، ثم أصدرت أحكامًا على ما سيكون ممن لم يكن، وقد تمثَّل ذلك فيما يأتي:

أ . لقد نسبت الملائكة لآدم عليه الصَّلاة والسَّلام تهمة الإفساد وسفك الدِّماء قبل أن يخلق ودون أن تعرفه.

ب . آدم عليه الصَّلاة والسَّلام بعد خلقه لم يُفسد ولم يسفك دم أحد.

ج . الله سبحانه وتعالى لم يعارض الملائكة في جوابها ولم ينفِ التهمة عن الخليفة.

د . إجابة الله تعالى للملائكة (إِنِّي أعلم ما لا تعلمون) دليل على إصابة الملائكة فيما قالت، مع التلميح والتنويه إلى قدرات إيجابيَّة ترجّح على كفَّة الإفساد وسفك الدِّماء.

وعلى ما تقدَّم:

310 – البقرة 251.

لماذا أجابت الملائكة إجابة استغراب تدلّ على علمٍ؟

ولماذا لم ينكر الله تعالى على الملائكة ما قالت؟

نستشف من خلال الحوار أنَّ احتمالات علم الملائكة بما هو كائن من الخليفة تتمثل بما يأتي:

أ ـ كان لديهم شواهد متقدِّمة على خلق آدم من تجارب سابقة في الأرض؛ قال تعالى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[311]. فقوله: (كنتم أمواتًا) تدلّ على خلقٍ سابقٍ، والملائكة تعرف عنه ما تعرف. وقد يكون ذلك الخلق السَّابق هو الإنس لحمًا وعظمًا.

ب ـ أو أنَّ الله تعالى ألهمهم إلهامًا كشفوا به عن شيء من فطرة هذا المخلوق من تراب.

ج ـ إنَّ الملائكة استقرت حال آدم كمخلوق عاقل مميَّز مختار، فقدَّرت أنَّه من كان هذا حاله فإنَّه يمكن أن يختار الشرّ؟

د ـ إنَّ الملائكة التي لا تعرف إلَّا الخير المطلق بما فطروا عليه، فهم يرون أنَّ التسبيح بحمد الله تعالى والتقديس له هو غاية الوجود الكلّي وعلّة الخلق، وهو متحقّق بوجودهم.

ومع ما قدّرنا من احتمالات فقد كان إعلام الله تعالى ملائكته بأنَّه سيخلق خليفة، ويجعله في الأرض لحكمة إلهية؛ بحيث أنَّ هذا المخلوق مغاير للملائكة؛ من حيث أنَّه مختار بما أوتي من عقل، ومغاير للجنِّ من حيث المادَّة في الصّورة والشّكل ومكلّف بإعمار الأرض.

---

[311] البقرة 28.

حوارات ما بعد الخَلق:

لقد أنبأ الله تعالى الملائكة بخلق الخليفة، وكان هذا الإنباء إشعارًا من أجل تهيؤ الملائكة لعمل لم يكن لهم به عهد من قبل؛ حيث قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}[312].

. حوار الملائكة:

لقد ذكر الله تعالى الأسماء دون تحديد أو تقييد وجعلها مطلقة وشاملة ليدلّل على قدرات آدم عليه الصَّلاة والسَّلام، وسواءً أكانت مسمّيات الأشياء أم اللغات، أم الأسرار التي لم نعلمها، فهي تدلُّ على مدى تمتّع هذا المخلوق بقدرات لا تتمتّع بها الملائكة وهي:

أ . العلم: أنَّ الله تعالى علَّمه الأسماء كلها فتعلمها، أو علَّمه من الأسرار ما علَّمه.

ب . التذكُّر: عندما طلب الله تعالى من آدم إنباء الملائكة بالأسماء أنبأهم بها، لأنَّه تذكَّرها.

ج . التعليم: عمليَّة الإنباء هي إعلام الآخر بما يعلم، والإعلام هو قدرة على تعليم الآخر.

لقد دلَّل الله تعالى على ما يتمتَّع به آدم من قدرات العلم والحفظ والتذكّر عن طريق طرح الأسماء أو الأسرار التي استطاع آدم استذكارها أو التمكّن منها وكشفها، بشكل يوحي أنَّه جدير بالخلافة التي خصَّه الله بها بما وهبه الله لآدم من قدرات التعلُّم والحفظ والتذكُّر والإعادة.

[312] - الحجر 28 – 29.

وقد أراد الله تعالى أن يبرهن للملائكة ـ ولله المثل الأعلى ـ أنَّه يعلم ما لا يعلمه غيره، فعلم آدم أسماء الأشياء، ثم عرض هذه الأشياء على الملائكة فقال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[313]. وهذا لا يعني تكذيب للملائكة من وجهين:

الأوَّل: أنَّ الله تعالى لم ينفِ ما قالته الملائكة (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدِّماء).

الثَّاني: أنَّ الملائكة مجبولون على الخير بفطرتهم فلا يعرفون الكذب، فهم إمَّا يصفون أمرًا سابقًا علموه، أو إلهامًا من الله بما سيكون فتكلموا به.

وبعد عجز الملائكة عن إجابة الله تعالى لما طلبه منهم إنباءه بأسماء الأشياء (قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم) فأنبأهم آدم عليه الصَّلاة والسَّلام بما علَّمه الله تعالى.

إنَّ إنباء آدم عليه الصَّلاة والسَّلام الملائكة بأسماء الأشياء نقف منه على جملة من الدَّلائل التي أراد الله تعالى أن يطلع عليها الملائكة في هذا الموقف من خلال مشهد الحوار وهي:

أ ـ إظهار السّرّ الإلهي الذي خفي على الملائكة بما أودع الله في آدم من ملكات.

ب ـ تسليم الله تعالى هذا المخلوق مقاليد الخلافة.

ج ـ سرّ التهيّؤ والإرادة المستقلين يفضي إلى حريَّة اختيار الفعل.

---

[313] – البقرة 31.

د ـ حريَّة الاختيار الناتجة عن العقل المفكّر دليل على الصِّراع بين الخير والشرّ.

وبهذا ظهر سرّ القدرة الإلهيَّة على الرّمز بالأسماء للمحسوسات وسرّ القدرة على تسمية الأشخاص والأشياء بأسماء يجعلها ألفاظًا منطوقة، ورموز تلك الأشخاص والأشياء الحسّيَّة هي قدرة تحمل قيمة كبرى في حياة الإنسان على الأرض، وهو التكريم في أعلى صوره لهذا المخلوق الذي جزء منه يفسد في الأرض ويسفك الدِّماء أحيانًا.

ولكن إضافة إلى ذلك فقد وهبه من الأسرار ما يجعله بها أعلى درجة من الملائكة بما وهبه من المعرفة، ونهج له طريق الاختيار بهذه القدرات التي يستطيع بها أن يتحكّم في إرادته ذات الطَّابع المزدوج:

ـ أنَّه مأمور بالخير والطَّاعة والعبادة وإصلاح الأرض وإعمارها.

ـ أنَّه يمتلك نوازع نفسيَّة تدفعه لفعلٍ لم يؤمر.

وهذا أوَّل صراع يخوضه هذا المخلوق تحدِّيًا للتكريم الذي منحه إياه الله تعالى في تجربة شقِّ طريق الخير، واضطلاعه بأمانة الإعمار والإصلاح المكلف بها.

إنَّ الإنسان ـ وإن كان يفسد ويسفك الدِّماء ـ إلَّا أنَّ جانب الخير الكامن في نوازعه الفطريَّة يجعله أهلًا للمهمّة التي أمره الله تعالى بتحمّلها، فهو يمتاز بقدرات فائقة في التعلّم والتعليم والتفكير بما يرقى إلى إنجاز مهمّة الإصلاح والإعمار، وهذه القدرات على اكتساب المعارف وتنميتها واستثمارها، هي من مرشحات الخلافة في الأرض، لأنَّه خير من يعمّرها ويقيم الحضارة فيها، أمَّا الملائكة فتجيد التسبيح لله تعالى، وتحسن

العبادة، وتطيع ولا تعصي، لكن متطلبات إصلاح الأرض وإعمارها لا تتوقّف على التسبيح والعبادة فقط، وإنَّما تتطلّب إلى جانب ذلك البناء والعمران والعمل، وهذه الأشياء لا تقوم إلَّا بالعقل الذي ينمّي العلم عن طريق الاكتساب والتجربة التي تولّد المعرفة، والعمران يتطلّب العلم المتطوّر المتجدّد بشكل يناسب نمو حاجات الإنسان، وهذا ما يحسنه الإنسان بما آتاه الله، ولا تحسنه الملائكة؛ ولذا وقع الاختيار على الإنسان للخلافة دون الملائكة، ولهذا سجدت له الملائكة.

أمَّا إبليس فأمره الإفساد، ولهذا فأعماله مفسدة، وهذه من تدابير الله وحكمته، ومن هذا التدبير في شؤون الخلق كما نحن نتوقّع تتمثل في الآتي:

1 . امتحان الإنسان في هذا الابتلاء؛ وذلك لقوله تعالى: {فَقُلْنَا يَا آَدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنّةِ فَتَشْقَى}[314].

2 . إظهار قدرة الله تعالى على خلق المتضادات المتقابلات من الأحياء، فخلق إبليس من أخبث الذّوات وشرّها، وخلق الملائكة من أطهر مادّة، وخلق الإنسان من تراب وعليه:

آ . خلق عاصٍ أبدًا وهم إبليس وذرّيّته من الجنّ.

ب . خلق طائع أبدًا لا يعصون وهم الملائكة.

ج . خلق يطيع ويعصي وهم بنو آدم.

---

[314] – طه 117.

3 . القدرة على تنوّع الخلق من غير الأحياء مثلما يتجلّى ذلك في خلق الليل والنّهار، والشّمس والقمر، والدّاء والدّواء، والحياة والموت، والحسن والقبيح، والخير والشّرّ.

4 . إظهار آثار الأسماء الحسنى: ففي هذه المسألة يظهر بشكل جلي أسماء الرّحيم والتواب، والمنتقم والقهّار والعدل والمعزّ والمذلّ والخافض والرّافع والضّار والنّافع فإنَّ هذه الأسماء لا بدَّ من وجود متعلقاتها، فلو كان الجنّ والإنس على طبيعة الملائكة لم يظهر أثر هذه الأسماء، وكذلك بقية أسمائه الحسان المتعلّقة بوجود المخلوقين وأفعالهم.

5 . حصول العبوديَّة المتنوّعة في تفاوتها على قدر درجات الإيمان بعد التوحيد، في الجهاد والصبر والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر التي لولا خلق إبليس لم تحصل.

6 . إظهار التفرّد والواحديَّة لله سبحانه وتعالى بأدلة الثنائيَّات والثلاثيَّات وما زاد عن ذلك من المخلوقات، وهذا من الأدلة على كمال القدرة وعزّة الملك وقدم السُّلطان.

إنَّ خلق هذه المتضادات ومقابلة بعضها ببعض، وجعلها مجال تصرّفه وتدبيره، بلاغة الحكمة وحسن التدبير ومنتهى الكمال.

فلو تعطلت تلك الأسباب لما فيها من الشّرِّ، لتعطَّل الخير الذي هو أعظم من الشرِّ الذي في تلك الأسباب، وهذا كالشّمس فهي مضرّة أحيانًا والمطر قد يغدو طوفانًا والرِّيح إعصارًا، ولكن فيها من الخير في المصالح أضعاف ما يحمل الشّر من المفاسد.

وعلى ما تقدَّم فإنّ جدل إبليس في أمر السّجود وتفضيل نفسه بمادّة خلقه على غيره مما خلق الله تعالى كان بداية العصيان لأمر الله تعالى، وإذانًا ببدء الصِّراع بين الخير والشّر، حتى يستمر هذا الصِّراع إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها حتى يحكم بين عباده بالحقّ وهو خير الحاكمين.

وعليه: إنَّ أوَّل بادرة تعصب عرقي ظهرت في الخليقة كانت صادرة من إبليس برفضه تنفيذ أمر الخالق بالسّجود لآدم عليه الصَّلاة والسَّلام، مستندًا بذلك إلى مفاضلة عرقيّة في أصل مادّة الخلق؛ حيث قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}[315]. ومن ظاهر النّصّ القرآني أنَّ إبليس مقرّ بأُلوهيَّة الله تعالى وأنَّه هو الرّب الخالق البارئ المصوّر المعبود، ولكن الذي منعه من السّجود لآدم ادعاؤه أنَّه أفضل منه على أساس العرق ومادة أصل الخلق، حسب المقاييس التي اعتمدها كون النَّار جوهر نوراني لطيف، والطّين جسم كثيف، فعندما وضع الفرضيَّة على هذا الأساس كان البرهان فاسدًا لم يخرج بالنتيجة الصحيحة، لأنَّه اعتبر الفضائل تقوم على العناصر المادّيَّة دون القيم الرّوحيَّة، وهنا خفي على إبليس أمران:

الأوَّل: أنَّ هذا المخلوق دون سائر المخلوقات نفخ الله تعالى فيه من روحه.

[315] - الأعراف 11- 12.

الثَّاني: أنَّ المفاضلة تكون بغير الأعراق والأجسام، ولكن المفاضلة بما فضَّل به الخالق مخلوقاته؛ حيث قال: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[316]، تقويم ثابت القوام ولا يتبدّل كما حو حال التبدّل الذي يتلاعب به إبليس عليه اللعنة.

إنَّ اعتماد الأصل العرقي مقياسًا للمفاضلة بين أنواع الخلق أوقع إبليس في دائرة رفض العدل الإلهي، وعلى هذا المنطق رأى أنَّه ظلمٌ وإجحافٌ في حقِّه إذا سجد لآدم؛ وذلك أنَّه غاب عنه المنطق الحكيم وخفيت عليه الحكمة الإلهيَّة استنادًا إلى العرق؛ لأنَّه اعتقد أفضليَّته على آدم من عدّة جوانب:

آ . أنَّه موجود قبل آدم خَلقًا فما ينبغي أن يسجد له.

ب . أنَّه الأفضل من حيث مادّة الخلق وهو المقياس العرقي.

ج . أنَّه يتمتَّع بقدرات تعود إلى مادّته لا يتصف بها آدم.

ولذا فقد غاب عن رشده قدرة الخالق الذي خلقه وخلق المادّة التي هو منها وخلق فيها؛ ولذلك كان يرى أنَّه الأقوى والأقدر والأعلم من آدم، وبالتَّالي فهو الأفضل، تعصُّبا للعرق وبعدا عن الحقّ وبهذا رفض ميزان العدالة الإلهيَّة وميزان التفاضل الشّرعي الذي وضعه الله سبحانه وتعالى.

أمَّا من جانب اللغة في قوله تعالى: {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}[317]، فإن كانت الباء أجلى معانيها القسم،

---

[316] التين 4.

[317] ص 82، 83.

إلَّا أنَّه في هذا السّياق أضعف المعاني، والسمتان الغالبتان على الباء هما الاستعانة والتبعيض؛ ذلك أنَّه لو كان قسمًا بعزة الله تعالى واستُجيب له لأغوى النَّاس أجمعين، غير أنَّ معنى الباء هنا أخرجت العبارة من القسم لإفادتها معنيين:

1 . الاستعانة: إذ لولا عون العزَّة بما جرى به القلم لم يستطع أن يغوي أحدًا.

2 . التبعيض: إذ لو كان قسمًا واستُجيب له به، ولم يكن إعانة ببعض العزّة، لكان بجميع العزَّة، وكان إبليس أغوى النَّاس جميعًا، ولكن إفادة التبعيض كان استعانة ببعض العزّة لإغواء البعض، ممَّا أخرجه عن القسم. فما هي دلالة القول في الآية؟

أوَّلا يجب أن نعرف معنى العزّة لنفهم طبيعة اللفظ في السّياق، فالعِزَّة بالكسر هي القُوَّة والغَلَبة[318]، ويقال عَزَّزْتُهُ بآخر قوّيته[319]، والعزّة بالنسبة إلى الإنسان حالةٌ مانعةٌ له من أن يُغلَب[320]، فهي القوَّة على الغلبة[321]، وكل هذه المعاني دالة على أنَّ العزَّة هي القوَّة التي تمنح من قوي لآخر، وهنا يجب أن ندرك أنَّ في الآية منحى آخر غير القسم هو: أنَّ إبليس يعلم أنَّ الله أعزَّ آدم، وقدَّمه على إبليس فعزَّه على بقية المخلوقات، بأن أمره بالسّجود إليه؛ فقال بعزَّتك لآدم لأغوينه وذرّيَّته إلَّا المخلصين هنا السِّياق يتوافق مع طبيعة إبليس العاصي المغرور المتكبّر

---

[318] – تاج العروس، ج1، ص 3760.

[319] – المصباح المنير، ج2، ص 407.

[320] – تاج العروس، ج1، ص 3759

[321] – معجم الفروق اللغوية، ج1، ص 20.

على آدم، أمَّا القسم بعزّة الله فيعطي انطباعًا أنَّ إبليس من العارفين بالله والموقنين بقدرته وعزّته وهو أمر لا يستقيم مع مبدأ العصيان فلو كان كذلك ما عصى الله!

والتفسير الآخر الذي يقبل الاحتمال أنَّ آدم ذكر عزّة الله للمخلصين وذله للعصاة الغاوين؛ فقال بعزّتك التي تذلُّ العاصي وتعزُّ المخلص لا غوينهم إلَّا المخلصين؛ فأنا ليس لي حيلة عليهم لأنَّهم من المخلصين الذين فازوا بعزّتك.

هذان التفسيران أقرب إلى المنطق من القسم، كذلك فإن هناك ما يتعارض مع احتمال القسم ومفاده أنَّ عزّة الله واحدة لا تتجزّأ، ولا يمكن أن يعطيها لغاوٍ عاصٍ يذل بها عباده ويغويهم بها، وهذا الحاصل بالفعل لانَّ الله سبحانه وتعالى أمهل إبليس ولم يعنه على أي من أفعاله؛ لذلك كان كيده ضعيفًا؛ مصداقا لقوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا}[322]، أمَّا الإنسان فكيده عظيم؛ مصداقًا لقول الحق سبحانه: {فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ}[323] .

وكيد الشّيطان ضعيف لأنَّه قائم على أوهام ينطلق منها ليوهم الإنسان بالباطل، أما كيد الإنسان فهو قوي، لأنَّه ينطلق من العقل الذي وهبه إياه الله عزَّ وجلَّ؛ يقول الحق واصفًا هذا العقل: {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ

---

[322] - النساء 76.

[323] - يوسف 28.

فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ}[324].

هنا يجب أن نقرّ بحقيقة هي: ليس كل غواية من الشّيطان ولا كل كيد منه، لكن يمكن القول أنَّ الشّيطان هو مؤثّر من المؤثّرات على قرار الإرادة، فليس للشّيطان القدرة على التأثير في القرار بشكل حاسم ومؤثّر إلَّا على القسم الذي قرّر من البدء إتباع خطوات الشيطان، أمَّا القسم الآخر فيؤثّر فيهم، فهم بين مستعيذ بالله من هذه الدّعوة وبين ساقط في مهاويها كما يخبرنا المولى عزَّ وجلَّ: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[325].

بقي القسم الأخير وهم المخلصون فهؤلاء ليس لإبليس عليهم سُلطان لا ضعيف ولا قوي لا قريب ولا يعيد.

وعليه جاء قول الله: {قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ}[326]، هنا أجاب الله تعالى أنَّ قولي الحق وقولك يا إبليس باطل لا يقين فيه، لأملأن جهنم من جنسك من الشياطين وممن تبعك من ذرّيّة آدم أجمعين لا فرق بين تابع ومتبوع.

---

[324] - المدثر 18-23.

[325] - إبراهيم 22.

[326] ص 84، 85.

لقد أخبر الله تعالى أنَّ آدم وإبليس قد أُهبطا إلى الأرض، وهذا الهبوط دليل على:

1 . إنفاذ المشيئة الإلهيَّة بجعل خليفة في الأرض.

2 . الابتلاء والامتحان لآدم وذريته في هذا الهبوط.

3 . الوفاء بالوعد من الله تعالى بالنِظرة التي أنظرها إبليس.

إلَّا أنَّ اعتراف آدم عليه الصَّلاة والسَّلام وزوجه بالذّنب وطلب الرَّحمة والمغفرة، كان سببًا في قبول التّوبة؛ قال تعالى: {قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[327]. فهذه الآية تبيّن مِن آدم وزوجه:

. إظهار النَّدم.

. الاعتراف بالذّنب.

. الإقرار بالخطيئة.

. طلب الرَّحمة والمغفرة: {فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[328].

لقد هبطوا جميعًا إلى الأرض: آدم وزوجه وإبليس، ليبدأ الصِّراع بين الخليفة واعداءه؛ وذلك كان الصِّراع بمبادرة من إبليس ترتَّب عليها مواجهة دائمة في هذا الصِّراع الدَّائر، الذي نتج عنه عداوة مستمرّة بين الفريقين، فما تزال المعركة دائرة على قدم وساق بين الحقّ والباطل، وبين الخير والشّر، ليتم الابتلاء ويجري قدر الله بما شاء.

---

327 – الأعراف 23

328 – البقرة 37

إنَّ الكلمات التي تلقّاها آدم من ربّه وقبول توبته بها، لم تكن لتلقى رضا إبليس، بل زادته حنقًا وحسدًا: {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ}[329].

فقد عاهد نفسه أن يقعد للإنسان بكل سبيل يزيّن له المعصية ويصده عن الطَّاعة، فقد زيَّن الشّيطان للإنسان الكفر والقتل والزّنا وشرب الخمر ولم يكتفِ بذلك، بل تعهَّد أن يتخذ منهم نصيبًا مفروضًا، وكأن ذلك إرثٌ له وذلك لسببين:

الأوَّل: الثّقة المفرطة في النَّفس وهي من صفات إبليس ومن تبعه.

الثَّاني: علمه بأن سيكون له أتباع لا يعصونه فيما يأمرهم به: {وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ}[330].

ولعلم الله تعالى بالقدرات التي منحها لإبليس، والطَّاقات الكبيرة التي يستطيع أن يصل بها إلى غرضه، فقد حذر الله تعالى عباده منه كي يقيم عليهم الحجة حيث قال تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الجنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ}[331].

---

[329] - الأعراف 16- 17

[330] - النساء 118- 119

[331] - الأعراف 27

إنَّ الحوار الذي أظهر فكرة الصِّراع المرتبط بالمصير والنهاية، أعطى للماضي قيمة كبيرة لدى الإنسان؛ وذلك لما يترتَّب على هذا الماضي من مسئوليَّة الإنسان عمَّا يفعله في الحياة الدُّنيا، ثم التقاط العبر مما حدث في الماضي البشري، وهو ما يقع في صميم النظرة الآنية التي تضمن المستقبل.

من خلال قصّة خلق آدم عليه الصَّلاة والسَّلام، التي بدأ بها الصِّراع بين الخير والشّر، الشّر الذي تمثّل في الدّور الذي يقوم به إبليس، ابتداء برفضه السجود لمن أخير أن يكون الخليفة، ثم بإغوائه في معصية ربِّه وإخراجه من الجنّة، ثم بعد ذلك تعهده بمواصلة العمل من أجل تخريب وهدم كل ما يبنيه الإنسان وينجزه من إعمار الدّنيا والدِّين، بمعنى تدمير الحضارة الإنسانيَّة وخروج الإنسان من الدُّنيا إلى الآخر صفر اليدين، وبهذا يكون إبليس هو الحيلولة بين الإنسان وبين فعل الخير من جهة، والسَّاعي لإثارة الفتن في الحياة الدُّنيا، مما يترتّب عليه عقاب الآخرة من جهة ثانية، وبهذا يكون إبليس قد وصل إلى الغاية التي ينشدها وإن لم يجنِ منها فائدة.

وعليه: فإنَّ الحوار في هذه المرحلة فيه خطاب من الله سبحانه وتعالى إلى خلقة من الحاضرين مقام الحوار، فمن خلال التأمل في مشهد خطاب الاستخلاف بين المخلوقات ذات الصّلة الوثيقة بماضي الإنسان في الجنّة وحاضره في الأرض ومستقبله بالعودة إلى الجنّة مسكنه الأوَّل أو إلى النَّار استنادًا إلى نتيجة استخلافه في الأرض. نجد أن مخلوقات حضرة الخطاب الإلهي انقسمت بين طائع مستفسر (الملائكة)، وعاصٍ مجادل

(إبليس) وخليفة (آدم) لم يتكلّم إلَّا بإذن ربّه، وبناءً على ذلك المشهد الخطابي تغيرت اعتبارات المخلوقات الثَّلاثة وعلى النَّحو الآتي:

. قبل الخطاب.

. في أثناء الخطاب.

. ما بعد الخطاب.

الاعتبار الاستخلافي في الخطاب الإلهي:

أوَّلا – التساوي التَّام.

ثانيًا – ما أفضى إليه الخطاب الإلهي من عدم المساواة تأسيسًا على موقف كل مخلوق في المخاطبة الإلهية فكان:

أ–استفسار وتسليم وسجود.

ب– خلاف وكفر وامتناع وطرد لرفض السُّجود للأمر الإلهي.

ج– صمت وطاعة واستجابة وتكريم.

ثالثًا – مترتّبات ما بعد خطاب الاستخلاف وتمثّلت في:

– اعتبار تفضيلي لآدم.

– هبوط منزلة إبليس وطرده من حضرة الخطاب الإلهي.

رابعًا – اعتبار التساوي من جديد بين آدم وإبليس وذلك بعد:

أ – وسوسة إبليس لآدم وزوجه.

ب – وقوع آدم وزوجه في المعصية.

ج – التساوي في هبوط آدم وزوجه وإبليس من الجنّة إلى الأرض.

وهنا تأتي مرحلة ما بعد الهبوط ويترتَّب عليها:

أ– هبوط واختبار.

ب–صراع وإصرار.

خامسًا – يترتّب على هذا اعتبار أخروي تفاضلي ليس فيه مساواة بل فيه.

أ – المرد للقرار (جنة أو نار)

ب – ضرب الحجاب.

ج – تكريم وتنعيم.

د – عذاب وجحيم.

ولتفصيل ما أجمل نعود إلى القرآن الكريم ونقرأ مشاهد الخطاب الاستخلافي وما فيه من اعتبارات سبق الإشارة إليها:

1– اعتبار التساوي التام:

– قبل خطاب الاستخلاف كانت المخلوقات الثلاثة في تساوٍ تام؛ لأنَّ الله خلقهم جميعاً ولا نعلم بالقطع أي منهم خلق قبل الأخر، ولكن من خلال السِّياق القرآني يتبيّن أنَّ الجنّ الذين يمثلهم إبليس والملائكة الذين شهدوا خطاب الاستخلاف كانوا أسبق في الخلق من آدم، مع التأكيد أنَّ هذا ترتيب سبق لا رتبة.

– ومن بين شواهد التساوي أنَّ الله سبحانه وتعالى أعطى لكل مخلوق منهم تكليفًا فقد كانت الملائكة ومعهم إبليس في مقام التسبيح بحمد الله والتقديس له، والطَّاعة التامَّة.

ولتأكيد التساوي بين المخلوقات الثلاثة أعطى الله لآدم تكليفًا للخلافة في الأرض يتناسب مع ما خلق عليه ومنه وله، وهذا التكليف يتباين مع تكليف الملائكة وإبليس وذلك لأسباب:

- **مكان التكليف:**

فتكليف آدم في الأرض، وتكليف الملائكة، وإبليس (قبل الطّرد) في السَّماء،

- **زمان التكليف:**

زمن التكليف لآدم (مدّة حياة آدم ثم مدّة حياة كل فرد من ذريته)، وهذه المدّة محدَّدة بعمر كل إنسان؛ وعليه نقول: إنَّ كل إنسان بمفرده يمثل آدم في الأرض، وإن اختلف الاسم والعمر والزّمن الذي ظهر فيه؛ لأنَّه قد كلّف بما كلّف به أبوه آدم من قبل على الأرض وليس في السَّماء.

أمَّا الملائكة فاستمر تكليفهم، فمن حيث الزمان (فزمنهم ممتد) فهم لا يموتون إلَّا في يوم الهلاك العام؛ مصداقا لقوله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[332]، وكذلك طبيعة التكليف لم تتبدَّل فهم يسبِّحون بحمد الله ويقدّسون له.

- **طبيعة التكليف:**

تكليف آدم بالخلافة تمثّل في عبادة الله وحده اختيارًا، وتعمير الأرض، وإحقاق الحق إزهاقًا للباطل. وللملائكة عبادة الله جبلا على الطَّاعة دون اختيار، أمَّا إبليس فقد تبدَّل تكليفه بعد كفره وطرده من زمرة الملائكة المسبِّحين المقدِّسين، وألزم نفسه تكليفًا من عند نفسه لا من عند الله؛ مصداقًا لقوله تعالى: {قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآَتِيَنَّهُمْ

[332] القصص 88.

مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ}[333].

ومن نتائج تبديل التكليف:

. الامتداد الزّمني لإبليس؛ لأنَّه أصبح من المنظرين: (قَالَ أَنظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) أمهلني إلى يوم البعث، وهو وقت النفخة الأخيرة (قَالَ إِنَّكَ مِنَ المنظرين) إلى النَّفخة الأولى. ويدلّ على أنَّه طلب الإنظار من الله تعالى إلى وقت البعث وهو وقت النفخة الثَّانية حين يقوم النَّاس لربِّ العالمين ومقصوده: أنَّه لا يذوق الموت فلم يعطه الله تعالى ذلك بل قال إنَّك من المنظرين. ثم ههنا قولان: الأوَّل: إنَّه تعالى أنظره إلى النفخة الأولى؛ لأنَّه تعالى قال في آية أخرى: {إِنَّكَ مِنَ المنظرين إلى يَوْمِ الوقت المعلوم}[334]، والمراد منه اليوم الذي يموت فيه الأحياء كلّهم، وقال آخرون: لم يوقت الله له أجلًا بل قال: (إِنَّكَ مِنَ المنظرين)، وقوله في الأخرى: (إلى يَوْمِ الوقت المعلوم) المراد منه الوقت المعلوم في علم الله تعالى. والدليل على صحة هذا القول أنَّ إبليس كان مكلّفًا والمكلّف لا يجوز أن يعلم أنَّ الله تعالى أخَّر أجله إلى الوقت الذي يعلمه إبليس؛ لأنَّ ذلك المكلّف يعلم أنَّه متى تاب قبلت توبته، فإذا علم أنَّ وقت موته هو الوقت المحدّد أقدم على المعصية بقلب فارغ، فإذا قرب وقت أجله تاب عن تلك المعاصي فثبت أن تعريف وقت الموت بعينه يجري مجرى الإغراء بالقبيح؛ وذلك غير جائز على الله تعالى "[335].

---

[333] الأعراف 14 – 17.

[334] الحجر 37-38.

[335] الرَّازي، ج 7، ص 53.

الخلافُ بين المستخلفين فيها:

مع أنَّ إبليس كان مخالفًا وغاويًا لمن يستطيع من بني آدم، فإنَّ خلافًا أخر هو أشد من ذلك الخلاف (الخلاف بين بني آدم) صراع وصدام واقتتال على من يحكم من، ومن الذي ينبغي أن يتحكّم في الأمر (أمر النَّاس)؛ إذ لا اتفاق؛ ذلك أنَّ الخلافُ لا اتفاق بين المتخالفين على رأيٍ، أو مشروعٍ، أو قضيَّةٍ، أو معتقدٍ؛ مما يجعل أصوات الاعتراض بينهم ترتفع، وكأنَّ الأمر لا تحسمه حُجَّة، ويعدُّ الخلاف نتاج تباين الآراء عن الشَّيء الواحد، واتساع الهوة بين المتخالفين عليه.

والخلافُ كلمة جاءت من المخالفة، والمخالفة خروج عن المتّفق عليه، أو خروج عمّا يجب الاتفاق عليه، والمخالف من خالف العُرف، أو الدّين، أو القيم، والأخلاق، أو الدَّستور المجمع عليه من قِبل النَّاس، أو خالفها جميعًا؛ فتخالف مع أصحابها، وجعل من نفسه خصمًا في المواجهة.

ولأنَّ أمر الخلاف بغير حقٍّ أمرٌ يؤدّي إلى المواجهة، والرّفض فلا شكّ أنَّ النّزاع، والشّقاق، والخِصام، والصِّدام بين الأطراف المتخالفة سيكون على أشدّه.

ولا يمكن أن يصبح الخلاف بين النَّاس سائدًا إلّا إذا رأى كلّ طرف أنَّه صاحب الحقّ، وغيره لا حقّ له، فتؤخذ المواقف، وتتأزَّم الأحوال بين الأطراف؛ فتقود إلى المواجهة، التي ستكون بين متمسّك بحقّ، ومتمرّدٍ عليه، أو معتدٍ؛ ولذلك تُرفع الأصوات على الأصوات، ممّا يدفع الأطراف إلى ما هو أسوأ.

ولسائل أن يسأل:

لماذا يُرفع الصوت إذا كان لصاحبه حُجَّةٌ؟

أقول:

الحقّ دائمًا أعلى من أيّ صوت؛ ولأنَّه كذلك فلا داعي لرفعه؛ ولذا اترك الحُجَّة تعلو على كلّ شيء بما فيه صوتك، وإن كان صاحبك على حقّ؛ فلا ترفع صوتك عليه، وإن رفعته، فسيأتي اليوم الذي تعرف فيه أنَّك على باطلٍ، وبالتالي: خذ حذرك، وعليك أن تميّز بين مفهوم الخلاف، الذي يؤدِّي إلى الفرقة، والاختلاف الذي يؤدِّي إلى الالتقاء تنوّعًا؛ قال تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ}[336]. قال (يُخالفون)، ولم يقل: (يختلفون)؛ ذلك لأنَّ أمر الله تعالى نافذ في من يخالف أمره، فمن هذه الآية الكريمة يتّضح الخلاف كونه بين ثابتٍ ومهتزّ؛ فالثَّابتُ هو الحقّ: (أمر الله تعالى)، والمخالف للحقِّ مخالف للثابت؛ ولهذا فمن يخالف الأمر الحقّ؛ فهو المهتزّ عن الثَّابت اعتدالًا، وعدلًا.

وهنا جاء مفهوم الخلاف على مضمون من خالف عهده، ووعده، أمَّا مفهوم الاختلاف فجاء على مضمون من اختلف عن أقرانه؛ ولذا يصبح معنى كلمة: (أَخْتَلِفُ) غير معنى: كلمة (أُخَالِفُ)؛ فالأولى، كمن يقول لك: أختلف معك في الرّأي، وهذه تؤدّي إلى وجوب المناقشة

---

[336] النور 63.

والحوار، أو الجدل حتى الاقتناع المشترك، والثانية: كمن يقول لك: أخالفك عليه، وهذه تؤدّي إلى الخلاف، والخصام، والنزاع[337].

والخلاف في دوائر التَّاريخ في معظمه سالبٌ، وهو من طبيعة البشر؛ فالبشر مع أنَّهم متميّزون بما هم فيه مختلفون، فإنَّهم فيما لا يُتّفقون عليه يتخالفون، وفي الوقت الذي يكون فيه الاختلاف متمّم قيمي بين النَّاس، يكون الخلاف مفرّق بينهم.

ولأنَّ الاختلاف من طبيعة المخلوقات كلِّها؛ فهو المخلوق في المخلوق أينما كان هذا المخلوق؛ أمَّا الخلاف فهو الملازم لطبيعة البشر اكتسابًا، ولأنَّه لا يتحقق إلَّا اكتسابًا فَلِمَ لا يتمُّ تجنُّبه، وأخذ الحيطة، والحذر قبل أن تولد الفتنة، ويحدث الصِّدام والاقتتال؟

ولأنَّ للخلاف دوائر في التَّاريخ؛ فدوائر التَّاريخ تتداخل دون انفصال دائرة عن أخرى، فدائرة التَّاريخ وجودًا هي: النّقطةُ المحاطةُ بالفراغِ الميسّر للحركة والسُّكون إلى النِّهاية؛ حيث تقف عاجزة عن النمو، والامتداد، والاتساع، والبقاء؛ ولذا فمع أنَّ الدَّائرة في ذاتها نقطة؛ فإنَّها نقطة البداية لرسم دوائر وتكوينها؛ إذ لا يمكن لدائرة أن تصبح دائرةً إلَّا بمجموع دوائر النُّقط التي بدأت منها وانتهت إليها، وهكذا بالتمام ما تنتهي إليه المستقيمات.

ومن ثمَّ فالدّائرةُ: إحاطة الشَّيء بالشَّيء علمًا، ومعرفةً، ودرايةً، وعملًا، سواء أكان المحاط: مشاهدًا، أم مجرَّدًا: (حسنات، أم سيّئات).

---

[337] عقيل حسين عقيل، السياسة بين خلاف واختلاف، الزعيم للخدمات المكتبية، القاهرة، 2013، ص 53 – 54.

وإضافة إلى ذلك فالدَّائرة لا تكون إلَّا بإحاطتين رئيستين:

الأولى: إحاطة الشَّيء باللاشيء: كما يحوط الفراغ الكوني الكواكب، والنجوم، والشُّهب، وكما نحن نحاط بالفراغ، الذي لولاه ما كانت لنا الحركة، والامتداد.

والثَّانية: إحاطة الشَّيء بالشَّيء: كما نحن نحاط في بيوتنا بجدران من المباني سلامةً، وأمنًا، وكما نحن نحوط أبناءنا عناية، ورعاية.

ولمتسائلٍ أن يتساءل:

إذا كُنَّا محاطون بالجدران المحاطة بالفراغ (اللاشيء)، والمملوءة به على التمام، ألا تكون رؤوسنا المحاطة بالفراغ محيطة لأفكارنا، والتي هي الأخرى محاطة بعقولنا؟

أقول: نعم، دائرة الفراغ تحوطنا سلامةً، ومرونةً، وهامشًا للحركة والامتداد، ورؤوسنا تحوط عقولنا التي هي الأخرى تحوط أفكارنا؛ أي: لو لم تكن دائرة رؤوسنا ما كانت دائرة عقولنا، ولو لم تكن دائرة عقولنا ما كانت دائرة أفكارنا.

ولأنَّه لا مطلق إلَّا بيد الله، إذن فلا مطلق بأيدينا؛ ومن هنا نحن في دائرة المحدوديَّة: (النِّسبيَّة)، أي: كلّ ما نقدِم عليه من فعلٍ، أو عملٍ، أو علمٍ لا يمكن أن يخرج عن دائرة النسبيَّة؛ ولهذا لا يمكن أن يخرج تاريخنا عن دوائر النسبيَّة: سياسةً، واقتصادًا، وعلمًا، وخبرة، وتجربة، وعادةً، وعرفًا.

ولأنَّ كل شيء يوجد لا يخرج عن دائرة الوجود حياة، أو موتًا، أو عدمًا، أو بعثًا، إذن: فلا شيء يكون أو يوجد إلَّا تاريخًا؛ ولذا فلكل

دائرة من دوائر التَّاريخ بداية، ونهاية، ولا بقاء لأيِّ دائرة من دوائر التَّاريخ إلَّا البقاء الدَّائم؛ حيث الحياة الحيوان: {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ}[338].

وبما إنَّ الدَّائرة، إحاطةٌ، إذن فدوائر التَّاريخ كلّها إحاطات معرفيَّة؛ فنحن لو لم يحطنا الله بعلمه ما عَلِمنا بما أُعلمنا به؛ ولهذا فالإحاطات التَّاريخيَّة كلُّها متداخلة الدَّوائر: (خَلقًا، ونشوءًا، وارتقاءًا)؛ إذ لو لم يكن الخلق مستحيلًا، ما كان النشوء معجزًا، ولو لم يكن النشوء معجزا، ما كان الارتقاء ممكنًا.

وعليه: فما يُحاط به العقل البشري لن يكون إلَّا من خارجه؛ وبالتالي لن يكون داخله أبدًا، ومن هنا فعندما يحاط العقل بالمعلومة يستشعرها، ثمَّ يتحسسها، ثمَّ يتدبَّرُ أهميَّتها وعيًا؛ فتتجسَّد في قولهِ، وفعلهِ، وسلوكهِ، وعملهِ، ما يدفعه إلى الإنتاج العلمي، وبلوغ الخوارق، وتحدي الصِّعاب، وإضافة الجديد، وإحداث النُّقلة، ثمَّ صناعة التَّاريخ.

فنحن بنو آدم أبلغنا الله بما لا نعلم من خلال أنبيائه ورسله عليهم الصَّلاة والسَّلام، وبالتَّالي أُحيطت عقولنا بما لم تُحطْهُ، أي: أصبحت عقولنا محاطة بما عَلِمَتْ، (إنَّها محاطة به، وليست محيطة له)؛ ولهذا دائمًا المحيط أعظم من المحاط، وهكذا هي الدوائر تاريخًا.

ومع أنَّه لا وجود لدائرة على أرض الواقع إلَّا بملامسة نقطة النهاية وهي ظَهر نقطة البداية (تلتصق خلفها) فهي كمن يمدّ أصبعه إلى الأمام، حتى يلامس خلفيَّة رأسه، ومع ذلك فإنَّ دوائر التَّاريخ ليست دائمًا

---

[338] العنكبوت 64.

هكذا؛ بل كثير من دوائر التَّاريخ وهميَّة؛ كما هو حال دائرة السوء: سواء أكانت دائرة سوء الفهم، أم دائرة سوء الظَّن، أم دائرة سوء النيَّة، أم دائرة سوء السُّمعة، أو العمل، أو الفعل، أو السُّلوك (كلَّها دوائر وهميَّة)؛ قال تعالى: {وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ}[339].

وعليه: فإنَّ دوائر التَّاريخ بداية تُفتح وجودًا، ونهاية تقفل عدمًا، وعندما تقفل على (ما) تقفل عليه، أو على (من) تقفل عليه فلا مفَّر منها؛ مما يجعل الأفعال باقية، وفاعلوها منتهون. وعليه: فلا خلاف على دوائر التَّاريخ؛ بل الخلاف فيها.

عُصور دوائر التَّاريخ خلافًا:

العصور أزمنٌ تتغيَّر الأشياء فيها والأحوال بخصائص خَلقيَّة، وخُلقيَّة، فتترك أثرًا يُمكِن استقصاؤه، والتعرُّف عليه؛ بغاية الاقتداء، والاتعاظ، أو بغاية أخذ الحيطة، والحذر، والتجنُّب؛ ويعدُّ التَّاريخ السّجلَّ المفتوح؛ لأخذ المحاسن الجميلة، وتجنّب ما من شأنه أن يؤدِّي إلى الدّونيَّة والرذيلة؛ ولأنَّ صفحاتِ سجلّات التَّاريخ مفتوحة أمام بني الإنسان، فهي المستوعبة لكلِّ جديد يضاف، سواء أكان في دائرة الإيجابيَّة الخيّرة، أم في دائر السَّلبيَّة المؤلمة.

ولذا تُعَدُّ النُّقلة المقصودة تاريخيًّا قيمة مُرضية لمن بَلغها أملًا، فيها تغيير الأحوال من سيء إلى حسن، أو من حسنٍ إلى أحسن، ومن سُفليَّة ودُونيَّةٍ إلى رفعةٍ وقمَّةٍ؛ ولهذا تُمكِّن النُّقلة التَّاريخيَّة من بلوغ المكانة الرفيعة

---

[339] التوبة 98.

لمن لم يكن قد تبوَّؤها من قبل، ومع أنَّها النُّقلة التَّاريخيَّة فإنَّها لم تكن مُقولَبَةً في هيئة ثابتة، ولا في رؤية واحدة، ولا تقتصر على شيء واحدٍ، أو شخصٍ واحدٍ، بل النُّقلة التَّاريخيَّة تُصنع فكرةً وتدبُّرًا مع أملٍ لا يفارق، وتحدٍّ لا يصاحبه الملل؛ فَتُجسَّدُ تاريخًا لمن يبلغ مأموله، ويفوز به.

ومع أنَّ التَّاريخ يُصنع، فإنَّ التغنِّي به لا يمكن أن يعيده؛ ولهذا فالعودة إلى الماضي تشدُّ إلى الخلف، ولا يمكن أن تُحدث النُّقلة.

ومع أنَّ النُّقل تصنع التَّاريخ، فإنَّ الخلاف في كثيرٍ من الأزمن يُحدث الانتكاسة؛ فتتبدَّل الأحوال، وتتغيَّر المواقف، وتتخلَّف الشّعوب؛ ولتبيان ذلك استعرض بعضًا من محطاته التَّاريخيَّة.

التَّاريخُ نُقلةٌ من السَّماءِ إلى الأرضِ:

كانت العلاقة بين السَّماء والأرض علاقة رسالات من الخالق تعالى إلى المخلوق، من خلال اصطفاء الأنبياء والرُّسُل عليهم الصَّلاة والسَّلام، وتكليفهم بالنبأ والبلاغ المبين، دعوةً، وهدايةً، وتبشيرًا، وأمرًا، ونهيًا، وتحريضًا.

إنَّها مرحلة التعلُّم، والمعرفة الممكِّنة من التمييز بين ما يجب طاعة، وما لا يجب طاعة: (التمييز بين الحقِّ، والباطل)، وبين ما يؤخذ الرَّأي فيه وما لا يؤخذ، وبين المحرَّم والمجرَّم؛ فمرحلة التعلُّم، والمعرفة هي: مرحلة التعلُّم، والتعرُّف على ما لم يسبق للإنسان أنْ عرفه، وهو: الذي لا يعلمه إلَّا الله تعالى. إنَّها المرحلة النُّقلة من الظُّلمة إلى النُّور، ومن الإباحة المطلقة إلى التقييد المشروط: (مرحلة اختبار العقل)، مع ضبط النَّفس التي لا

يرضى الله عنها إلَّا طائعة منضبطة، ومن ثمَّ تُرك الإنسان حرًّا؛ ليختار بين ما يُمكِّنه من المأمول جنَّةً، وما يحرمه منها، ويدخله جهنَّمَ.

ومن ثمَّ كانت النُّقلة من الوقوع في المفاسد والمعيبات إلى الفضائل الخيِّرة التي جاءت بها الرِّسالات السَّماويَّة هداية؛ فكانت مشاكل الإنسان نتيجة الضَّلال، وعدم معرفة الحقّ، ولما جاء الحق منزَّلًا كفر به كثيرون، وبخاصّةٍ مَن اعتاد السّير على سُبل الضَّلال، وفي المقابل القلة اهتدت إيمانًا بالحقِّ المنزَّل، ومن ثمَّ كان الصِّدام، والخصام، والاقتتال بين أنبياء الحقّ وجنده المؤمنين من جهة الإيمان والطَّاعة، وأهل الكفر والمفاسد من جهة الكفر والضَّلال: (بين أهل الحياة العليا، والحياة الدُّنيا).

ولهذا فأبونا آدم عندما وجد نفسه على الأرض دنيا كان أمله أنْ يعمل ما من شأنه أنْ يعيده إلى الجنّة ارتقاء؛ تلك الجنّة التي فقدها، ولم يعد يراها نعيمًا على الأرض المغبرَّة التي أُهبط بها أرضًا.

فأبونا آدم خُلق في الجنَّة، وشهد على نعيمها، وفيها تمتّعَ، ثم حُرم منها، وأهبط به، والأرض دُنوًّا، ولكنَّه لم ينس ذلك العيش الرّغِد والوفرة التي لا تُحصى، والتنوّع المتّسع جمالًا، وبخاصّة بعد أن أصبح على الأرض التي لم تأخذ أيّ صفة من صفات الجنّة سوى الماء الذي يبقي على الحياة، ولا يُبقي على النّعيم؛ فأصبحت الحاجة تملأ نفس آدم وزوجه بعد أن حُرما من مشبعاتها المنقوصة في الحياة الدّنيا.

وعليه: فإنَّ بني آدم في دائرة الممكن هم بين متوقَّع وغير متوقَّع، أي: إنَّهم بين متوقَّع الارتقاء، ومتوقَّع الدّونيَّة، ومن جهة أخرى هم:

يتبدَّلون؛ إذ لا ثوابت فمنهم من يبقى على الارتقاء، ومنهم من يتخلّى عنه، ومنهم من نراه في دونيَّة.

ولأنَّ العلاقة بين الاختلاف والخلاف وثيقة؛ فكان الصِّدام بين الحقّ والباطل، اللذين بأسبابهما اصطفى الله تعالى الأنبياء والرُّسُل عليهم الصَّلاة والسَّلام، مبشرين، ومنذرين، وداعين، ومحرّضين على كلّ ما من شأنه خير؛ فكان أوَّل الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام: آدم نبيًّا على المختلفين خَلقًا: (الملائكة، والجنّ، والإنس)؛ ولأنَّ الإنس غير الملائكة، وغير الجنّ؛ فكان بينهم الاختلاف والخلاف كما هو آتٍ:

أوَّلًا: كان الخلاف بين آدم والملائكة على من يكون خليفة في الأرض: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ}[340]. وهنا كان التفضيل لآدم على الملائكة الذي حمل ما لم تحمله الجبال.

ثانيًا: كان الخلاف بين آدم والجنّ: {إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجنّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ}[341]. ثمّ كان الاختلاف والخلاف بين الجنّ، وسيظل على الكثرة مع الكثرة: {وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا}[342]، وقال تعالى: {وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا}[343].

---

340 البقرة 30.

341 الكهف 50.

342 الجن 4.

343 الجن 11.

ثالثًا: كان الخلاف بين الإنس: (آدم وزوجه): وكان من بعدهما الخلاف بين ابنيهما اللذين من بعدهما وقع الخلاف بين النَّاس وسيظل: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[344].

ومع أنَّ الخلاف بين الإنس والجنّ، فإنَّ الفاسقين من النَّوعين يتوافقون فسقًا، والصَّالحين من الإنس والجنّ يتوافقون صلاحًا: {وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالجنّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجنّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا}[345].

وهكذا كان الخلاف يتجدّد، ويتكرّر مع أنبياء الله جميعهم، خلافٌ سببه: الصِّراع بين أهل الحقِّ، وأهل الباطل، فسيدنا إبراهيم عليه السَّلام الذي بُعث للهداية كفر به بعض النَّاس، حتى كادوا أن يقتلوه، ويُحرّقوه لولا فضل الله: {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[346].

وسيدنا نوح عليه السَّلام وهو الأسبق على سيدنا إبراهيم قد خالفه قومه، ومن بعده لوط، وشعيب، وغيرهم من الأنبياء عليهم السَّلام الذين ابتلوا في شعوبهم، وأقوامهم، وقراهم، ومدنهم، وآخرهم رَسُول الكافَّة سيدنا محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ}[347].

---

[344] هود 118، 119.

[345] الجن 5، 6.

[346] العنكبوت 24.

[347] الفرقان 31.

ولأنَّ بني آدم لم يُخلقوا على الكمال؛ فكان الضّعف فيهم رغبة وشهوة؛ حيث اختياراتهم بأيديهم؛ ولذلك فمن عمل صالحا فلنفسه، ومن أساء فعليها: {وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}[348]، أي: إنَّ الضّعف، والوهن هما مكمن العلّة الآدميَّة؛ فمن يقوى من بني آدم ينهض، ويرتقي، ومن يضعف يستكين، ويعوجّ انحرافًا؛ ولهذا بعث الله الأنبياء والرُّسُل الكرام، يرشدون إلى ما يؤدّي إلى القوّة والارتقاء رحمة؛ فكان نوحٌ آيةً، وبين يديه آيات النّهوض ببني آدم إلى ما يجب أن يكونوا عليه قمّة، ولكنَّ الضعف كان في معظم بني قومه آية؛ فكذّبوه، وكفروا به، وبما جاءهم به من الله هداية.

فتلك الفترة التي بُعث فيهما آدم نبيًّا قد انتهت، والخلاف على أشدّه بين بنيه الأوائل؛ فبعث الله نوحًا لهدايتهم، ولكن شدّة الخلاف كانت عائقًا أمام هداية كثيرين منهم؛ فكان الطّوفان حلًّا فاصلًا بين من اتبع الحقّ هداية، ومن ضلّ عنه ضعفًا وانحرافًا: {قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ}[349]. فالقليل هم الأقوياء الذين ارتقوا إلى ما يُمكِّن من النّجاة، أمَّا أولئك الضّعفاء؛ فغرقوا ضعفًا ووهنًا.

وظلّت الحياة بعد الطّوفان العظيم محبّة، ومودّة بين بني آدم الذين نجوا هداية، وقوّة، وارتقاء، ولكن لأنَّ الذين أُهبِطَ بهم ظلوا على الأرض الدّنيا على ما هم عليه من خلاف، فالخلاف بين بني آدم لا مهمَّة له

---

[348] النساء 28.

[349] هود 40.

إلَّا إيقاد نار الفتنة، وهنا تكمن علّة الضّعف، والوهن الآدمي؛ حيث بقاء الشّهوة، والرّغبة الجامحة في نفوس من خلف بعض النّاجين، ممّا ولّد فيهم ما ولَّد من خلافات، وانحرافات، وشدائد، وتأزُّمات، وكأنَّ الطّوفان لم يُحدِث آية؛ فضلَّ من ضلّ إلى أن بعث الله إبراهيم نبيًّا ورَسُولا، ثمّ بعث من بعده من بنيه أنبياء عظام؛ فكان خاتمهم سيدنا محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام نبيًّا ورَسُولا بالرّسالة الخاتمة، وللنَّاس كافّة، ولا إكراه في الدّين؛ إذ تبيّن الرّشد من الغي.

التَّاريخُ نُقلةُ الاستخلاف في الأرضِ:

مع أنَّ الإنسان قد خُلق في أحسن تقويم؛ ليكون خليفة في الأرض؛ فإنَّه لم يحافظ على حُسن خَلقه كلَّما ساءت أخْلاقُهُ؛ ولهذا بعث الله الأنبياء والرُّسُل مصطفين، ومرسلين لأقوامهم، ومدنهم، وقُراهم، وشعوبهم، وقبائلهم ليدعونهم إلى التوحيد، والهداية، ومع ذلك كفر من كفر إلَّا قيلًا منهم.

أمَّا الخليفة فهو من استمد صفاته من صفات خالقه تعالى فعمل بها في الأرض إصلاحًا، وفلاحًا، وإعمارًا، ولا يكون من المفسدين فيها، ولا سافكي الدِّماء بغير حقٍّ.

وقد ورد لفظ: (خليفة) في النّص القرآني في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ ربّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[350]. كان هذا ضمن سياق الآيات العظيمة التي كانت تمثّل

[350] البقرة 30.

البداية الأولى للبشريَّة، فقد وردت ضمن سياق قصَّة رسمت البداية الأولى في كل تفاصيلها، ومن بين هذه التفاصيل كانت الخلافة، وسياق الخطاب القرآني في هذه القصَّة اتسم بالتشريف لآدم.

ويلاحظ أنَّ لفظة الخليفة في النّص القرآني وردت بصيغة التنكير التي تحمل دلالة الإطلاق المنفتح غير المتحقّق على اسم شخص بعينه؛ ولهذا كانت البداية لورود اسم الخليفة بداية لتشكل نمطًا معرفيًّا للصُّورة التي يكون عليها النسق المراد تحقّيقه في الاستخلاف في الأرض.

ولم يكن أمر الخلافة مرتبطًا بـ(آدم) فقد وردت في سياقات أخرى في النّص القرآني: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ}[351]. وقوله تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاس بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}[352].

بناء على ما جاء في هذه الآية الكريمة لا حكم إلَّا بين النَّاس، وعلينا أن نفرّق بين: (حكم النَّاس)، و(الحكم بين النَّاس):

الأوَّلى: أنْ يتم حكم النَّاس كما يشاء مؤتى الحكم من الله تعالى.

والثَّانية: أنْ يتم الحكم بينهم كما هم يرتضون؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاس أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ}[353]؛ ذلك لأنَّ العدل

---

[351] النور 55.

[352] ص 26.

[353] النساء 58.

مُرضٍ لكلّ النَّاس، وهذه الآية الكريمة تؤكد على أنَّ الحكم بين النَّاس، وليس حكم النَّاس؛ ولذا فالذين يحكمون بين النَّاس بالعدل هم الخلفاء بارتضاء النَّاس.

وعليه: فالخليفة العدل هو الذي بحكمه العدل يصلح الأرض ولا يفسد فيها، ولا يسفك دما بغير حقّ: (وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاس)، ولم يقل: (إذا حكمتم النَّاس).

ولذا كان استخلاف داوود في الأرض ليحكم بين النَّاس بالحقّ: (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاس بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى).

وقد يتساءل البعض:

ما هي القاعدة التي أسّس عليها حكم داوود، واستخلافه في الأرض؟

أقول: العدل، وإلَّا هل هناك من يظن غير ذلك؛ والله تعالى يقول: (فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاس بِالحقّ)، وإلَّا هل هناك من يظن أنَّ الحكم بين النَّاس بالحقّ لا عدل فيه؟

أقول: لا عدل إلَّا بالحقّ، أي: لولا الحقّ ما كان للعدل وجود.

وقد يتساءل آخر:

هل يمكن أن يكون الحكم بين النَّاس بغير عدل؟

أقول:

في دائرة الممكن قد يتم الحكم بين النَّاس باتباع الهوى الذي نهى عنه الله تعالى في قوله: (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى).

وقد يقول قائلٌ:

بما أنَّ الحكم بين النَّاس في دائرة الممكن قد يميل بالهوى كما يميل الحاكم عن النَّاس، وإذا ما حدث ذلك فلا يكون فرق بين: (حكم النَّاس) و (الحكم بينهم).

أقول: الفرق كبير بين من يحكم النَّاس، ومن يحكم بينهم، فالذي يحكم النَّاس يكون الأمر كل الأمر بيده، والذي يحكم بين النَّاس يكون الأمر كل الأمر بيد النَّاس؛ مصداقا لقوله تعالى: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[354].

وعليه: فمن يؤمن برسالة محمَّد: (الإسلام) يكون خليفة بما استخلفه الله به في الأرض ألا وهو القرآن، كما استخلف من قبل نوحًا، وقومه الذين آمنوا بما جاء به نوح عليه السَّلام، وهكذا كان من بعده الاستخلاف وفقًا لأمر الله تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ}[355]، استخلاف جيلٍ بعد جيل، قال تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آَلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}[356].

وعليه: فالمستخلفون هم الذين لا يفرِّقون بين أحدٍ من رُسُله، فمثل عيسى كمثل آدم الذي اصطفاه الله على من خلق من ملائكة وجان

---

[354] الشورى 38.

[355] الأعراف 69.

[356] الأعراف 74.

وعلَّمه الأسماء جميعها؛ ولذلك يجب ألَّا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربّنا وإليك المصير.

ولأنَّ المستخلف بالاصطفاء لا يُفرّق بين الذين استخلفوا فيها من قبله بالاصطفاء من أنبياء ورُسُل؛ فكذلك نحن مأمورون من الخليفة محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام بأن نؤمن بما أُنزل على محمَّد، وجميع الأنبياء والرّسُل الكرام؛ قال تعالى: {قُولُوا آَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَإِنْ آَمَنُوا بِمِثْلِ مَا آَمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[357].

ولأنَّ الله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم، فهو خلقه لرِسالة؛ ولأنَّ له رسالة؛ أُستخلف بها في الأرض ليُصلح فيها، ولا يفسد، ولا يسفك الدماء بغير حقّ، إذن الله تعالى اصطفى الرّسُل صلوات الله وسلامه عليهم برسالات الإصلاح المؤسسة على قاعدة الاستخلاف في الأرض، التي استوجبت مخلوقًا في أحسن تقويم، وهكذا الاستخلاف من بعدهم لا يكون إلَّا برسالة، ولأنَّ رسالة محمَّد صلوات الله وسلامه عليه هي الرّسالة الخاتمة، إذن لا خليفة إلَّا ويكون على الرّسالة؛ ولهذا فمن أسلم وجهه لله كان خليفةً، ومن لم يسلم فقدْ فَقَدَ شرطًا رئيسًا للاستخلاف وهو الرِّسَالة.

---

[357] البقرة 136، 137.

والخليفة الخاتم هو محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام، الذي خَلف كلَّ الرُّسُل الذين سبقوه اصطفاءً، وهو الرَّسُول الذي ليس من بعده رَسُول آتٍ، وهو المصدّق على ما سبقه بعد نسخٍ، وتنزيل من لدن عليم حكيم.

ومع أنَّ محمَّدا كان نبيًّا رَسُولا؛ فإنَّه كان معلَّمًا ليُعلِّمَ، وليُفصِّل الآيات الربَّانيَّة بكيفيَّة تُمكِّن المهتدين من الممارسة، والعمل، والسُّلوك كما شاءها الله تعالى؛ ولهذا أمرنا الله تعالى بالإيمان بالرَّسُول، وطاعته، والأخذ بأمره، واتباع نهيه الذي لا يكون إلَّا في مرضاته جلَّ جلاله.

في تلك العصور الغابرة كانت أمَّة العرب بين ظُلمةٍ ونورٍ، وقبائل بدويَّة يغلب عليها طابع التنقل والترحال، فبعث الله فيهم محمَّدا رَسُولا منهم يهديهم، ويعلِّمهم الكتاب والحكمة، وينهض بهم من حياة الخيام، والكفر، والتخلف، إلى حياة الإيمان، والمدنيَّة الآمنة، والمستقرة.

في تلك العصور وقبل بعثة محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام كانت أمَّةُ العرب تتصدَّرُ الحضارات بناءً: (علمًا، وفنًّا، وإعمارًا)، وكان العالم البائد بها يتغنّى، ومع أنَّها عبر التَّاريخ كلَّما انتكست، أو انكسرت أعادت البناء نهوضًا، فإنَّها في عصورنا هذه ألمَّ البياد بها فوهنت، وشاخت.

ففي تلك العصور كانت حضارة: (العرب عاد) لا مثيل لها: {لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ}[358]، ومع ذلك أهلها طغوا، وكفروا بنعمة الله عليهم، فبعث فيهم رَسُولا؛ ليرشدهم إلى التي هي أحسن فلم يهتدوا؛ فكانت الانتكاسة على رؤوسهم بأيديهم كفرًا، وطغيانًا: {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا

---

[358] الفجر 8.

نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا}[359]، إنَّها الانتكاسة من القصر إلى الخيمة، من الحضارة إلى فيافي الصَّحراء، إنَّها حضارة العرب التي كانت: (جَنَّاتٍ وعُيُونٍ)، والتي من بعد أصبحت في خبر كان، ولم يبق شيء في مركز الحضارة: (حضرموت) إلَّا الخيمة، التي نُسجت من شعر المعز، ووبر الإبل.

ولأنَّ العرب أهل حضارات فكلَّما انكسروا في حضارة بنوا غيرها؛ فهم من بعد حضارة: (عرب عاد في حضرموت) بنوا حضارة: (عرب ثمود في شمال الجزيرة العربيَّة)؛ قال تعالى: {وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ}[360]؛ فأولئك العرب بلغوا من التقدُّم ما جعلهم ينقلون المياه في الصَّخر العظيم يجري وكأنَّه وادٍ؛ ليروي الأرض زراعة، حتى قُهرت الحاجة فيهم، وأصبحت الحضارة عنوانهم.

وهكذا كان لحضارات العرب مراكز متقدِّمة في وادي النّيل: أهرامات عملاقة تعدُّ من إحدى العجائب السَّبع التي ما زالت شاهدة على سيادة حضارة العرب: {وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ}[361]، وكذلك حضارة عرب بابل ذات الحدائق المعلَّقة التي هي الأخرى تعدُّ إحدى عجائب الدُّنيا السَّبع في العالم القديم، ومع أنَّ حضارات العرب قد زالت فإنَّ بعض آثارها لا يزال شاهدًا على التَّاريخ الحضاري، فَسدُّ مأرب العظيم في اليمن، ومملكة سبأ التي ذُكرت ملكتها في القرآن لخير دليل على تقدُّم العرب ثقافةً، وعلمًا، وسياسةً، واجتماعًا، فالعرب قبل انتكاسات

---

[359] هود 58.

[360] الفجر 9.

[361] الفجر 10.

حضاراتهم سبقوا العالم في تبوّء المرأة القمم السُّلطانية كونها لم تُعد عورة، وفي عهد تلك الملكة كانت الدِّيمقراطية شورى: {قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ}[362] كما أنَّها، والملك سُليمان عليه السَّلام كانا عَلَمين من أعلام قِمم التقدُّم الحضاريّ للعربِ مصداقًا لقوله تعالى: {قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً}[363]؛ فقال لها النَّبي سُليمان: {إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ}[364].

تلك من شواهد حضارات العرب التي كلَّما انتكست لهم حضارة انكسروا خيامًا، والمرأة تُصبح عورة؛ ومن بعد تلك الحضارات عاش العربُ سنين الظُّلمة يتَّخذون من دون الله أربابًا، حتى بعث الله فيهم رَسُولا منهم: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}[365].

جاء الدّين الإسلامي منزَّلًا على رَسُول من العرب، رَسُول للكافَّة؛ غايته أن يعلّمهم الكتاب والحكمة؛ لينهضوا مما هم فيه من تخلُّف، وعبوديَّة إلى ما هو أعظم تقدّمًا، وأكثر ارتقاءً، وحريَّة؛ إذ: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[366].

ومع أنَّ محمَّدا عربيٌّ من قريشٍ، فإنَّه الرَّسُول الخاتم وللكافَّة؛ ولهذا كانت المدينة المنوَّرة وجهته الحضارية؛ لتأسيس الدَّولة على الشُّورى

---

[362] النمل 32.

[363] النمل 44.

[364] النمل 44.

[365] الجمعة 2.

[366] البقرة 256.

ديمقراطيًّا، لقد اختار رَسُول الكَّافة المدينة؛ لأنَّها المسمَّى الحضاري الذي يحتوي الكلّ، ولا مغالبة، ولا عصبيَّة، وهذا يشير إلى ولادة سياسة جديدة، حكمتها العدل، والبناء والإعمار، كما يشير إلى: (كفاية يا زمن الخيمة، كفاية يا زمن العصبيَّة، كفاية يا زمن الانكسار).

في المدينة كان الأمر بين النَّاس شورى: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ}[367]، أي: في عهدك يا رَسُول الله لا تقرر أمرًا يخصَّهم نيابة عنهم، أمَّا من بعدك فالأمر بينهم لا يكون إلَّا شورى في كلِّ ما يتعلَّق بهم من أمر، فتأسَّست الديمقراطيَّة بينهم على مبدأ: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[368]؛ ومن ثمَّ كان العِلمُ، والفلسفةُ، والحكمةُ جنبًا إلى جنبٍ مع الفتوحات هداية وعمرانًا، حتى الأندلس التي ما زالت شواهد الحضارة: (العربية الإسلاميَّة) فيها على قيد الحياة قِبلة السَّائحين في العالم.

ولأنَّ محمَّدا عليه الصَّلاة والسَّلام، كان عازمًا على النُّهوض بالعرب بالإسلام، عمل على تأسيس مجتمع المدينة؛ ليكون أنموذجًا للحياة المدنيَّة، والحضاريَّة؛ وذلك بغاية التخلُّص من حياة القبيلة: (العصبيَّة) فوثَّق ذلك في وثيقة المدينة: (الميثاق الوطني)، التي ساوت بين سُكَّانها بمختلف أديانهم، وألوانهم، وأعراقهم، إنَّهم: (أمَّة واحدة).

وعليه: فإنَّ اختيار الرَّسُول: (للمدينة المنوَّرة) مقرًّا لتأسيس الدَّولة جعل التطابق بين: (اسم المدينة، وصفتها)، أي: إنَّ اسمها المدينة، وصفتها المدنيَّة، ورسالتها التمدُّن بغاية التحضُّر؛ ولذا فاختيار المدينة في

---

[367] آل عمران 159.

[368] الشورى 38.

ذاته يدلُّ على روح القصد من الاختيار وهو الارتباط بالمدينة؛ كونه المحقق للرِّفعة، وتبوُّء المكانة، التي لا تفريق فيها بين أهلها وإن تفرَّقت عروقهم، وأديانهم. ولتبيان القصد من وجهة نظرنا أتساءل:

لماذا اختار الرَّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام المدينة المسماة: (المدينة)، ولم يختار غيرها من المدن التي لم تسمَّ باسم: (المدينة)؟

من هنا نَستمدُّ القصد، وبخاصَّة جاءت وثيقة المدينة مرسِّخةً للمدنيَّة، والدَّولة الوطنيَّة: "بسم الله الرَّحمن الرَّحيم هذا كتاب من محمَّد النَّبي: (رَسُول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش، وأهل يثرب، ومن اتبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم. إنَّهم أمَّةٌ واحدة من دون النَّاس"[369]. في عهد الرَّسُول كانت الشُّورى بينهم وبينه عليه الصَّلاة والسَّلام، أمَّا من بعده فأصبح الأمر بينهم شورى كما سبق تبيانه.

الاستخلاف بين الإيمان والكفر:

بالنِّسبة إلى المؤمنين بالرَّسُول الخاتم ورسالة الكافّة مَنْ يشرك بالله فقد كفر (من يضع الخالق في مستوى المخلوق فقد كفر)، أمَّا بالنّسبة إلى المسيحي الذي لم يأخذ بما أمر الله به فلا يرى الإيمان إلَّا تثليثًا، أمَّا الكافر بالمعتقدين معًا فلا يؤمن بوجود الألوهيّة، بل لا يرى مِن مُسيّرٍ للكون إلَّا الكون ذاته؛ وذلك بقوله: الكون خَلق نفسه ولا خَالق من ورائه؛ ولذا فهم يؤمنون بخلق الكون لنفسه ويكفرون بالله جلَّ جلاله.

[369] محمود بسيوني شريف، الوثائق الدولية المعنية بحقوق الإنسان، المجلد الثاني، دار الشروق، القاهرة، 2003.

إذن: فمفهوم الكفر يتعلَّقُ بالمعتقد تسليمًا وتسفيهًا، وطاعة وعصيانًا، واعترافًا وإنكارًا، واتباعًا واعتراضًا، ومن هنا فإنَّ (التسليم والطّاعة والاعتراف والاتباع للحقِ) يشير إلى الإيمان ويدلُّ عليه؛ حيث لا كفر، وفي المقابل (التسفيه والمعصية والإنكار والاعتراض على الحقِّ وإحقاقه) يشير إلى الكفر ويدلُّ عليه.

ولكن أيُّ إيمانٍ وأيُّ كفرٍ؟

إنَّه الإيمان بما يُعتقد، والكفر بما لم يُعتقد؛ وهذين الأمرين لا يقتصران على معتقدٍ بعينهِ، بل أيِّ معتقدٍ؛ ولذلك فما يراه البعض كفرًا يراه البعض إيمانًا.

ومع أنَّ الحقّ واحد (لا إله إلَّا هو)، وأنَّ الحقيقة واحدة (هِي كما هِي) فإنَّ مَن يعتقد في شيء ويكفر بغيره فلا يرى غيره إن اتخذ ما يكفر به من معتقدٍ إلَّا كافرًا، وفي المقابل هو أيضًا سيكون منعوتًا بالكفر من قِبل مَن يكفر بما قد آمن به؛ ولذا فمع أنَّ الحقيقة واحدة فإنَّ مقاييسها في دائرة الممكن نسبيَّة؛ ولهذا دائمًا وفي كلِّ المرَّات العيب لا يلحق إلَّا المقاييس، ولا يلحق الحقيقة مرَّة واحدة.

ولأنَّ المقاييس نسبيَّة فلا يجوز الاحتكام بها إلَّا في دائرة الممكن؛ ولذا فلا مُطلقيَّة لها أبدًا؛ ومن ثمَّ فالحكم على الكفر وكأنَّه مفردة إسلاميَّة مطلقة وليس بمفردة لغويَّة لا يُمْكِنُ أنْ يُمكِّنَ من معرفة حقيقة الكُفر ودلالته مفهومًا ومعنى، ومن ثمَّ فالكفر لا وضوح لمفهومه إلَّا بما يدلُّ عليه من قولٍ وفعلٍ وعملٍ وسُلوكٍ.

وبالتوقّف عند كلمة (الكفر) يلاحظ أنَّ مفهومها يتأرجحُ بين سالبٍ وموجبٍ، فهو:

. السَّالب: عندما يَدلُّ على إنكار الحقِّ، وارتكاب الباطل، وإنكار الخالق وواحديَّته والكفر بربوبيَّته، ورفض رسالة الكافّة والرَّسُول الخاتم، والتفريق بين رُسُل الله وأنبيائه، والكفر بأنعم الله، وإنكار البعث والحساب والعقاب والجنَّة والنَّار.

أمَّا الموجب: فعندما يَدلُّ مفهوم الكفر على الباطل، وكذلك عندما يدلُّ على الشّرك، والكفر بإنكار الواحديَّة، والكفر بالطَّاغوت، والكفر بالظُّلمِ والعدوان، والكفر بالأعمال الشّيطانيَّة، والكفر بإزهاق الحقّ، والكفر بمن يفرّق بين أنبياء الله ورُسُله عليهم الصَّلاة والسَّلام، والكفر بكلّ ما يؤدّي إلى فتنة بين النَّاس وإفسادٍ في الأرض.

ووفقًا لهذه القاعدة فإنَّ الكفر هو حطبُ نار الصّراع والاقتتال والافتتان بين أهل الحقِّ والباطل، ومن هنا فإذا حاول الكافرون في دائرة السّلبيَّة امتدادًا على حساب سيادة الكافرين في دائرة الإيجابيَّة؛ حدث التَّماس ونشب الصّراع بينهم والاقتتال فتنة، وكأنَّه قانون فطرة وقد فطر الإنسان عليها؛ قال تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ}[370]، أي: لو لم يكفر البعض بالفتنة وبموقدي نارها لفسدت الأرض، ولسادت الفتنة بين النَّاس وكأنَّها المأمولة بينهم غاية.

---

[370] البقرة 193.

وعليه: فإنَّ تفسير هذه الآية الكريمة لم يكن كما يظنُّ البعض أنَّ الدّين الإسلامي يأمر بقتال الكافرين لا لشيء إلَّا لأنَّهم لم يكونوا من المسلمين، بل الاقتتال هنا قانون فطرة جعل النزاع والاقتتال بين الحقّ والباطل أمرًا مفعولًا ولا فرار منه، ولأنَّ القرآن مصدر المعرفة الحقّة والدِّراية الحقَّة؛ نصَّ على وجوب ما ترتضيه الفطرة التي خُلق النَّاس عليها، وهي: وجوب مقاتلة أهل الفتنة سواء أكانوا مسلمين أم ليسوا بمسلمين؛ ذلك لأنَّ أهل الفتنة (من يكونوا) لا يمكن أنْ يهدأ لهم بال إلَّا بإيقاد نارها بين النَّاس، ومن ثمَّ أوجب الله –تعالى– مقاتلتهم؛ حتى تطفئ نيرانها وإلَّا فالظلم يسود، والأرضُ تفسد.

ومع أنَّ الكُفر إنكارٌ للحقيقةِ فإنَّ التكفير عن الكفرِ ينفض الغبار عنها (ينفض الغبار عن الحقيقة، ويُمكِّن من العودة إليها والأخذ بها)، ومن هنا فالكفر في دائرة النسبيَّة متحرّك بين امتدادٍ وانكماشٍ، وبين اعترافٍ وإنكارٍ، وبين إقدامٍ وإحجامٍ؛ ففي دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع كل شيء قابل للتغيير حُجَّة وجدلًا وبرهانًا، ومن ثمَّ فالتكفير في مرضاة الله واتقائه يمحو ما يُرتكب من سيئات: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}[371].

إذن: فكلمة الكفر لا مفهوم لها وضوحًا إلَّا بما تدلُّ عليه من معنى، أو فعلٍ، أو عملٍ، أو سُلوكٍ، وبهذا يكون الكفر اتخاذ موقف مما لا يجب، سواء أكان مرضيًا للبعض أو مغضبًا لهم، ومن هنا فالكفر لا يخرج عن

[371] الأنفال 29.

دائرة النّسبيَّة والممكن، ومن ثمَّ فما يبدو لك محبَّبًا ومرغوبًا ومفضّلًا قد يبدو لغيرك مكروهًا ومرفوضًا ولا يؤخذ به، ومع ذلك لا ينبغي أن تصدر الأحكام على المخالفين هكذا جزافًا، بل وفقًا للمعياريَّة الأخلاقيّة والإنسانيَّة التي لا مكان فيها للانحياز والمظالم.

إذن: فبالنِّسبة لأهل الحقّ يعدُّ الكفر بالحقِّ باطلًا، وفي المقابل لا يعد كذلك بالنّسبة إلى من لا يرى في إحقاق الحق إلَّا قيدًا عليه، ومن هنا فبالنّسبة إلى أهل الحقّ جاء الكفر في مواجهة مفهوم إزهاق الحقِّ حقًّا، أمَّا بالنّسبة إلى من تمسّك بالباطل فلا يرى التمسُّك بالحقِّ والعمل على إحقاقه إلَّا كفرًا وباطلًا، وهكذا أهل الشّرك لا يرون التمسّك بالشّرك كفرًا، بل يرون من ينكر ذلك هو من يشار إليه كافرًا.

وعليه: فإنَّ كُفر الإنسان بالباطل لا يعدُّ إلَّا حقًّا، ومن ثمَّ فكفره بالظّلم والظّالمين هو الآخر لا يعد إلَّا حقًّا، وفي المقابل كفره بالعدالة يعدُّ باطلًا؛ ولأنَّ مفهوم الكفر ليس بمتضادٍّ مع مفهوم الإيمان، فإنَّ بعض المؤمنين يرتكبون الباطل، ويفسدون في الأرض، وفي المقابل غيرهم ممن لا يدينون بالإسلام أو لا يؤمنون به يمتنعون عن ارتكاب مثل هذه الأفعال التي يجب الكفر بها وبمن يرتكبها.

ومن هنا جاء مفهوم الكفر بالله باطلًا، والكفر بالشِّرك حقًّا، وهكذا الكفر بالحقِّ باطلًا، والكفر بالباطل حقًّا، والكفر برسالة محمَّد باطلًا، والكفر بمن كفر برسالة محمَّد حقًّا، والكفر بالأعمال الشيطانيَّة حقًّا، والكفر بمن يكفر بالأعمال الشيطانيَّة باطلًا.

إذن: مما تقدَّم نرى أنَّهُ من بابِ الوجوبِ أن يكفر المسلم بكلِّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الكفر بالحقيقة، وهنا لا يصحُّ أن نُشير أو نصف (الكفر) بأنَّه سالبٌ، أو أنَّه لا يكون صفة إلَّا لمن لم يكن مسلمًا؛ ولهذا فدائمًا الكفر بالباطل حقّ، والكفر بالظّلم حقّ، والكفر بقتل النَّفس بغير حقٍّ حقٌّ، وهذه جميعها موجبة الاتباع والأخذ بها.

ومن ثمَّ فالفرد المسلم، والجماعة المسلمة، والدَّولة المسلمة يجب أن يكونوا هم أوَّل من يحافظ على هذه الصّفة الحميدة (الإسلام دين المحبَّة)؛ إذ لا إكراه، ومن ثمَّ فيجب أن يكونوا هم أوَّل النَّاس الكافرين بالظّلم والعدوان وقتل النَّفس بغير حقٍّ، وبكل ما يؤدّي إلى الإفساد في الأرض، وفي المقابل إنْ ظلموا واعتدوا بغير حقٍّ وأفسدوا الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة فليس لهم من صفة ينعتون بها إلَّا صفة (الكفر)، مع العلم أنَّ هذه الصّفة لا تلحق المواطنين الذين ليس لهم يدٌ بما يجري من مفاسد ومظالم على أيدي من يتولّون زمام الأمور في أوطانهم ويمتلكون القرار فيها دون غيرهم.

وبما أنَّ الكفر وفقًا لما تقدَّم ليس بالمفهوم المضاد للإيمان إذن: فما هو المفهوم المضاد لمفهوم الكفر؟

أقول: إنَّ الكفر (غضبٌ على قولٍ، أو معتقدٍ، أو فعلٍ، أو عملٍ، أو سلوكٍ مع وافرِ الرَّفض وقبول التحدّي بغير حقٍّ)، وفي مقابل هذه المفاهيم الدّالة على الكفر يأتي مفهوم (الرِّضا عن القولِ، أو المعتقدِ، أو الفعلِ، أو العملِ، أو السُّلوكِ وتقبُّله مع وافر المناصرة الحقَّة)، وبهذه

المفاهيم المتضادة يكون مفهوم الرِّضا في مواجهة مفهوم الكفر، وليس الكفر في مواجهة الإيمان أو الإسلام.

ولأنَّ مفهوم الكفر يحتوي في مضمونه (القول والفعل والعمل والسُّلوك) وليس بمفهومٍ مجرّدٍ في ذاته، إذن يحتوي مفهوم الكفر في مضمونه (الغضب والإنكار) وهذا الأمر يجعل مفهوم (الرِّضا والاعتراف) في مواجهة صريحة مع مفهوم الكفر.

وكما أنَّ مفهوم الكفر يحتوي في مضمونه على مفهومي: (الغضب والإنكار) فهو كذلك يحتوي على مفهوم (الرَّفض) جنبًا إلى جنب مع مفهومي (الغضب، والإنكار)، وفي مقابل هذه المفاهيم تأتي مفاهيم أخرى لتضاداها، ومنها: (القبولُ، والاعترافُ)، أي: ما يرفضه البعض معتقدًا يقبله البعض الآخر وبه يعترف.

وكذلك فمفهوم الكفر يحتوي في مضمونه (الخروج عن الطَّاعة الحقَّة) الذي يؤدِّي إلى مواجهة مع مفهومي: (السَّماع والاتباع صوابًا)، ومن هنا فمفهوم الكفر يدلُّ عند البعض على التأبّي والترفُّع على الحقِّ بغير وجه حقّ، وفي المقابل عند البعض الآخر يرى الكفر حقّ لمن يكفر بمن كفر بالحق وتأبَّى عليه.

إذن: الكافر في غير مرضاة الله هو من يركب رأسه نكايةً وكرهًا وكيدًا وظلمًا وعدوانًا على الغير وما يعتقدون أو يعملون ويفعلون، وفي مقابل هذا المفهوم الكفري يأتي مفهوم من أناخ بعيرهُ مسلِّمًا بما يجب مع الأخذ به واجتناب ما يُنهى عنه، أمَّا الكافر في مرضاة الله فليس

براكبٍ لرأسه، بل هو الذي إذا ما تمسَّك بالحقِّ فلا يحيد عنه ولو كانت نفسه فداء له.

وعليه: فمع أنَّ الكفر عند عامَّة المسلمين كما سبق تبيانه لا يكون إلَّا باطلًا، فإنَّ مفهوم الكفر في ذاته ليس بباطلٍ؛ ذلك لأنَّ الكفر يعني: عدم التسليم بما لا يجب التسليم به أو التسليم إليه، وبهذا المفهوم لا يكون الكفر إلَّا موجبًا، أمَّا ما يكون عليه في مضادة لهذا المفهوم فلا يكون الكفر إلَّا سالبًا.

ولأنَّ مفهوم الكفر ليس بمفهومٍ مطلقٍ جاء أمر التكفير عنه ميسّرًا لنسخ أثره، وفي معظم القضايا يصبح الكفر وكأنَّه لم يكن؛ قال تعالى: {وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[372].

إذن: فمن يتّقي الحقّ من بعد كفرٍ ويتجنَّب الباطل يكفّر الله عنه سيئاته التي كانت سبب كفره وعلَّته، ثمَّ يعظِّم له أجرًا: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا}[373].

ولسائل أن يسأل: وما هو مفهوم التكفير؟

أقول: مفهوم التكفير هو: التخلّي عمَّا كان يعمله الكافر من مفاسد ومظالم وأعمال هدميَّة (شيطانيَّة) لا تُرضي الله، ولا تليق ببني الإنسان، وتتعارض مع القيم الحميدة والفضائل الخيِّرة، التي ترسّخ قيمة الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم؛ ولهذا فإنَّ التكفير لا يكون إلَّا

---

[372] التغابن 9.

[373] الطلاق 5.

من بعد وعيٍ بما يجب والإقدام عليه، ومن ثمَّ فهو بالإخلاص التَّام يُمكّن من التّوبة التي لا عودة إلى الكفر من بعدها؛ قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ}[374].

إذن: فالتّكفير فعل تتحقّق به المراجعة الواعية لما سبق؛ بغاية فرز الصَّفحات ذات المعلومات المشوَّهة والخاطئة من الصَّفحات ذات المعلومات الصَّائبة؛ وذلك لأجل عدم العودة إلى قراءة تلك الصَّفحات أو الأخذ بما كُتب فيها من أقوالٍ تكفيريَّة.

ومع أنَّ بعض المفسِّرين ارتأوا ومالوا إلى أنَّ مفهوم الكُفر هو التغطية والستر فإنَّ ما نراه أنَّه ذو مفهوم آخر؛ وذلك لأنَّ مفهوم التغطية والستر والتغليف كما جاء في تفسيرهم هو أقرب إلى مفهوم الكلمة الإنجليزيّة وهي: كفر (cover)، ومن ثمَّ فهذا المدلول في اعتقادنا لا يتعلَّق بمفهوم الكُفر في اللغة العربيَّة، وبخاصَّة أنَّ مفهوم الكُفر يشيرُ إلى كشف الزّيف عن الحقيقة وتقديمها كما هي؛ إذ لا غموض، وإلَّا هل يُمكن أن يكفر الإنسان بالباطل وهو غير قادرٍ على كشف زيفه؟؛ ولذا فلا إمكانيَّة لإظهار الحقيقة إلَّا بكشف الزيّف عنها، ومَن يتمكَّن مِن كشف الزّيف موضوعيًّا ليس له بدّ إلَّا الكفر به، ثمَّ اتباع الحقّ والأخذ بالحقيقة موضوعيًّا.

وإذا سلّمنا بأنَّ الكفر ستر وتغطية كما جاء في اللغة الإنجليزيَّة (cover) فإنَّنا كمن يسلِّم بحجب الحقيقة التي لا ينبغي لها أن تُحجب،

---

[374] التحريم 8.

ولتبيان ذلك وتوضيحه نعرف أنَّ الإيمان بالله وحده حقّ، والعدل حقّ، واتباع الرَّسُول محمَّد النَّبيّ الخاتم حقّ، والجنَّة حقّ، والنَّار حقّ، والحساب والعقاب حقّ، والبعث حقّ؛ ومن ثمَّ أتساءل:

إذا شاءت نفس الإنسان أن تكفر فهل ستكفر (موضوعيًّا) بما هو حقّ، أم ستكفر بما هو باطل؟

في اعتقادنا ووفقًا لما سبق تبيانه فإنَّه في الحالتين يُمكن لنفس الإنسان أن تكفر؛ ولكن إن كفرت النَّفس بالحقِّ فإنَّها بهذا الكفر قد غطَّت الحقيقة وحجبتها مع أن الحقيقة موضوعيًّا لا تُحجب أبدًا، وهي في هذا السِّياق: مثل الشّمس التي وإن غربت مساء كلِّ يومٍ فأنَّ غروبها لا يلغي بقاءها على قيد الحياة وجودًا؛ قال تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ}[375]؛ وقال تعالى: {فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ}[376].

أمَّا إذا كفرت النَّفس بما هو باطل، فإنَّها بكفرها هذا قد كشفت حقيقته (أنَّه الباطل)؛ ومن ثمَّ أخذت بالحقِّ، ثمَّ استطاعت إظهاره حقيقة للعيان وإخضاعًا للقياس، الذي يُمكِّن من المعرفة الواعية والدِّراية التَّامَّة، وهي في هذا السّياق كمن يدعو مَن يدعو من دون الله وهو ظانٌّ بأنَّه القادر على كشف الضرّ عنه في الوقت الذي تكون فيه حقيقة هذا الأمر باطلًا: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ

---

[375] آل عمران 98.

[376] البقرة 89.

وَلَا تَحْوِيلًا}[377]؛ وقال تعالى: {ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ}[378].

ولنميّز بين أهل الحقِ وأهل الباطلِ، نقول: إنَّ أهل الحقّ هم (الرِّجال القوَّامة) الذين يكفرون بالباطل، وبأعمالهم الحسنة يتولَّاهم الله ويخرجهم من الظُّلمات إلى النّور، وفي المقابل أهل الباطل هم الذين يكفرون بالحقِّ، ويتولَّاهم الطَّاغوت، وبأعمالهم السّيئة يخرجهم من النّور إلى الظّلمات؛ قال تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ}[379].

إذن من يغزوه الكفر بالشّيء (أيِّ شيءٍ) يكفر به، ومن يغزوه الإيمان بأيِّ شيء يؤمن به، وهكذا هو الصِّراع بين من يغزو عقله وقلبة الحقّ، ومن يغزو عقله وقلبه الباطل.

وعليه: فكما يكفر أهل رسالة الكافَّة والرَّسُول الخاتم بالظّلم والعدوان، فإنَّهم يكفرون بالشِّرك والطَّاغوت، وكل ما من شأنه أن يكون سببًا في إفساد الأرض؛ ولذلك فأهل الحقّ مأمورون بالكفر بكل الأعمال الشيطانيَّة: {يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ}[380].

ومن هنا فمفهوم الكفر المأمور به كما جاء في الآية السَّابقة ليس دائمًا كما يظن البعض بمفهومٍ سالبٍ، وليس بمفهومٍ ملتصق بمن نعتوا به

[377] الإسراء 56.

[378] غافر 12.

[379] البقرة 257.

[380] النساء 60.

أنَّهم كفرة، ومن ثمَّ فلم يكن مفهوم الكفر ملتصقًا بستر الحقيقة، بل إنُّه الكاشف لها والمبيّن.

ومن ثمَّ فالخلاف غزوةٌ دائمًا معركة بين من يكفر ومن يكفر (من يكفر بالطَّاغوت، ومن يكفر بالله)، أي: بين من يؤمن ومن يؤمن (من يؤمن بالله، ومن يؤمن بالطَّاغوت)، ومن هنا يحدث الخلاف والصّدام والاقتتال، ولم يكن الاقتتال كما يظن البعض أنَّه المكتوب بين المسلم وغير المسلم، بل الاقتتال لا يكون إلَّا بين من يتّبع الحقّ ويتمسّك به ومَنْ يكون، وبين من يتَّبع الباطل ويتمسّك به ومَنْ يكون، ومع ذلك فالاقتتالات تُكتب كرهًا على من لا يؤمن بالاقتتال وكأنَّه الحلّ أو المخلّص والمنقذ؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}[381]، أي: لو لم يقاتلكم أهل الظّلم والعدوان، وأهل الفتن والإفساد في الأرض، وأهل الطَّاغوت فلا تقاتلوهم أبدًا؛ ولهذا جاء التوضيح بقوله تعالى: (وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)، وهكذا جاء دين الهداية بالحقِّ؛ حيث لا إكراه لمن خُلق في أحسن تقويم: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[382].

إذن: فَمَن يؤمن بالله ورُسُله ويكفر بالطَّاغوت، ويؤمن بالعدل ويكفر بالظّلم، ويصلح في الأرض ولا يفسد فيها فلا يعدُّ إلَّا من أهل

---

[381] البقرة 190.

[382] البقرة 256.

الحقِّ، وفي المقابل من يكفر بالله ورُسُله ويؤمن بالطَّاغوت، ويؤمن بالظّلم ويكفر بالعدل، ويفسد في الأرض فلا يعدُّ إلَّا من أهل الباطل: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[383].

يُفهم من هذه الآية الكريمة أنَّ الشّيطان موحِّدٌ؛ فلا يُشرك بالله أحدًا، وفي المقابل مع أنَّ أهل الدِّيانات الواحديَّة يؤمنون بالله فإنَّ بعضهم بالله يشرك، أمَّا الشّيطان بكل ما لديه من أعمال شيطانيَّة فلم يشرك بالله، بل بشرك الله –تعالى–يكفر: (إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ)، أي: لقد كفر الشّيطان بما ارتكب بعض بني آدم من أعمال شركٍ أشركوه فيها مع الله؛ ذلك لأنَّ بعض النَّاس استعانوا بالشّيطان في قضاء في الوقت الذي فيه حاجاتهم لا تقضى إلَّا بأمر الله وإذنه.

ومن ثمَّ فهم عِوضَ أن يستعينوا بالله –تعالى–استعانوا بالشّيطان وكأنَّه شريك لله جلَّ جلاله، وهذه الإعانة التي كشف سرها الشّيطان قد كفر بها؛ لأنَّه يعلم أنَّه لم يكن شريكًا لله؛ ومن ثمَّ فالكفر الذي ينبغي أن يكون أوَّل من يكفر به هم بنو آدم، كَفَر الشّيطان به وترك لهم المجال فسيحًا لمن شاء أن يُشرك كفرًا، ومع ذلك فقد تبرَّأ من الذين أشركوه مع الله بغير حقّ (إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ) فهذه الآية بهذا المفهوم تدلُّ على استهتار الشّيطان واستهزائه وكفره بمن أشركه مع الله بغير حقٍّ.

---

[383] إبراهيم 22.

ولأنَّ مفهوم الكفر يحتوي في مضمونه الضّلال عن الحقيقة فإنَّ مفهوم الهداية يأتي متضادًّا لمفهوم (الكفر)؛ ذلك لأنَّ الهداية لا تكون إلَّا عن دراية ومعرفة واعية بما يجب وما لا يجب مع حسن الاختيار والاتباع، ومن ثمَّ فالكفر في دائرة السلبيّة لا يزيد الصدور إلَّا ضيقًا من بعد ضيق، وفي المقابل الهداية في دائرة الإيجابيَّة لا تزيد الصُّدور إلَّا انشراحًا: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ}[384]؛ ولهذا فالكفر في دائرة السلبيَّة لا يزيد الإنسان إلَّا ضيقًا وضلالًا، أمَّا الهداية فلا تزيده إلَّا ثباتًا ودراية؛ قال تعالى: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا}[385].

ومع أنَّ الله أنزل آياته المعجزة حقائق ماثلة للمشاهدة والملاحظة فإنَّ الكافرين بها يفسقون، أي: لها يجحدون وينكرون، وعلى الرَّغم من حقيقتها شاهدة أمامهم فهم بها يكفرون: {وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ}[386].

ولذا فالكفر في دائرة السّلبيَّة علّته إنكار الحقيقة، ومن ثمَّ فلا بدَّ أنْ يكون الخلاف مع من ينكر الحقيقة، سواء أكان على دين الله موحّدًا، أم على دين الله مشركًا، أم ليس له دين سوى الضّلال: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}[387].

---

[384] الأنعام 125.

[385] النساء 146.

[386] البقرة 99.

[387] الإنسان 3.

يُفهم من الآية الكريمة السَّابقة أنَّ مفهوم الكفر جاء متضادًّا مع مفهوم الشُّكر {إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}؛ ولذا فلا كفر إلَّا عن إنكار وعصيان، ولا شكر إلَّا عن اعتراف وطاعة واتباع؛ مصداقًا لقوله تعالى: {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا}[388]، فعبدًا شكورًا (عبدًا طائعًا موحِّدًا ومعترفًا بفضل الله عليه)، ومن ثمَّ فمفهوم هذا المعنى (شكورًا) يأتي في مضادة تامَّة لمفهوم الكفر.

ومع أنَّ الشّكر دليل اعترافي بالمشكور، فإنَّ منافع الشّكر ومكاسبه لا تعود إلَّا على الشَّاكر: {وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}[389]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}[390]؛ ولهذا فالله –تعالى- على الرُّغم من شكرنا له فشكرنا له لا يزيده شيئًا ولا ينقص منه شيئًا؛ وهو المنعم والمطعم بنعمه التي لا تحصى وهو الكريم الذي لا يريد منَّا جزاءً ولا شكورًا: {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا}[391].

ولأنَّ مفهوم الكفر مفهوم (عصيان وإنكار لما يجب الاعتراف به) جاء مفهوم الشُّكر متضادًّا مع مفهومه (اعترافًا بما يجب الأخذ به طاعة)؛ ومن هنا يولد الاستكبار الذي هو الآخر لا يكون إلَّا عن معصية، والمعصية للحقّ لا تكون إلَّا عن كفرٍ؛ قال تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ

---

388 الإسراء 3.

389 النمل 40.

390 لقمان 21.

391 الإنسان 9.

إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}[392].

يُفهم من هذه الآيات الكريمة أنَّ إبليس يؤمن بخالقه تعالى (خَلَقْتَنِي)، وفوق ذلك يتفاخر بخلقهِ له من نارٍ، وفي المقابل يسخر من خلق آدم ويقلل من شأنه؛ كونه المخلوق من طين (أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ).

ولأنَّ إبليس يؤمن بالله تعالى فقد أقرّ بذلك وهو يترجّى الله أن يمنحه الفرصة ويمهله حتى يوم البعث الذي تنكشف فيه الأوراق الممتلئة حسنات بعد أن تفرز منها تلك الصّفحات الممتلئة سيئات أمام أعين فاعليها ومرتكبيها (قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ).

كما أنَّ هذه الآيات تكشف أنَّ مفهوم الكفر معصيةً جاء متضادًّا مع مفهوم (الطَّاعة والاتباع)، ومن ثمَّ فإنَّ معصية إبليس لأمر الله بالسّجود لآدم جعلته عاصيًا كافرًا: {إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}؛ ولذا فلم يأتِ مفهوم الكفر بعدم الإيمان بالله، بل جاء فقط

[392] ص 71 – 83.

بمفهوم المعصية، وإلّا لو لم يكن إبليس مؤمنًا بواحدية الله تعالى لما قال: {فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}[393].

وعليه: فمفهوم الكُفر مفهوم معصية، وعدم طّاعة، وعدم اعتراف بما يجب، وعدم الإيمان بالحقِ وتكبّرًا عليه، ومن ثمَّ فلم يكن مفهوم الكفر كما يعتقد البعض بأنّه الكفر بالله، فلو كان الأمر كذلك ما وُصف إبليس بالكفر في الوقت الذي هو فيه يؤمن بالله واحد أحد.

ومن هنا ماذا يُقال لعبدةِ الشّيطان الذين يؤمنون به ويكفرون بالله تعالى؟

أقول لعلّ القول يكون: كيف تكفرون بالله وتؤمنون بالذي يؤمن به ولا يشرك معه أحدًا؟

نعم. مع أنَّ عبدة الشّيطان يكفرون بالله، فإنَّ الشّيطان الذي يعبدونه يؤمن بالله ولا يشرك به أحدًا؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[394].

إذن: مع أنَّ إبليس يؤمن بالله –تعالى–فإنَّه قد وُصف بالكافر؛ وذلك لعلَّةٍ رئيسة في نفسه؛ وهي استكباره وعدم طاعة أمر السّجود لآدم عليه السَّلام {إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}[395].

---

[393] ص 82، 83.

[394] إبراهيم 22.

[395] ص 74.

وهكذا بالتمام لقد جاء مفهوم الكافر في عمومه بدلالات التكذيب والمعصية والتكبُّر والتأبِّي على الحقِّ؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَنْ كَانَ كُفِرَ}[396]، أي إنَّ الذين استهزءوا بعمل نوح –عليه السَّلام–وكذّبوا أن يكون نوحٌ صانعًا للفُلكِ العظيمِ؛ فبعد صُنعه للفُلك وجريانه في البحر أصبحت الحقيقة التي كذّبها من كذّبها (الذين كفروا بها وبنوحٍ وصُنعهِ) ماثلة أمام الأعين معجزة جزاءً لمن كان مكذّبًا (جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ).

ولأنَّ الكافر هو من لا يحتكم بالحقِّ، إذن فمن يحتكم به ليس بكافرٍ، ومن ثمَّ فإنِ احتكم المؤمن أو المسلم بالحقِّ فلا شكَّ أنَّ من يخالفهما في ذلك سيكون هو من يشار إليه بالكافرِ، وفي المقابل إذا أخذ بالحق من لم يكن مسلمًا ولا مؤمنًا ولم يأخذ به المؤمن والمسلم فسيكون من يشار إليه بالكفر في مثل هذه الحالة هو من يدَّعي الإسلام والايمان؛ قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[397]، في هذه الآية ارتبط مفهوم الكفر بالعمل الذي لا يكون فعله وأثرهُ إلَّا خيرًا، ومن ثمَّ فلا يُمكن أن يوصف فاعل الخير بالكافر حتى وإن لم يدخل الإسلام، مع العلم أنَّ أصحاب الأعمال الخيّرة في معظم نهايات حياتهم يؤمنون ويسلمون: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[398].

[396] القمر 13، 14.

[397] التغابن 2.

[398] الكهف 29.

في هذه الآية الكريمة ارتبط مفهوم الإيمان والكفر بقول الحقّ: (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ)، ولأنَّه لا حقّ بالمطلق إلَّا بمقاييس الخالق ومعاييره التي لا تكون إلَّا متطابقة مع أمره تعالى، نجد التمسّك بالقول الصّادق والعمل الصّادق عند كثير من الذين لا يدينون بالإسلام إلى جانب إخلاصهم في الأعمال التي تناط بهم، وفي المقابل نجد ما يخالف ذلك لدى بعضٍ من المسلمين، ويا ليتهم يهتدون إلى ما يجب اتباعه والإقدام عليه، والتخلي عن كل ما من شأنه أن يؤدّي إلى الكفر بأنعم الله.

ولأنَّ الكفرَ ذو مفهوم متضاد مع مفهوم التكذيب جاء التكذيبُ للحقّ بمفهومِ الكفر: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ}[399]، فقوله: (فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ) ليس بمفهوم (منهم من دخل الإسلام ومنهم من لم يدخل الإسلام)، بل جاء بمفهوم (منهم من كذَّب ومنهم من صدَّق)، أي إنَّ الذين (جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ)، والبيِّنات هنا (الحقائق) فهم لو أخذوا بها ما اختلفوا (وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ) أي: منهم من صدّق البيّنات (الحقائق) وأخذ بأمرها واتبع هداها، ومنهم من كذَّب وبها كفر؛ ولهذا فهم اختلفوا بين مصدّقٍ ومكذِّبٍ.

ولأنَّ الكفر ليس بمفهومٍ متضادٍ لمفهوم الإيمان والإسلام؛ قال تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ}[400]، أي: قد كَذَبَ

---

[399] البقرة 253.

[400] المائدة 17.

من قال: إنَّ الله هو المسيح ابن مريم، وقد كَذَبَ من قال: إنَّ الله ثالثُ ثلاثة: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ}[401]، فَمِن مفهوم الآيتين السَّابقتين أنَّ الذين قالوا: (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ)، والذين قالوا: (إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ) لا شكّ أنَّهم يؤمنون بالله ولم يكفروا به، أي: مع أنَّهم يؤمنون بالله تعالى (مسلمون) فإنَّهم أشركوا به، أي: مع أنَّهم لم يكفروا بالله (لم ينكروه) فإنَّهم لم يأخذوا بأمره كلِّه، ومن هنا جاء التكذيب الذي به وصفوا كافرين (مكذِبين)، ومن ثَمَّ فمن كفر فعليه كفره: {مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ}[402].

يُفهم من الآية السَّابقة أنَّ مفهوم الكفر قد جاء متضادًّا مع مفهوم العمل الصَّالح {مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ}، ومن ثَمَّ فلم يأتِ مفهوم الكفر متضادًّا لمفهوم الإسلام أو الإيمان.

إذن: فهناك من يؤمن بالله وفي الوقت الذي يؤمن فيه بالله يكفر بما آتاه الله من نِعَمٍ: {وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ}[403]، فقوله: (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ) أي: على الرّغم من أنَّهم يؤمنون بالله –تعالى– فلم يقدِّروا النِّعم التي آتاهم إيَّاها، ومن ثَمَّ فلم يقفوا عند حدود (ما يجب والأخذ به، وما لا يجب والانتهاء عنه)؛ وبذلك وُصفوا

[401] البقرة 73.

[402] الروم 44.

[403] الروم 33، 34.

بالكافرين؛ كونهم كفروا بما أتاهم الله من نعم وفضائل؛ قال تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}[404]، جاءت هذه الآية الكريمة لتبيّن أنَّ الكفر لم يكن بالله تعالى، بل جاء مفهوم الكفر هنا بأنعم الله التي لا تُحصى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا}[405].

وعليه: فإنَّ الكفر دائمًا لا يكون إلَّا فعلًا لاحقًا لمفعولٍ سابقٍ؛ فالنّعم المكرّم بها الإنسان لو لم تكن سابقة عليه ومشبعة لحاجاته المتطوّرة والمتنوّعة ما عبث بها الإنسان وكفر، وهكذا أمرُ الله الحقّ الذي لو لم يكن سابقًا على كلِّ سابق ما كفر به من بعده لاحقٍ.

ومن هنا سيظل مفهوم الكفر نكرة ما لم نبيّن الكفر بماذا؟، فالكفر لا يكون إلَّا صِفة لموصوف، كالكفر بالحقِّ، والكفر بالعدلِ، والكفر بالأنعمِ، والكفر بالله، والكفر بالطّاغوتِ، والكفر بالأنبياءِ والرُّسُلِ الكرام؛ والكفر بالظّلم، والكفر بالفسق والكذب، والكفر بكل من يكفر بالحقِّ؛ ولهذا بلغت درجة الكفر لدى البعض بأن يكفر المخلوق بالخالق، وهكذا بالتمام البعض يكفر بآيات الوجود الذي هو جزءٌ من آياتها.

وعليه: في الوقت الذي فيه مفهوم الكفر يدلُّ على وجود قناعة بموجود في الوقت ذاته يُكفر بهذا الموجود على حساب وجود آخر يخالفه في الحقيقة تمامًا.

---

[404] النحل 112.

[405] النحل 18.

ومن ثمَّ فالكفر في دائرة المتوقَّع الإيجابي لا يكون إلَّا بما لا يطمئن النَّفس والعقل والقلب، أمَّا الكفر في دائرة المتوقَّع السّلبي فلا يكون إلَّا بما يُظهر سيادة الباطل على حساب سيادة الحقّ، ومن هنا فالكفر يعني: أنَّ الإنسان يعرف الحقّ ولا يأخذ به، ويعرف الباطل ولا يحيد عنه؛ ومن ثمَّ فالكفر إعراض عمَّا لا يجب الإعراض عنه، والأخذ بما لا يجب الأخذ به في مرضاة الله.

ومع أنَّ مفهوم الكفر عند عموم النَّاس ذو مفهوم سالب فإنَّ الكفر في ذاته ليس بسالبِ المفهوم لو لم يكن تابعًا لموصوفٍ سالبٍ يؤدِّي بأصحابه إلى إنكار الحقيقة، سواء أكانت الحقيقة محمولة في الكلمة والمحتوى، أم إنَّها مضمونة في الفكرة، أم إنَّها بالعمل تُفعل، أم إنَّها متجسّدة في السُّلوك، أم إنَّها آيات معجزة.

ولذا فمفهوم الكفر الذي لا ينبغي الخلاف حوله –وهذا ما ينبغي– هو عدم التسليم بما لا يجب التسليم به أو التسليم إليه موضعيًّا، وفي مقابل هذا المفهوم يصبح مفهوم الإيمان في دائرة النسبيّة بين موجبٍ وسالبٍ، فعلى سبيل المثال: من يؤمن بالله واحدًا أحدًا لا شريك له فقد آمن بالحقِّ، ومن يكفر بالله ويشرك به فقد آمن بالباطل؛ ولذا فمن يؤمن بالطَّاغوت ليس كمن يكفر به[406].

رسولُ الكافَّة تُخلفهُ الكافَّة:

الرَّسُول الخاتم بالرِّسالة الخاتمة جاء مُرسلًا من الله تعالى بغاية استخلاف الكافَّة في الأرض؛ ولهذا جاء هاديًا ومبشّرًا بما يُمكّن الإنسان

[406] عقيل حسين عقيل، أرسول ويغزو؟

من الاستخلاف فيها وفقًا لمشيئة الله تعالى. ومن ثمَّ ليس له إلَّا التبليغ أيةً من ورائها آيات، وحُجَّة من خلفها حُجج، وفضيلة تتبعها فضائل، وقيمة تتولَّد منها القيم؛ وبهذا فلم يأتِ الرَّسُول للكافَّة ليأخذ شيئًا منهم على حِساب خَلقهم في أحسن تقويم، بل جاءهم مرسلٌ بما يحافظ على حُسن التقويم فيهم، الذي لن يتغيّر ما لم تتغيّر الأخلاق وتنقلب القيم وتنكسر منظومتها.

بُعث محمَّد ليدعو إلى الواحديَّة، ولا يُكره في الدِّين، ولا يقف عن الدَّعوة والتحريض؛ ذلك لأنَّه المأمور تبشيرًا وهداية دون أن يستثني أحدًا؛ كونه رَسُول الكافَّة؛ ومن هنا بُعث برسالة لا بدَّ وأن تغزو عقول الكافَّة وقلوبهم محبَّةً ومودَّةً حتى يستخلفوا فيها.

ولأنَّ الرَّسُول مأمور بالتبليغ فليس له إلَّا أن يبلِّغ ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، ولأنَّه رسول الكافَّة فلا خيار له في تبليغ الكافَّة، ومن ثمَّ فلا سبيل له إلَّا أنْ ينتهج السُّبل التي بها تُغزى العقول والقلوب رغبة وإرادة؛ ذلك أنَّ محمَّدًا مُرسلٌ للكافَّة، وهو المأمور بتبليغها وإلَّا سيكون مقصّرًا تجاه ما أُمر به أمرًا من الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ}[407]. ولأنَّه المأمور بالتبليغ فليس له إلَّا أن يبلّغ وإنْ واجهته الصِّعاب والشَّدائد، وليس له إلَّا القبول بدفع الثَّمن.

ومن هنا لم يكن محمَّدًا غازيًا من أجل حُكمٍ أو سيادةٍ شخصيَّةٍ، بل جاء غازيًا بالرِّسالة التي أمرهُ الله بأنْ يجعلها غازية هدايةً للكّافَّة؛

[407] المائدة 67.

ولذلك فمن أجل أن تصل الكّافة كان غازيًا وشعاره (أسلم تسلم)؛ أي إنّه كان غازيًا وفقًا للأمر الصّادر له من الله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}[408]، ووفقًا لقوله جلّ جلاله: {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[409].

ولأنَّ محمَّدًا عليه الصَّلاة والسَّلام رَسُول الكافَّة: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ}[410]، إذن فلا خيار له إلَّا التبليغ بما أُرسِل به كتابًا منزَّلًا، فقوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ) يعني ممّا يعنيه: أنت يا محمَّد تختلف عن الرّسُل الكرام الذين سبقوك؛ فهم رُسُل خاصّة فلا يغزون بما أمروا به إلَّا الخاصَّة؛ أمّ أنت يا محمَّد رَسُول الكافَّة الذي رسالته لا بدَّ أنْ تغزو الكل وتجمع الكلّ برسالة الكلّ؛ ومن هنا كان محمَّدًا يبشّر بدين الكلّ للكلّ ولا اكراه في الدّين.

ولأنَّ محمَّد خاتم الأنبياء والمرسلين، ورسالته للكافَّة؛ فالكافَّة كلمة ذات مفهوم جامع للأنس والجن؛ مصداقًا لقوله تعالى: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآَمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ

---

[408] البقرة 256.

[409] يونس 99.

410 سبأ 28.

فَزَادُوهُمْ رَهَقًا وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا}[411]. ولأنَّها للإنس والجن، وقد بلَّغ محمَّد الرِّسالة حتى أمن بها من أمن مَن الثِّقلين، وما زالوا يؤمنون حتى يوم الجمع؛ فهل غزى محمَّد الجنّ وقاتلهم بالسِّيوف مكرهين حتى يؤمنون، أم أنَّ معجزة محمَّد ثاقبة للعقول وغازية لها تبشيراً وإنذاراً.

نقول:

الرِّسالة المحمَّديَّة حُجج إعجازيَّة تغزو العقول بالكلمة المسموعة، والمكتوبة، وهي التي سمعها الجنّ وصغى إليها فأمن مَن أمن منهم وكفر مَن كفر، ومفهوم الكفر هنا إنكار للحقيقة والأخذ بما يخالفها؛ إذ لا دليل ولا حُجَّة.

ومع أنَّ مفهوم كلمة الكافَّة يحتوي على الجمع دون استثناء؛ فإنَّه ليس دائمًا دالًّا على المفهوم المطلق؛ فعلى سبيل المثال: عندما نقول المؤمنين كافَّة؛ فإنَّنا لم نشر إلى غيرهم من الكافَّة، وهنا نلاحظ الاستثناء؛ أي استثناء المؤمنين كافَّة من الكافَّة غير المؤمنين، وهكذا عندما نقول المشركين كافَّة؛ فإنَّنا استثنينا الكافَّة من الكافَّة (كافَّة المشركين من كافَّة النَّاس) مصداقًا لقوله تعالى: {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً}[412].

يفهم من هذه الآية الكريمة أنَّ المعنى يعود إلى الكافَّة الخاصَّة وليست الكافَّة العامَّة؛ أي نجد في هذه الآية كافَّتين: كافَّة المشركين، وكافَّة

411 الجن 1 ـ 7.

412 التوبة 36.

المؤمنين؛ ومن هنا فإنَّ التفسير يسمح لنا أن نقول: على المؤمنين كافَّة أن يقاتلوا المشركين الذين يقاتلونهم كافَّة، وهذه الكافَّة تستثني المشركين الذين لم يكونوا من بين أولئك الذين يقاتلون؛ وفقًا لقاعدة التعامل بالمثل، أي مثلما يقاتلونكم المشركين كافَّة عليكم أنتم المؤمنين كافَّة مقاتلة من يقاتلكم من المشركين كافَّة، وهذا المفهوم يُقصِر المقاتلة على مقاتلة من يقاتلكم من المشركين، أي إنَّ هذا المعنى يستثني من لم يقاتلكم منهم.

وعليه من يغزوك بالكافَّة الخاصَّة به، عليك بغزوه بالكافَّة الخاصَّة بك، ولأنَّ محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام رسول الكافَّة المطلقة فهو رسول للمشاهد والملاحظ (الإنس والجن): {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}[413]

وعليه فإنَّ مهمَّة محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام مهمَّة تبليغ، والذي يُكلَّف بهذه المهمّة يتَّصف بها وهو لا يزيد ولا ينقص ممّا كُلِّف به، فإن زاد أو أنقص فما بلَّغ رسالته تعالى (وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ)، وإن فعلت فقد بلَّغت رسالته: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا

[413] الأحقاف 28 – 32.

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}[414].

الخلافةُ بعد رَسُول الكافَّة:

الرَّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام لا يصطفيه إلَّا الله، والله تعالى لا يُخلِفَ رَسُولا برَسُول إلَّا بنبأٍ أو رسالةٍ، سواء أكانت رسالة للخاصَّة: (القوم، والمدينة، والقبيلة)، أم للعامَّة: (رسالة كافَّة)؛ ولهذا لا يخلفُ الرَّسُول إلَّا رَسُول، ومن ثمَّ فقد انتهى زمن الاستخلاف باستخلاف الرَّسُول الخاتم: (محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام)، أمَّا من بعد الرُّسُل الكرام فلا خلافة لأحدٍ؛ أي لا يمكن لعبدٍ أن يكون خليفة للرَسُول، والله لم يصطفه لذلك.

ولهذا فمسمَّى خليفة رَسُول الله لا ينطبق مفهومه مع مفهوم الاستخلاف، الذي يربط العلاقة بين السَّماء والأرض، فبعد انتهاء فترات بعث الرُّسُل صلوات الله وسلامه عليهم، أصبح الأمر بين أيدي بني آدم، وفقًا لرؤاهم، ومدى ارتقائهم، وأخذهم بالفضائل الخيّرة، التي أمر بها الخالق، ففي زمن الرُّسُل لا وجود للأنظمة الحاكمة؛ بل الأمر كان بين السّماء والأرض إنباءٍ ورسالاتٍ: (أنبياء ورُسُل)، أمَّا بعد الرّسالات والرُّسُل؛ فالأمر أصبح بين النَّاس شورى، وفقًا للإرادة، والحقِّ، والرّغبة، والمقدرة، والحاجة المتطوّرة عبر الزّمن: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[415]،

414 - الأعراف 58.

[415] الشورى: 38.

والشّورى هنا: لم تكن خاصّة بالمسلمين، بل هي الحلّ؛ فمن شاء الحلّ فعليه بها ديمقراطيَّة بلا مكاره.

ومن هنا كان الخلاف في معظمه بين من يحكم من، ومن يأخذ بما أنزلت به الرِّسالات الخالدة ارتقاء، وبين من يتخلّى عنه دونيّةً وانحدارًا، ومن يرى الحريَّة حيث لا إكراه، وبين من يراها تمدّدًا خارج الحدود، ومن يراها لا تكون إلّا وفقًا لما يفيد الأنا، أو طائفته، أو قبيلته، أو حزبه، أو مدينته، وفي المقابل هناك من يرى الحريَّة عدالة يستظل الجميع تحت مظلتها حقوقًا تمارس، وواجباتٍ تؤدّى، ومسؤوليّاتٍ تُحمْل، وبين هذا وذاك لا يزال بنو آدم مختلفين، وسيظلون إلّا من رحم ربّك: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[416].

ولأنَّ الخلاف لن ينتهي بين بني آدم، إذن؛ فسيظل بينهم حيثما بقوا على أرض الاعوجاج دُنيا، ولا استغراب أن يخالف بعض النَّاس بعضًا، ولا استغراب أن يتصادم بعضهم مع بعضٍ، ولكن الاستغراب ألَّا تُصحّح المعلومات الخاطئة بمعلومات صائبة تُصلح المعوجّ، وتدفعه تجاه الحلّ دون هيمنة، ولا حرمان؛ أي: لا ينبغي أن يُلغى الخلاف، بل ينبغي أن يلاحق الاختلاف حلّا حيثما حلّ.

وعليه: في زمن الرِّسالات والأنبياء الكرام كان الحلُّ يتنزّل على الأقوام، والأمم، والكافَّة من السّماء تنزيلًا، أمَّا في الزّمن الذي بعد رَسُول الكافَّة، فلا نبي، ولا رسالة بعد الرّسالة الخاتمة، كلّ شيء قد أُنزل، وبقي

---

[416] هود 118، 119.

الأمر بين النَّاس شورى، سواء أكان أمر النَّاس سلمًا، أم حربًا، أم سياسةً داخليَّةً، أم سياسةً خارجيَّةً؛ فما يتّفق عليه من يتعلّق الأمر بهم يُقدَّر، ويحترم، ويعتبر؛ فيُقر، ويؤخذ به عملًا، وفعلًا، وسلوكًا، وفي المقابل لا يؤخذ بما يخالفه؛ لكونه معوجًّا.

ولذلك فالخلاف، والخصام، والجدال، والصّدام في زمن الرُّسُل، تأسّس على الفضائل الخيّرة، التي لا تستمدّ إلَّا ممّا أنزل من عند الله؛ إذ: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}[417]، و{وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[418]، و{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}[419].

فهذه الفضائل ارتقاءً جاءت إنسانيَّة، وستظل بين من يأخذ بها ارتقاءً إنسانيَّة؛ لأنَّها فضائل طي الهوة، التي تُختلق من الحين والحين بين بني آدم عِلّة.

أمَّا بعد اختتام الرِّسالات والرُّسُل، فأصبح للقيم الاجتماعيَّة تقديرًا ومكانةً، إلى جانب تلك الفضائل الإنسانيَّة، فأصبح للخصوصيَّة الاجتماعيَّة أهميَّة ومكانة، ولتنوّع اللغات أهميَّة ومكانة، ولما يختاره ويقرّه النَّاس أهميَّة وضرورة، ومن ثمّ، أصبح للدّساتير، والقوانين المنفّذة لها أهميَّة مقدّرة بين الأمم والشّعوب؛ ولذلك فالأخذ بالقيم الحميدة يؤكّد أهميَّة تلك الفضائل الخيّرة في ترسيخ قيمة الإنسان، وحفظ كرامته من خلال عدم إكراهه بأيَّة عِلّة، ومن خلال مشاورته في كلّ أمر يتعلّق به وبمصيره، وفي المقابل من يغفل عن أهميَّة ذلك، سيجد نفسه شريكًا في كلِّ ما

---

[417] البقرة 256.

[418] الشورى 38.

[419] الكافرون 6.

يؤدّي إلى الفتن، والانقسامات، والصّدمات المؤلمة، التي لا تكون إلّا على أيدي المعوجّين عمَّا يجب أن يكون بين النَّاس محبَّةً، ومودَّةً.

وهكذا كان الخلاف من بعدهم؛ فحادثة سقيفة بني ساعدة؛ حيث اجتمع عدد ممن الصَّحابة من المهاجرين ومن والأنصار، ودارت بينهم مفاوضات، انتهت في النّهابة باختيار أبي بكر كأوَّل خليفة للمسلمين.

وقد تعدّدت الرِّوايات حول ما حدث تحديدًا في هذه الحادثة، واختلفت الرّؤى عن صحّة الاختيار، أو الشُّرى في المفاوضات؛ فبعد وفاة نبيّ الإسلام محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة، ورشحوا سعد بن عبادة للخلافة، ولكن حينما سمع عمر بن الخطَّاب بهذا الأمر، أخبر أبا بكر الصدّيق وأسرعا إلى السَّقيفةِ، وأكَّدا أحقيَّة المهاجرين في الخلافة كما يعتقدان.

دار جدال بين أبي بكر وعمر من جهة، والأنصار من جهة أخرى؛ فاقترح الأنصار أن يكون من المهاجرين أمير، ومن الأنصار أمير، فاختلف معهم عمر بن الخطاب في هذا الأمر، ورشَّح أبا بكر للخلافة، وانتهى الأمر باختيار صاحب رَسُول الله أبي بكر الصدِّيق خليفة للمسلمين، وفقًا لترشيح صاحب رَسُول الله عمر بن الخطاب.

ومن هنا أقول:

لا يمكن أن يكون لرَسُول الله خليفة، ولكنَّ العرب المسلمون في ذلك الوقت اتخذوا عنوان الخلافة لإدارة شؤونهم المدنيَّة، ولا اعتراض على مسمى الخليفة، ولكنَّ كما سبق تبيانه الاعتراض على إلصاق الخلافة

بخلافة رَسُول الله؛ ذلك لأنَّ الرَّسُول لا يخلفه إلَّا رَسُول من عند الله، وليس من عند العباد.

ومع أنَّ الاختلاف بين النَّاس من نِعم الله التي بها تتنوَّع أساليب الحياة، وتُكسَر أطواق الملل، ففي المقابل الخلاف بين بني الإنسان نقمة، به تُقطع علاقات المحبَّة والمودَّة، كما قُطعت العلاقات بين الذين يؤمنون بربٍّ واحد، ونبيّ واحد، كما هو الحال بين طائفة أهل الشيعة، وطائفة أهل السنّة؛ فطائفة الشيعة كانت ترى أنَّ آل بيته أولى النَّاس بالخلافة، وأولى آل بيته عمّه العبّاس، وابن عمه علي، وعلي أولى من العبّاس؛ لأنَّه أسبق إلى الإسلام، كما أنَّ له نسلًا من ظهر الرَّسُول، ثمّ إنَّ العبّاس نفسه لم ينازع عليًّا في أولويَّته للخلافة.

وعليه أقول: لا صراع على النّبوَّة؛ لأنَّ أمرها لا يكون إلَّا من عند الله، مع العلم أنَّ هناك من ادَّعاها، ولكن الفرق كبير بين الحقيقة، والادعاء بها؛ وفي المقابل كان الصِّراع على أشُدِّه بين النَّاس على من يحكم من.

وهكذا في كلِّ مرحلة من مراحل الدَّولة الإسلاميَّة، الخلافات تتجدّد؛ والخلفاء يُقتلون؛ فقُتل عمر، ومن بعده قُتل عثمان، ثمّ قُتل علي. وقد ظهر بأسباب الخلاف المرتدّون في زمن أبي بكر، والخوارج الذين خرجوا على الإمام علي بن أبي طالب عندما قبل التحكيم في موقعة صفِّين؛ ذلك لأنَّ الخوارج رأوا أنَّ عليًّا قد أخطأ بقبوله التحكيم؛ فقالوا جملتهم الشهيرة: (لا حكم إلّا لله).

ومن بين أهم المعارك الخلافيَّة موقعة الجمل التي وقعت في البصرة عام 36هـ بين قوات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، والجيش الذي يقوده الصّحابيَّان طلحة بين عبيد الله والزّبير بن العوَّام، إضافة إلى أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، التي قيل إنَّها ذهبت مع جيش المدينة في هودج على ظهر جمل، وسمّيت المعركة بالجمل نسبة إلى الجمل الذي عليه هودج أمّنا عائشة رضي الله عنها.

فبعد حدوث الفتنة، ومقتل الخليفة عثمان بن عفَّان عام 35هـ، بَايَعَ كبار الصَّحابة الإمام علي بن أبي طالب لخلافة المسلمين وانتقل إلى الكوفة، ونقل عاصمة الخلافة الإسلاميَّة إلى هناك، وبعدها انتظر بعض الصَّحابة أن يقتصّ الإمام من قتلة عثمان، لكنَّه لم يأخذ بهذا الأمر.

ومن هنا كان الخلاف بين علي ومعاوية حتى بلوغ حالة الاقتتال بين صحابة رَسُول الله؛ فكانت معركة صفّين في محرّم سنة 37هـ؛ حيث أراد الخليفة علي أن يعزل معاوية مِن على الشَّام؛ فخرج إليه بجيشه، ودار الاقتتال عند صفّين، وعندما شعر جيش معاوية أنَّه على مقربة من الهزيمة، طلبوا التحكيم مع علي وجيشه: (أهل العراق) فرفعوا شعار: (كتاب الله بيننا وبينكم) إنَّه شعار أهل الشَّام تحت رئاسة معاوية.

ومع أنَّ الطرفين قد اتفقا على وقف الاقتتال والقبول بالتحكيم، فإنَّ الرّفض كان على أشدّه من قبل طائفة من جيش علي بن أبي طالب، ومع ذلك، تمّ الاتفاق وخُتم بختم علي بن أبي طالب على أعلى صحيفة التحكيم، وخُتم بختم معاوية بن أبي سفيان على أسفل الصحيفة.

ومع أنَّه الاتفاق المختوم، فإنَّ الرَّافضين من أهل العراق بقوا على رفضهم، بل زادوا على رفضهم الخروج عن طاعة علي، ورفعوا صوتهم بقولهم: (لا حكم إلّا لله) وطلبوا من الخليفة علي نقض العهد، ولكنّه رفض.

وكان أبو موسى الأشعري مفاوضًا وممثلًا لعلي وجيشه، وكان عمرو ابن العاصّ مفاوضًا وممثلًا لمعاوية وجيشه؛ فقام الأشعري بخطبته قائلًا: "أيّها النَّاس إنَّا نظرنا في أمرنا فرأينا أقرب ما يحضرنا من الأمن والصلاح، ولم الشعث، وحقن الدِّماء، وجمع الألفة خلعنا عليًّا ومعاوية، وقد خلعت عليًّا كما خلعت عمامتي هذه" وخلع عمامته.[420]

وقام عمرو، وقال: (أيّها النَّاس إنَّ أبا موسى عبد الله بن قيس قد خلع عليًّا وأخرجه من هذا الأمر الذي يطلب، وهو أعلم به، ألا وإني خلعت عليًّا وأثبِّت معاوية عليَّ وعليكم).

فقال الأشعري: كذب عمرو، ولم نستخلف معاوية، ولكنَّا خلعنا معاوية وعليًّا! فقال عمرو: بل كذب عبد الله بن قيس، قد خلع عليًّا، ولم أخلع معاوية.

ووفقًا لصحيفة التحكيم عاد علي ومن معه من جيشه إلى الكوفة، وتحرّك معاوية وجيشه إلى الشَّام.

ولأنَّ الخلاف يشتدُّ مع شدّة الصدام؛ فكان على أشدّه بين علي ابن أبي طالب، والذين انشقوا وخرجوا عنه، وكان أكثر شدّة عندما

---

420 سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ج 3، ص 7.

اجتمع الخوارج في النهروان سنة 38هـ، فقاتلهم علي، وقتل منهم من قتل، ثم اختلفوا وتخالفوا؛ فانشقوا بعد ذلك إلى 20 فرقة.

ثم قُتل علي بن أبي طالب على أيدي الخوارج في 16 رمضان 40هـ، وهو يُصلِّي الفجر في المسجد.

بعد عصر الخلفاء الرَّاشدين: (أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي) أخذت الخلافة لونًا آخر، كان التوريث فيها هو العنوان، بدلًا من تلك التجربة التي سبقت؛ ولهذا كان الاقتتال على أشدِّه بين الأخوة والأعمام، وبين الأقارب والأباعد؛ وبهذا انتهى عصر الخلافة دينًا، وهلَّ على المجتمع العربي والإسلامي عصر الخلافة حُكمًا.

التَّاريخ نُقلة خِلافًا من بعد الخلافة:

في زمن الخلافة لم يكن هناك فصل بين صلاحيَّات من يتولَّى رعاية الإسلام: (الدِّين) ومن يتولَّى إدارة شؤون المسلمين: (الرَّعيَّة)؛ أي إنَّ نظام الخلافة كان راعيًا للدِّين وكأنَّه لا فرق بينه والدَّولة: (وكأنَّ الدِّين هو الدَّولة).

أمَّا بعد زمن الخلفاء: (أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ومعاوية)؛ فقد كان الصِّراع داخل الأمَّة – على الخلافة – صراعُ وراثة دمويَّة، وفي المقابل كان الصِّراع مع الخارج فتح دِوَلٍ وامصارٍ.

ولأنَّ الخلاف يفرِّق ولا يجمِّع، كان الخلاف بين الذين يؤمنون بربٍّ واحدٍ، ورَسُول واحدٍ، ولا يفرِّقون بين أحد من رُسله؛ فكان المرتدّون بأسباب حداثة الإسلام، وضعف الإيمان، والاختلاف على من يأتي من بعد الرَّسُول؛ فكان الخوارج، وكان الاقتتال بين هذا وذاك قتالًا بلا شفقة؛

كلّ ذلك كان بأسباب عدم قبول الاختلاف: (عدم قبول الرَّأي الآخر). إنَّه الاقتتال من أجل السُّلطة، وليس الاقتتال من أجل الهداية، ونشر الإسلام، والعدالة، وإحقاق الحقّ.

ولأنَّه الخلاف المؤدِّي إلى الاقتتال؛ كان الخلاف بين أهل الدِّين الواحد لا يختلف عن الخلاف مع من هم على دين آخر.

وعليه: فإنَّ الاختلاف والخلاف عبر الزَّمن متلازمان مترافقان في أيِّ مكان، وفي كلِّ دولة؛ وقد بدء الخلاف من بعد وفاة رَسُول الله عليه الصَّلاة والسَّلام، واشتد في عهد الدَّولة الأمويَّة (662م – 750م)، ثم من بعدها الدَّولة العباسيَّة.

أمَّا في الدَّولة الفاطميَّة فكان الاختلاف منذ البدء مع مؤسّسها عبيد الله المهدي (909 – 934م)؛ وذلك بعد قضائه على دولة الأغالبة، واتخاذه مدينة المهديَّة بتونس عاصمة له، التي من بعدها زحف الفاطميّون وحلفاؤهم إلى المشرق وأسّسوا القاهرة مع رابع خلفاء العبيديين المعزّ لدين الله الفاطمي، وبأسباب الخلاف لم يتبقَّ منهم في الجزائر والمغرب وتونس إلَّا القليل.

وتوسعت الدَّولة الفاطميَّة على حساب الخلافة العباسيَّة، واستولى الفاطميّون على شرق الجزائر ثمَّ تونس، ثمَّ ليبيا، ومن بعدها صقلِّية التي بقيت في حكمهم حتى 1061م.

ولأنَّه الخلاف على السُّلطة والحكم، دخل الفاطميّون في صراع مع العبَّاسيين للسيطرة على الشَّام، كما أنَّهم تنازعوا السيطرة على شمال إفريقيا مع أمويي الأندلس، وكذلك تمكَّنوا من السّيطرة على الحجاز والحرمين ما

بين سنوات 965 – 1070م ولكن صلاح الدّين الأيوبي انقلب على الدَّولة الشيعيَّة، وتولَّى الوزارة منذ 1169م، وأعاد الخلافة العبَّاسيَّة سنة 1171م.

وفي أثناء حكم الدولة العباسية تكونت فرق دينيَّة متعدِّدة عارضت الحكم العبّاسي، وكان محور الخلاف بين هذه الفرق والحكّام العبّاسيين: (الخلافة) أو إمامة المسلمين، وكان لكلّ جماعة منهم خصوصيَّاتها السِّياسيَّة في إقامة الحكم الذي تريد.

جعلت هذه الفرق النَّاس على خلافات بين طوائف وأحزاب، وأصبحت المجتمعات العباسيَّة ميادين تتصارع فيها الآراء وتتناقض، فوسَّع ذلك من الخلاف السياسي بين مواطني الدَّولة حتى تصدَّعت وحدتها، ومن العوامل الداخليَّة التي شجّعت على انتشار الحركات الانفصاليَّة، اتساع رقعة الدَّولة العباسيَّة، وبُعد المسافة بين أجزاء الدَّولة، وصعوبة المواصلات في ذلك الزّمن، هذه جعلت الولاة في المدن النائية يتجاوزون سلطاتهم، ويستقلّون بشؤون ولاياتهم، دون أن يخشوا الجيوش القادمة من عاصمة الخلافة لإخماد حركتهم الانفصاليَّة، والتي لن تصل إلّا بعد فوات الأوان، ومن أبرز الحركات الانفصاليَّة عن الدَّولة العباسيَّة، حركة الأدارسة وحركة الأغالبة والحركة الفاطميَّة.

انتهى الحكم العباسي في بغداد سنة 1258م على يد هولاكو خان التتري، الذي قتل من قتل إلى جانب قتله الخليفة وأبناءه؛ فانتقل من بقي على قيد الحياة من بني العبّاس إلى القاهرة بعد تدمير بغداد؛ حيث أقاموا الخلافة مجدَّدًا في سنة 1261م.

واستمرت الخلافة العباسيَّة حتى سنة 1519م، عندما اجتاحت الجيوش العثمانيَّة بلاد الشَّام ومصر، وفتحت مدنها وقلاعها، فتنازل آخر الخلفاء عن لقبه لسلطان آل عثمان: (سليم الأوَّل)؛ فأصبح العثمانيون خلفاء المسلمين، ونقلوا مركز العاصمة من القاهرة إلى القسطنطينيَّة.

هكذا هي نتائج الخلاف بداية: استيلاء على السُّلطة، ثمّ صراعات وفتن بين الفرق والطَّوائف التي حياتها لهو، وفساد، وكيد، ومكر، إلى أن تأتي النّهاية سقوط غير مأسوف عليه.

ولأنَّه الخلاف فلا يقتصر على شعبٍ أو دينٍ، أو أمَّةٍ، أو حضارةٍ، بل يمتدُّ بين النَّاس كلّما توافرت معطيات ظهوره؛ فالخلاف كما يجري بين المسلمين؛ يجري بين المسيحيين الذين تقسّموا بأسبابه إلى:

. كاثوليك.

. أرثوذكس.

. بروتستانت.

فبأسباب الخلاف في القرن الخامس الميلادي، حدث انشقاق كبير نتج عنه أنْ أصبحت بعض كنائس الشّرق تحت قيادة كنيسة الاسكندريَّة، وكنائس الغرب تحت قيادة كنيسة روما، وسمّيت الأولى بالكنائس الأرثوذكسية، والثَّانية بالكنائس الكاثوليكيَّة إلى أن جاء الخلاف في القرن الحادي عشر الذي بأسبابه انفصلت كنائس القسطنطينيَّة، واليونانيَّة، وبعض الكنائس الأخرى عن الكنيسة اللاتينيَّة، وسميت أيضًا بالكنائس الأرثوذكسية.

وبأسباب الخلاف، يؤمن الكاثوليك والبروتستانت أنَّ الأب أعظم من الابن والرُّوح، والأرثوذكس يؤمنون أنَّهم متساوون.

أمَّا بالنّسبة إلى روح القُدس: فيؤمن الكاثوليك والبروتستانت أنَّه منبثق من الأب والابن معًا، والأرثوذكس يؤمنون أنَّ الرّوح منبثق من الآب فقط.

أمَّا بالنّسبة إلى الابن: يؤمن الكاثوليك والبروتستانت بأنَّه مكوَّن من طبيعتين ومشيئتين، ويؤمن الأرثوذكس أنَّه طبيعة ومشيئة واحدة.

وبالنّسبة إلى مريم عليها السَّلام، يؤمن الكاثوليك أنَّها أمّ المسيح، وزوجة الرّوح القدس بالفعل، وأنَّها الآن في السّماء، فوق المسيح ابنها، ويؤمن الأرثوذكس أنَّها أم الإله، وأنَّها الآن في السّماء عن يمين المسيح، ويؤمن البروتستانت أنَّها إنسانة عاديَّة مسيحيَّة؛ وهكذا هو الاختلاف والخلاف يتلونان ويتنوّعان ويمتدّان مع الحياة امتدادًا بلا انقطاع.

ومع أنَّ جمال الحياة في التَّنوّع، فإنَّ الخلاف على رأس المفسدات لهذا التنوَّع، ولا سبيل من بعده للنَّاس إلَّا التفاهم، والتفهُّم، والاستيعاب، والتكيّف، والتوافق، ومن لم يقبل بذلك، سيجد نفسه في الطريق المخالف.

ومن ثمّ فعلى بني آدم أن يميّزوا بين ما يجب ويتّبعونه إرادة، وما لا يجب ويجتنبونه، وينتهون عنه، وبعد التبيّن لا ينبغي أن يكره أحد على شيءٍ هو لا يرغبه: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[421]، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاس حَتَّى

[421] البقرة 256.

يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[422]، {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[423]، {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ}[424].

هذه الآيات الكريمات بأسباب الاختلاف والخلاف الإنساني مأمورٌ الأخذُ بها أمرًا من عند الله تعالى؛ فلا داعي للإكراه، والإجبار، والإقصاء، والسَّيطرة بغير حقٍّ. بل ما يجب اتباعه: قبول الآخر المختلف، واستيعاب المخالف، وتفهّم ظروفه، والعمل معه من حيث هو، من أجل أهداف وآمال مشتركة تستوجب تصحيح المعلومات الخاطئة بمعلومات صائبة؛ حتى يَتمكَّن الجميع من بلوغ المأمول الأجود مع وافر المحبَّة والتقدير.

ومع أنَّ الدِّين لا إكراه فيه، فإنَّ البعض يُكره النَّاس قهرًا على ما لا يرغبون، حتى أصبح اللبس وعدم المقدرة على التمييز بين الدين الإسلامي الذي لا إكراه فيه، وبعض المسلمين الذين يسلكون ما يخالف ذلك.

ومن ثمَّ أصبح الخلاف على أشدِّه بين المسلمين الذين لا يرون الدِّين إلَّا كما أُنزل، وكما عمل وفعل وسلك رَسُول الله محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام، ومن يميل إلى ردة فعلٍ، أو تفسيرٍ لا اتقاف عليه، وقد يتعارض مع سُبل وأساليب الهداية والدِّعاية والتبشير.

---

[422] يونس 99.

[423] الكهف 29.

[424] الغاشية 21، 22.

ومع ذلك فقد انتهى عصر الخلافة، والإمامة، والولاية، ولم يبق شيئًا منه إلَّا مع من تبقَّى من الذين يسخِّرون العناوين لحكم العباد باسم الدِّين، والدِّين منهم براء[425].

الاستخلافُ عدالة:

العدالة حكم يتطلَّب عادلٌ، والعادلُ لا يمكن أن يكون حكمه مطلقًا إلَّا إذا استمدّ حكمه وعدالته من أمر الله العدل المطلق؛ ولذا فالعدل فضيلة خيّرة، إنْ ساد بين النَّاس ساد التفاهم والوفاق والانسجام بينهم ولا خلاف؛ والعدل حكم لا ميل فيه ولا تحيُّز، به يُحق الحقّ حيث يجب ويُزهق الباطل كلّما وجب؛ فهو فعل في ذاته وصفة حسنة في ذاته، يشتق منه اسم الفاعل (العادل)، ومن يتبع هذه الصّفة الحسنة يوصف بها صفة حسنة من صفات العدل المطلق، وهي المستمدَّة منه فلو لم يكن ما كانت.

ولأنَّه العدل جلَّ جلاله أوصى النَّبي محمَّدا عليه الصَّلاة والسَّلام اتباع العدل دعوة واستقامة قال تعالى: {فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ ربّنَا وَربّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}[426]؛ فعندما بعث محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام رَسُولًا مصِّدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه؛ ليحكم بينهم بما أنزل الله

---

[425] عقيل حسين عقيل، الخلاف (في دائرة التاريخ) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020، ص 21 – 52.

[426] الشورى 15.

وهو أحكم الحاكمين، كان أمره تعالى لنبيّه ألّا يتّبع أهواء المختلفين في أمرهم وأن يحكم فيهم بما أنزل الله في كتابه الحكيم، الذي لا انحياز فيه إلا للحقّ؛ قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحقّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحقّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا}[427].

إذن: العادل لا تأخذه العاطفة فإنْ أخذته مال عن الحقّ وإحقّاقه، فلا خوف أن يصدر الحكم عدلًا صريحًا، وبخاصّة أنَّ القتلة ظلمًا سيكون لهم في الآخرة عذاب شديد؛ ولهذا أمر الله تعالى رَسُوله محمَّدا عليه الصَّلاة والسَّلام أن يحكم بينهم بالعدل وهو التأكيد على الحقّ الظَّاهر، قال تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفس بِالنَّفس وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[428].

ولذا فالحكم العدل إن لم يكن بين المتخالفين أو المتقاتلين عفوًا أو صفحًا وتسامحًا فالشدّة عدلًا باب رحمة:

. النَّفس بالنَّفس.

. العين بالعين.

. الأنف بالأنف.

. الأذن بالأذن.

---

[427] المائدة 48.

[428] المائدة 44 – 45.

- السّن بالسّن.

- الجروح قصاص.

وعليه: فمن لا يحكم بما أنزل العدلُ عدلًا فهو من الكافرين والظَّالمين؛ مصداقا لقوله تعالى: (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)، (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ).

وحتى يُبَسِّط الله لنا معنى العدل ألقى على مسامعنا من القرآن الكريم فضائل تدلُّ على العدل وتهدي إليه، منها:

- الصّراط المستقيم.

- القسط.

- الميزان.

- مثقال ذرة.

والعدلُ به تستوي كفَّتا الميزان بشعرة التمركز في منتصف مسافة السويّة التي تشير إلى ثبوت الاتزان دون ميل ولا انحياز، ممّا يجعل العدل قرار حُكمٍ لإحقاق الحَقّ وإزهاق الباطل، والاعتدال توسُّط في الأمر، ومع ذلك هناك فرق بين العدل والاعتدال: فالعدل يستوجب طرفين، والاعتدال قد يتعلَّق بطرفٍ واحدٍ أو شخص واحدٍ، كحالة الاعتدال في الأكل والشّرب، والاعتدال في القول والفعل وفي الأخذ أو العطاء حتى لا يغلب الظاهر على حقيقة ما يكمن من ورائه.

ولأنَّ العدل معيار وسطي؛ فهو الحكم بين النَّاس إن رغب النَّاس أن تكون قيمة العدل هي الحكم بينهم، وإن لم يرتضوا ذلك فلا إكراه؛ قال تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاس أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا

يَعِظُكُمْ بِهِ}[429]، (وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاس) هذه الآية شرطيَّة، أي إذا قبلتم أن تحكموا بين النَّاس، والنَّاس ارتضوكم حَكمًا بينهم فلا تحكموا إلّا بالعدل الذي هو إحقاق حقّ وإزهاق باطل، ولا تميلوا ولا تجنحوا إلَّا للحقِ عدلًا بين المختلفين في الأمر: {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آَمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}[430].

ولأنَّ العدل فضيلة خيّرة من العدل تعالى فلا ينبغي أن يميل الحكم عمَّا أمر الله به عدلًا، أي لا ينبغي أن تغلبه العاطفة، فالعدل حقٌّ شاء من شاء وأبا من أبا.

ولأنَّ الله هو أحكم الحاكمين؛ فهو يرى ما لا يرى المخلوق في أمره وأمر من حوله، فعندما بعث محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم رَسُولا مصِّدقًا لما بين يديه من الكتاب، ومهيمنا عليه؛ ليحكم بينهم بما أنزل الله وهو أحكم الحاكمين، كان أمره تعالى لنبيّه محمَّد أن لا يتَّبع أهواء المختلفين في أمرهم، وأن يحكم فيهم بما أنزل الله في كتابه الحكيم الذي لا انحياز فيه إلّا للحقّ، قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكلّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ

---

[429] النساء 58.

[430] الشورى، 15.

لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آَتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[431].

ولأنَّ العدل فضيلة خيّرة وقيمة حميدة؛ فهو لا مظالم فيه: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}[432]، في هذه الآية الكريمة جاء فعل الاعتداء مرّتين تماثلًا (فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ):

المرَّة الأولى: تحمل دلالتين سلبيّتين:

1 ـ الاعتداء الأوَّل، اعتداء ظالم، لأنَّه اعتداء أوَّل بدون مبرِّرات موضوعيَّة، أي لماذا أصلًا كان التفكير في الاعتداء؟ ولماذا الإقدام عليه!

2 ـ الاعتداء الثَّاني، هو الذي إن امتدَّت حدوده أكثر من مستوى الاعتداء الأوّل يُعدّ اعتداءً ظالما.

المرَّة الثَّانية: تحمل في مدلولها الإيجابيَّة من حيث كون الاعتداء (المترتّب على الاعتداء الأوَّل) هو ردٌّ لا ظلم فيه عندما لا يخرج عن مستوى أو مساحة أو حجم الاعتداء الأوَّل، ممّا جعله حقّ ينبغي أن يُمارس بالتّساوي في حدود الاعتداء الأوَّل.

إذن العدل هو ما يُبذل من جهد في سبيل الفصل بين الخصوم في المنازعات بما يأمر به الحقّ، وأمَّا الحقّ وإحقاقه فهو أعمّ من العدل لأنَّه واجب تبيانه، حتَّى وإن لم يكن هناك خصومة، أو نزاع من أجل دفع الظّلم وعدم التعدّي.

---

[431] المائدة 48.

[432] البقرة 194.

ولأنَّ العدل هدفه الإنصاف، إذن العدل معطية ضروريَّة من معطيات إحقاق الحقّ وزهق الباطل؛ ولذا ارتبط العدل بجميع مناحي الحياة ونظمها؛ فلا يوجد نظام أو قانون أو تشريع يقوم على الحقّ إلَّا وللعدل فيه النصيب الأوفى؛ فهو مرتبط بنظام الإدارة والحكم والقضاء، وأداء الشَّهادة، وكتابة العهود والمواثيق في البيع والشِّراء، وهكذا هو مرتبط بنظام الأسرة والتربية، وكذلك الاقتصاد والاجتماع، والسُّلوك، والتفكير، إلى غير ذلك ممّا له علاقة بأنواع التصرّف المختلفة للبشر، وفي جميع مجالات الحياة؛ فإذا كان العدل هو قيمة إصلاحيَّة؛ فلِم لا تكون الدَّعوة به والدَّعوة إليه؟ فالعدل يحفظ الأخلاق من خطر الانهيار، وأمن الفرد والمجتمع من الاضطراب، وسلامة الدِّول والبلدان.

وهنا فالعدل معطية قيميَّة معياريَّة من معطيات إحقاق الحقّ، وهو يشمل سائر المخلوقات مع أنَّ سائر المخلوقات لم تكن مطالبة بالعدل، وإنَّما المخلوق العاقل هو المطالب بالعدل في نوعه الإنساني وفي الأنواع الأخرى بدليل الخطاب للعاقل في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى إِلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}[433] فالخطاب للعقلاء، وكلّ عاقل مطالب بإقامة العدل في حياته، مع نفسه ومع غيره، حتَّى لو كان الغير عدوّه وخصمه ضمن النّوع، أو مخلوق آخر خارج النّوع، لأنَّ سلطان العدل ليس له حدود؛ فهو يتجاوز حدود الجنّس

---

[433] – المائدة 8.

والنّوع، ويتجاوز حدود الدِّين والعقيدة، ويتجاوز حدود القرابة والنّسب، ويتجاوز حدود الأرض والوطن.

فالعدل هو ما يُلتجأ إليه لإصحاح المفاسد وتقويم السّلوك، وهو المطلب عند ما يكون الخلاف والاختلاف بين النَّاس على حقوق تمارس، وواجبات تؤدِّى، ومسئوليَّات تُحْمل.

فالعدل قيمة أخلاقيَّة بها تنظم العلاقات البشريَّة بين الأفراد والجماعات والمجتمعات، وهو صفة من صفات الأنبياء: {وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا}[434].

العدل قيمة بينيَّة تحكيميَّة تتوسَّط طرفين أو أكثر، مركزها الاتزان وأطرافها من توازن؛ ولذا فإنَّ قيمة العدل مؤسّسة على إعطاء كلّ ذي حقّ حقّه؛ ففي الآية الكريمة السَّابقة يذكر الله تعالى أنَّ حُكم سليمان وداوود كان في وقت الحرث الذي نفشت فيه غنم القوم، وتفرَّقت وانتشرت ليلًا بلا راعٍ؛ فرعت فيه وأفسدت.

ومن خلال سياق الآيات في المعنى وما أوردته المصادر التَّاريخيَّة من نصوص نستطيع القول أنَّ حكمهما كان بالاجتهاد وهو جائز.

وقبل أن نتناول استنباط حكمنا على الحكم بأنَّه:

هل هو وحي من الله؟

أم هو اجتهاد بتفهيم.

نقول:

---

434 - الأنبياء 78- 79.

قبل الوقوف على الأدلّة من الآية في حكمهما من أنَّه:

. اجتهاد من داوود.

. اجتهاد من سليمان.

أم أنَّه:

. اجتهاد من داوود.

. وحي لسليمان.

أم أنَّه:

. اجتهاد من سليمان وداوود.

نقول:

إنَّه لا يصح أن يكون وحيًا لكليهما ويناقض حكم أحدهما الآخر.

إنَّ ما ورد في النَّصّ دليل على أنَّ حكم سُليمان ليس وحيًا؛ فلو كان وحيًا لوجب على سليمان إظهار ذلك.

ولو كان وحيًا؛ فهو محرَّم عليه أن يكتمه.

ومع ذلك فإنَّ سُليمان لم يكن بعد مكلّفا بحمل الرِّسالة، بل كان صبيًّا مفهَّمًا.

فإذا ثبت أنَّه لم يكن مكلَّفًا بعد، ورجع داوود عن حكمه إلى ما حكم به سليمان وجب من ذلك:

. أنَّ حكم داوود لم يكن وحيًا.

. لو كان وحيًا ما عدل عنه.

. لو كان وحيًا ما عارضه سليمان، بل أنَّه تفهيم من الله لسليمان.

ومهما قيل في قضيّة الحكم فإنَّ ذلك لا يقدح في رأي داوود لأنَّ الله تعالى يقول:

وكلًّا: أي داوود وسليمان.

. آتينا.

. حكمًا.

. وعلمًا.

فكان اختلاف الحكم لاختلاف العلم.

ومنه العلم بطريق الاجتهاد لا لسليمان وحده؛ فالجملة لدفع هذا التوهُّم وفيها دلالة على أنَّ خطأ المجتهد لا يقدح في كونه مجتهدًا، وإنَّ الآية دليل على أنَّ كلّ مجتهد في مسألة لا يقطع فيها بالعدول عنها؛ فهو مصيب.

لقد ذكر الله تعالى تخصيص سليمان بفهم القضيَّة لا بفهم الحقّ، لأنَّ داوود وسليمان يفهمان الحقَّ ويعرفانه؛ فقوله تعالى: {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ}[435].

لا يدلّ على عدم معرفة داود للحقّ، لأنَّ تخصيص التفهيم لسليمان أعطى فائدة أخرى لأنَّ كليهما:

. أوتي حكمًا.

. أوتي علمًا.

. أوتي معرفة الحقّ.

. أوتي معرفة العدل.

---

[435] – الأنبياء 79.

. أوتي إصابة الحكم.

ولقائل إن يقول:

إنَّ غاية ما في قوله تعالى: {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ}[436] هو تخصيصه بالتفهيم، ولا دلالة على عدم ذلك في حقّ داود إلّا من طريق عدم ذكر ذلك في حقّه؛ فداوود:

. أوتي علمًا.

. أوتي حكمًا.

فالضَّرورة أنَّه أوتي فهما غير منصوص عليه لخصوصيَّة القضيَّة التي اختصَّ في فهمها سليمان، وليس ذلك بالحُجّة القائمة أو الدَّليل القاطع على عدم تفهيم داوود أكثر من سليمان في قضايا أخرى، وإنْ سلّمنا أنَّه حجَّة غير أنّهما حكما بالنّصِّ حكمًا واحدًا؛ فكان مرجّح حكم سليمان هو التفهيم الذي أضيف إليه، والذي يدلّ على هذا قوله تعالى: {وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا}[437].

ولو كان أحدهما مخطئًا لما كان قد أوتي في تلك الواقعة حكمًا وعلمًا، وإنْ سلّمنا أنَّ حكمهما كان مختلفًا؛ فهذا يرجّح أنَّهما حُكمًا بالاجتهاد وكانا محقّين في الحكم، إلّا أنّه نزل الوحي بإقرار الله تعالى على وفق ما حكم به سليمان بما فهّمه الله تعالى.

وخلاصة القول أنَّ تفهيم سليمان كان الحكم العدل في دعوى الخصمين بالمحافظة على درء أدنى ضرر ممكن؛ وذلك لأنَّ داود:

---

[436] – الأنبياء 79.

[437] – الأنبياء 79.

ـ كان عادلًا في حكمه.

ـ حكم بتعويض الضّرر.

أمَّا حكم سليمان:

ـ كان حكمًا عادلًا.

ـ ضمن التعويض.

ـ ثم زاد الإصلاح عليه.

وهذا الإصلاح والإعمار هو من التَّفهيم الذي امتاز به سليمان عن أبيه داوود وكلاهما قال الحقّ وحكم بالعدل.

ولذا فالعدل قيمة وفضيلة من فضائل الله تعالى التي أمر بها وحثّ العباد على التمسّك بها بينهم.

وعليه فمن العدل:

أ ـ الحث عليه.

ب ـ العمل به في كلّ مكان وفي كلّ زمان؛ فالعدل هو العدل واحد لا اثنان وهو لا يقتصر على مجال من مجالات الحياة، بل يمتدُّ ليشمُل التعامل الحسن في كلّ المجالات الاجتماعيَّة والسِّياسيَّة والاقتصاديَّة والنَّفسيَّة والثقافيَّة والذّوقيَّة؛ ولذا فمن يعدل في حكمه يشدد الله ملكه (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ) أي: جعلناه ملكًا متماسكًا على القوَّة وإحقاق الحقّ عدلًا بين النَّاس، ولهذا بعد أن شدد الله حكم داوود لقد أتاه الحكمة وفصل الخطاب، (وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ) إنَّها الحكمة التي بها تمكّن داوود من الاختيار وحُسن التصرُّف في المواقف المختلفة والظّروف الصّعبة وفقًا لدائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع، أمَّا حُسن الخطاب؛ فهو

حُسن الفصل في القضايا والشكاوى التي تُعرض عليه ليفصل فيها ويحكم بالعدل؛ حيث اتّصافه به عادلًا، وفصل الخطاب مؤسّس على معطيات منها:

ـ الاستماع (للمشتكي) تأسيسًا لفصل الخطاب.

ـ الاستماع (للمشتكى فيه) تأسيسًا لفصل الخطاب.

ـ دعوة الشّهود من كلا الطَّرفين والاستماع لأقوالهم تأسيسًا لفصل الخطاب.

ـ استشارة الآخرين بعد أن يستمعوا لكلِّ طرف من أطراف القضيَّة أو يطّلعوا على حيثياتها المدونة.

ـ الاعتصام بالله تجنّبا لأهواء النَّفس التي تميل في كثير من الأمر.

ـ إنصاف المتخاصمين.

ـ إصدار الحكم (فصل الخطاب) بعد التبيُّن دون غفلة.

ـ أخذ الحقّ من الظَّالم وإعطاؤه لمن أخذ منه.

وقوله تعالى: (وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ) أي هل بلغك الخبر المنبأ به الذي تضمَّن قصّة الخصم الذين تسوَّروًا المحراب ودخلوا دون استئذان، ودون علم مسبق بهم، وبطبيعة الحال من يدخل مُتسوِّرًا ولم يدخل من الباب أمره يخيف، ولهذا تجب الحيطة والحذر كما فعل داوود حيطة وحذرًا تخوّف ممّا سيحدث، وقد لا يحمد عقباه، ولهذا قال المتسوِّرون (تَسَوَّرُوا) جاءت على صيغة الجمع ولم تأت على صيغة المثنى؛ ولهذا اعتمدنا في تحليلنا هذه الصِّيغة كما نزلت في القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل أبدًا، وحتّى لا يتصرّف داوود تصرّفًا بأسباب الحيطة

وأخذ الحذر (قَالُوا لَا تَخَفْ) وهنا يأتي تأكيد الجمع بقوله: (قَالُوا) ولكن ماذا قالوا؟

(قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ) لسان حال الجمع قال: (لَا تَخَفْ) أي وكأنَّ حال لسانهم يقول نحن غير معتدين، ولا مفسدين، ولا نريد أن نعتدي عليك، بل نحن لثقتنا في عدلك جئنا لنحتكم إليك؛ فاحكم بيننا بالعدل.

قالوا: (خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ) يُفهم من هذه الآية الكريمة الخصمان تعني: طرفان، ولا تعني اثنان؛ مصداقا لقوله (بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ) فلو كان اثنان لقال بغى أحدنا على الآخر ولم يقل بعضنا على بعض؛ ولذلك فالبعض من البعض دائمًا جمعي وليس بمفرد؛ ولذا فالخصمان يجوز أن يكونا بني قبيلة وبني قبيلة أخرى، أو أسرة وأسرة أخرى، أو جماعة وجماعة أخرى، أو قوم وقوم؛ ولذا لا يمكن أن يكون تبعيض البعض من البعض إلَّا جمعًا.

ولأنَّهم متخاصمون قالوا (بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ) أي اعتدى بعضنا على البعض، ولأنَّ الاعتداء ليس بحقّ قالوا: (فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ) يُفهم من هذه الآية الكريمة ميزة عظيمة ألَّا وهي: قبول الخصمين (الطَّرفين) الحكم بالحقّ، وهذا يدلّ على أنَّ المتخاصمين همّ من العباد المهتدين، ولهذا فهم اهتدوا إلى داوود لثقتهم أنَّه يحكم بالعدل من جهة، ولكرههم للظُّلم وحبّهم لإظهار الحقّ من جهة أخرى.

وقوله تعالى: (وَلَا تُشْطِطْ) تأخذ احتمالات منها:

أ ـ لا ترفض طلبنا إليك واختيارنا لك حكمًا حتَّى وإن انزعجت من طريقة دخولنا عليك بأسباب الاختلاف التي يجوز أنَّها أظهرتهم عن التَّأنيّ والدّخول من الباب كما هو المعتاد، واستعجلت بهم لتسوُّر المحراب سرعة واستعجالًا كي لا يسبق أحدهما الآخر؛ فيكون هو الطَّرف الوحيد المشتكي؛ ولذا فتسوُّرُ المحراب الذي يدلّ على العجلة جعلهما يدخلان على داوود في وقتٍ واحدٍ ممّا جعلهما (الطّرفين المتخاصمين) يشتكيان معًا في ذات الوقت الواحد.

ب ـ قبلناك حكمًا عدلًا فلا تمل لأحدٍ على حساب الآخر.

ج ـ لا نبغي منك ظلمًا لأحدٍ منَّا.

هـ ـ نريد منك إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل.

و ـ نريدك تهدينا الطَّريق المستقيم البيّن، الذي لا يلاحقه بعد حكمك بيننا شكًّا ولا ظنًّا، (وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ) إلى العدل، ولا تخالف بنا سواء الصِّراط.

وصلب القضيَّة التي بشأنها تسوَّر الخصمان المحراب استعجالًا هو قوله تعالى: (إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) كلمة أخي لا تقتصر على الأخ من الأب والأم، بل عند العرب تعني ممّا تعني:

ـ أخي في الدَّم: من قرابة وعمومة يعود كلٌّ من المتخاصمين إليها وفقًا لما يؤول الآل إليه.

ـ أخي في النّسب: من قرابة الأهل مصاهرة وهي المكوّنة للعلاقات الاجتماعيَّة والإنسانيَّة.

. أخي في الدِّين: الذين يدينون بما هداهم داوود إليه وهو الإسلام.

. وقد تتجاوز كلمة أخي إلى كلّ من يستوجب الاعتراف به وتقديره تقديرًا عاليًا مكانةً ورفعةً وهدايةً.

.كلمة أخي تدلّ على من لا يكون عدوًّا.

وبناء على ما تقدّم فإنَّ كلمة أخي كما جاء ورودها في الآية الكريمة السَّابقة دالة على أنَّه لم يكن عدوًا لي.

وقوله تعالى: (لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ) مجموع النِّعاج مائة نعجة، يملك البعض تسعًا وتسعين نعجة، ويملك واحدٌ منهم نعجةً واحدةً، ونحن نقول: نعاج ونعجة ولا نقول غير ذلك؛ حيث لا يحقّ لنا التأويل فيما جاء نصًّا صريحًا في القرآن الكريم، ولا نرى أن تُحمَّل المعاني اللغويَّة ما لم تُحمَّل؛ وقوله تعالى: (فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) أي: لا تخف على نعجتك أتركها مع نعاجي ترعى، وكن مطمئنًا عليها في الحفظ والرّعاية.

وقوله تعالى: (قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ) السّؤال مطلب يستوجب إجابة، والسّؤال لا يتضمّن الأخذ بغير حقٍّ، ولكن يدلُّ على الأخذ بالحقِّ، كأنْ تقول لمن يمتلك نعجة واحدة أتتركها مع غنمي اشتريها منك، أي أتبيعها بعد أن عاشرت نعاجي الكثيرة وأنت لا تمتلك غيرها، ألا يكون من الأفضل أن تتركها لي ترعى على حسابي اشتريها؟ يجوز هذا السُّؤال أن يترتّب عليه انزعاج من صاحب النّعجة باعتباره لا يقبل ذلك وهو بين أمرين:

. أمر الفضل الذي به قبل صاحب النِّعاج أن تُترك النَّعجة ترعى دون مقابل مع نعاجه حُرَّة لمالكها.

. أمر السُّؤال الذي يلغي عودتها إلى صاحبها الأوّل إن قَبِل، ونحن نقول: إنْ قَبِلَ لأنَّ المتخاصمين وفقًا لما تقدَّم لا يطالبون إلَّا بالحقِ، وفي اعتقادنا تطوير هذا الأمر على مستوى القضيَّة لأجل إظهار الحقّ وإن صغر، ولأجل عدم التسرّع بإصدار الحكم قبل التبيُّن.

ومع أنَّ داوود كان محقًّا في حكمه وفقًا لِما سمعه من (صاحب النّعجة) إلَّا أنَّ اكتمال القضيَّة لا يكون إلَّا بالاستماع للطّرف المشتكى فيه، ولهذا جاء استغفار داوود مسرعًا كما جاء حكمه السَّابق مسرعًا، ونظرًا لِحُسن النيّة وصفائها عند داوود وصدقه في إحقاق الحقّ وحكمه بالعدل؛ غفر الله له وقرَّبه منه مقامات عظام، وجعله خليفة في الأرض ليحكم بين النَّاس بالعدل[438].

وعليه: فإنَّ أمر اتباع العدل والأخذ به ليس أمرًا هيّنًا، فهو يحتاج إلى تأنٍّ من أجل جمع المعلومات وفرز البيّنات منها، كما أنَّه يحتاج إلى عادلٍ يميّز بين الحقِ والباطل، ويمتلك الإرادة بلا مخاوف، يقول الحقّ ويحكم به ولا يلغي قيم الصّفح والتصالح والتسامح بين النَّاس، ولهذا فلا وسيطيَّة في العدل، بل العدل واحد فلا يقبل القسمة، ولا يقبل النقصان (عدلٌ أو لا عدلٌ)[439].

[438] عقيل حسين عقيل، تقويض القيم، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م، ص 191 – 294.

[439] عقيل حسين عقيل، العدل لا وسطية ولا تطرف، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م، 6 – 19.

الاستخلافُ عدلٌ وتوافق:

الاستخلاف لا يكون إلَّا تمكّنًا في الأرض عدالةً وتوافق؛ ولذا حيث ما كان التوافق بين النَّاس قيمة مقدّرة كان العدل والانسجام والتفهُّم بينهم سائدًا، ومع أنَّ التوافق قيمة مأمولة، فإنَّه من حيث المفهوم لم يكن الاتفاق؛ فالاتفاق إرادي ولكن يمكن أن يكون بين أعداء كالاتفاق على وقف إطلاق النَّار بينهما، وهذا لا يعني أنَّهما متوافقان؛ فالتوافق لا يكون إلَّا على رؤى وقضايا ومواقف جمعيَّة، ممّا يجعل البعض يتوافق مع القيم ولا يتَّفق مع الآخر.

ومن هنا فالتّوافق قيمة اجتماعيَّة وإنسانيَّة بلوغها ممكنٌ ولكنّه يستوجب عدلًا؛ فمن بلغه تجنَّب المظالم وآمن الآخرين واطمئنَّ معهم، والتّوافق لا يكون إلَّا بتقارب المطلب مع الرَّغبة، وتقارب الحاجة المتطوّرة مع مشبعاتها المتنوّعة وظروفها الموضوعيَّة، وهو المحقّق للرِّضا دون تقديم تنازلات بغير حقٍّ.

فالتّوافق انسجام إرادي، به تتوافق الأقوال والأفعال مع الموضوع بين الأنا والآخر، ويحقّق انسجامًا وتقاربًا بين أراء وأفكار ووجهات نظر المشاركين في الموضوع الواحد ممّا يجعل المشاركة بين الطّرفين موجبة لتساوي كفتيهما عدلًا. وهذا لا يعني ألَّا يكون التّوافق سالبًا؛ فمثلما يتوافق الإصلاحيّون كذلك يتوافق المفسدون، والفرق بينهما الموضوع والغايات التي من ورائه.

ولأنَّ التّوافق مع الإيجابيَّات توافق مع الحقِّ والعدلِ؛ فأصحاب الحقّ لا يُقرُّون إلَّا حقًّا وعدلًا وبكل إرادة؛ فالذين يوفون الكيل والميزان

بالقسط عند كلِّ موزونٍ ولا يبخسون النَّاس أشياءهم هم المتوافقون مع الحقّ وموجبات إحقاقه، ومع أنّ التّوافق واحد إلّا أنّ للتوافق أنواعًا موضوعيَّة كتوافق الزّمن مع الزّمن وتوافق المكان مع المكان وتوافق الظَّرف مع الظَّرف وتوافق الودِّ مع الودِّ وتوافق الظّلم مع الظّلم، وهكذا فإنَّ التّوافق لا يتعدّد ومواضعه ومعطياته تتعدّد، حتَّى في القصاص لا حلَّ للمشكل ولا حكم فيه عدلًا إلَّا بالتّوافق: {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفس بِالنَّفس وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ}[440].

ولكن متى سيكون التّوافق سائدًا بين النَّاس؟

أقول:

. بعد أن يكونوا طائعين لله وللرَّسُول.

. بعد أن يكونوا طائعين لأولي الأمر منهم بإرادة.

. بعد أن تسود بينهم فضائل وقيم طاعة الوالدين في غير معصية الله تعالى.

. بعد أنْ يعترف كلٌّ منهم بالآخر.

. بعد أن تقدّر الخصوصيَّة ولا يمتدَّ أحدٌ على حساب هويّة آخر.

. بعد أن تمنح الفرصة للتفهّم والتفاهم.

. بعد أن ينتهوا عن ارتكاب أفعال الرّذيلة.

. بعد أن ينتهوا عن الكذب.

. بعد أن ينتهوا عن الفسق.

---

[440] المائدة 45.

. بعد أن ينتهوا عن المنكر.

. بعد أن ينتهوا عن الكيد لبعضهم بعضًا.

. بعد أن ينتهوا عن أعمال التطفيف للكيل والميزان.

. بعد أن ينتهوا عن أفعال الزِّنا.

. بعد أن ينتهوا عن أفعال المظالم.

. بعد أن ينتهوا عن أعمال الخيانة.

. بعد أن ينتهوا عن السَّرقة.

. بعد أن ينتهوا عن أعمال التزييف.

. بعد أن ينتهوا عن أعمال الإفساد في الأرض وسفك الدِّماء فيها بغير حقّ.

. بعد أن تسود بينهم فضائل وقيم التّسامح.

. بعد أن تسود بينهم فضائل وقيم التآخي.

. بعد أن تسود بينهم فضائل وقيم التّعاون.

. بعد أن تسود قيمة الاعتبار للأفراد والجماعات والشّعوب والأمم.

. بعد أن يعتمدوا الفضائل الحميدة والقيم الخيِّرة في مقرراتهم التعليميَّة ووسائلهم الإعلاميَّة والثَّقافيَّة إحقاقًا للحقِّ وإزهاقًا للباطل (هما كما هما) نصًّا قرآنيًّا منزّلًا دون مبالغة ولا تعمّد غير موضوعي.

. بعد أن يتمسّكوا بمفاهيم دينهم القويم ويجلوا عنه ما علّقوا به من عالقات ليست في محلِّها أبدًا.

. عندما لا يتمسّكوا بوجوبيَّة تماثل القيمة مع الواقع وكأنَّ القيم تمتلك مطلقيَّة الثَّبات؛ ففي بعض الأحيان الواقع يتقدَّم على القيم ممّا

يستوجب العمل على تقييم القيم وتقويمها؛ لكي تواكب حركة التغيّر والتقدّم إلى الأفضل والأجود والأنفع، وفي البعض الآخر الواقع يتخلّف كثيرًا عن معطيات القيم، ممّا يستوجب عدم الرّكون إلى الواقع المتخلّف والتمسّك بالقيم المستمدّة من الفضائل الخالدة والأعراف الرَّائدة والقيم الخيِّرة.

فالتوافق كونه قيمة حميدة فهو قيمة مرضية، ولكن ليس دائمًا لا يكون التوافق إلَّا عن رغبة ورضًا، بل هناك من يرفض لأنَّه غير متوافق، ولهذا فهو يرفض لأجل أن يصبح متوافقًا مع نفسه ومرضاة ضميره وربّه جلَّ جلاله؛ ولذا فالرّفض للظُّلم خير يجعل النَّاس متحابين على الحقّ والعدل؛ فبهما يتوافقون حيث لا مظالم ولا مكائد ولا إقصاء ولا تغييب ولا تعذيب؛ فالرّفض المؤدِّي إلى التوافق أمر واجب الأخذ به والسعي إلى تحقيقه بموجبات تجعله من الثوابت المنطقية، وإنّ أيّ أمر عندما يكون مطلبًا لابدّ له من غاية ينتهي إليها، والغائيَّة الرَّفضيَّة لا تتحقّق إلَّا بأمور كثيرة متنوّعة كي تصل إلى منتهياتها التي تنسجم مع المتطلبات، وأمَّا المنتهيات التي نعنيها فهي آخر ما سينتهي إليه الأمر وهو بلوغ التوافق عدلًا.

وعليه: التوافق قيمة نفسيَّة واجتماعيَّة وإنسانيَّة إذا سادت بين النَّاس كانت دليلًا على انتشار الودّ بينهم، وإذا انعدمت كان الودُّ من قبلها معدومًا.

ولأنَّ التوافق أمل المصلحين في الأرض؛ فهو لا يكون إلَّا على ما هو مُصلح، ولكن متى يبلغ النَّاس هذه القيمة قولًا وعملًا وفعلًا وسلوكًا؟

أقول:

إذا تطابقت النَّوايا مع الأعمال والأفعال وانتهت الخلافات بسيادة العدل بين النَّاس وتوافقوا على البرِّ والإحسان، ولكن إنْ سادت المظالم بينهم وعمّت تماثلوا في ارتكاب المفاسد، ولهذا فالمظالم قد يتماثل النَّاس في ارتكابها كما يتوافقون في القيام بأعمال الإصلاح والإعمار والفلاح والبناء.

ولأنَّ أسباب الخلاف من ارتكاب المظالم، إذن لا يمكن أن ينتهي أو يزول الخلاف ما لم تنتهِ وتزول المظالم؛ لذلك فالتوافق لا يكون إلَّا بين العقلاء، وهذا ما يخالف التكيّف الذي ينسحب على العقلاء وغيرهم كالمكان والأشياء التي نتكيَّف معها ولا نتوافق معها على الرُّغم من اشتراك المفهومين بمعطيات كثيرة، فالتكيّف غالبًا ما يكون اهتمامه ماديًّا، أمَّا التوافق فينصبّ على الجانب الرّوحي والعقلي والمعرفي والمعنوي من حيث الأفكار والمعتقدات والآراء والطّموحات والآمال؛ فهو جانب فكري عماده العقل، بينما التكيّف يكون مادّيًّا مرحليًّا، كأن يتكيّف الإنسان مع الغُربة أو السّجن أو يتكيّف مع جلسة معيّنة تُفرض عليه بوضعٍ معيّن لمدّة محدّدة؛ فهو مضطر للتكيّف مع المرحلة في فترة زمنيَّة معيّنة لظرف خاصّ ليس له فيه رغبة ضمن بيئة فرضت نفسها عليه، ولهذا تنتفي فيه الرَّغبة على الرّغم من القبول بالواقع، ومن هنا يكون التكيّف قائمًا على التنازلات، قلّتْ تلك التنازلات أم كثُرتْ، وبما أنَّ التكيّف لا يتمّ إلّا بتقديم التنازلات، ماديَّة حينًا بدفع ثمنٍ مادِّي، ومعنويَّة حينًا آخر كأن يوضع الإنسان في موقف لا يرضاه لنفسه مع القبول به،

أو ينزل منزلة هي أدنى من منزلته فيتكيّف معها إلى حين انتهاء الظّرف والضّرورة.

أمَّا التوافق فيقوم على الفكرة سواء أكانت مؤدِّية إلى الرّفض أم القبول، انطلاقًا له وسيلةً وهدفًا وغايةً بحيث تجعل التوافق ناتجًا عن رغبة.

وهذه الرَّغبة تدفع إلى بناء جسور تلاقٍ وإقامة علاقات قويَّة مع الآخرين والتوافق معهم، بحيث تقوم على أساس قناعة العقل مع منطقه وإقناعه بالحُجَّة والدّليل والبرهان، والتوازن مع نظام الكون والحياة، ومع السُنن الطبيعيَّة والبشريَّة.

غير أنَّ القوَّة التي تتخطّى غاية الرّفض من التوافق إلى التكيّف، تخرج عن صفة الرّفض إلى الإخافة التي تفرض قبول الآخر هو كما هو؛ فيتطلب الأمر من هذا الآخر أن يقبل الواقع ويتكيّف معه بتقديم التنازلات التي يستوجبها التكيّف، وقد لا يتمّ ذلك إلَّا بإكراهٍ؛ لأنَّه لم ينبع من قناعات.

إذن: فالتكيّف لن يكون غاية طالما هو قائم على تقديم التنازلات بالإكراه، بل الغاية هي التي تؤدّي إلى القبول والرِّضا في عمليَّة توازن تُفضي إلى المحافظة على المال والنَّفس والكرامة التي تشعر بالتّوافق بين جميع الأطراف على أساس حفظ الحقوق وممارستها، ومعرفة الواجبات وأدائها، وتحديد المسئوليّات وحملها من قبل الذين يتعلّق الأمر بهم.

وهنا يصبح التوافق غاية إنسانيَّة ولكنَّه لا يكون قيمة سائدة بين النَّاس إلَّا بتقدير قيمة الإنسان الذي من حقّه أن يقبل ويرفض، ويأمر وينهى، ويتكلّم ويعبّر، ويقرّر ويقدم على تنفيذ ما يقرّه دون أن يكون

على حساب حقوق الآخرين ومجالات امتدادهم، فمن حقّه الانتقاد كما من حقّه التقييم والمحاسبة والتقويم والتصحيح والإصلاح والبناء والإعمار، ولا يجوز لأحدٍ أن يقصيه أو يحرمه من ذلك، ومن يحاول ذلك ينبغي أن يزاح من الطَّريق الذي لا يعبَّد إلَّا من أجل مستقبل الجميع دون فرقة ولا فوارق وبكلّ معطيات العدل وأفعاله الإنسانيَّة.

وعليه: التوافق لا يكون بين النَّاس قيمة سائدة إلَّا عن إرادة، ومتى ما بلغ النَّاس التوافق عدالة بلغوا الحلّ الذي يجد الإنسان نفسه به مقدّرًا ومعتبرًا، فقمّة السُّلطان عندما يكون صوته صوت النَّاس يكون هذا الصّوت دليل العدل والتوافق التَّام بين الشّعب وقمّة السُّلطان، وعندما تختلف الأصوات بين الشّعب وقمّة سلّم السُّلطان لن يعلو صوت على صوت الرّفض الذي ينقل أصحابه من التسليم بغير حقّ إلى العمل المحقّ للحقِّ.

ولأنَّ التوافق قيمة حميدة ومرضية لجميع المتوافقين؛ فهو المأمول الذي يعيد التوازن والانسجام بين الأفراد والجماعات والشّعوب، وكلّما توافق النَّاس عدالة في وطنهم كوّنوا الوحدة الوطنيَّة المأمولة، التي بها يتمكّنون من فرض إرادتهم، ولكن في الأوطان التي يتولّى أمرها الظّلمة أوَّل ما يستهدفونه هو تفتيت الوحدة الوطنيَّة وتقسيم الشَّعب إلى طوائف وقبائل وأحزاب متصادمة حتَّى لا تلتقي على رأي واحد فتطيح بالدّكتاتور وتسقط نظامه[441]. ولهذا فلا وسيطيَّة في العدل، العدلُ واحدٌ ويمكن الاتصاف به، ومن يأخذ به فعلًا وسلوكًا يتَّصف به عدالة.

---

[441] عقيل حسين عقيل، تقويض القيم، شركة الملتقى، بيروت، 2011م، ص 107 – 116.

الحكمُ استخلافٌ:

الحُكم وفقًا لِما يجب هو قضاء لا يُمكّن منه إلّا عادل، ووفقًا لِما لا يجب قد يبلغه من هو غير عادل، وفي كلتا الحالتين هو قوّة سُلطانيَّة سواء أكان على مستوى الجماعة أم على مستوى الوطن أم الأمَّة. به تنتظم وتصلح الأحوال والعلاقات السُّكانيَّة أو تفسد؛ فإنْ صلحت كان العمار والبناء والرَّخاء علامات دالّة على وجوه النَّاس وأنفسهم تملؤها السَّكينة والطمأنينة، وإنْ فسدت كان الشَّقاء والضَّلال والألم علامات دالة على وجوه النَّاس الذين يملؤهم القلق والشَّقاء، وفي كلتا الحالتين كلّ حُكمٍ زائل سواء أكان في مرضاة الله، أم أنَّه كان في غير مرضاته، ولكن لكلٍّ حِسابه ثوابًا طيّبًا أم عقابًا شديدًا.

ولذا فللحكم وظيفة تؤدّى بمسئوليَّة عندما تكون المسئوليَّة مناطة من قبل الذين يتعلّق أمر الحكم بهم، وفي المقابل قد لا يؤدّى بها إن كان الحاكم منصَّبًا بالقوَّة.

والحُكم العدل هو إظهار حقّ لمن يُحكم له، ولمن يُحكم ضدّه؛ فمن حُكِمَ له، أُقرَّ له بحقّه عدلًا، أي: تمَّ قبول حُجَّته بدلائل وشواهد دالّة على إظهار الحقيقة من مكامنها هي كما هي، ومن أقرَّ له بظلمه، حُكِمَ ضدّه عدلًا، وتمَّ إبطال ادعاءاته بحجّة دامغة أوجبت الأخذ منه ما ليس له؛ ولذا فالحكم العدل إنصاف لا تلحقه المظالم.

إذن: الحكم المرضي هو الذي يسود بالحُجَّة التي تعيد الحقّ لأصحابه كلّما ظُلموا؛ فالحكم إنْ فقد حُجَّته فقد شرعيّته، وإنْ فقد شرعيَّته وجب التغيير.

والحكم من حيث الدّلالة والمعنى هو إحاطة بالأمر الذي يتعلّق بالمحكومين؛ فإنْ كان الحاكم مختارًا عن إرادة كان مرضيًا مادام يحكم عدلًا، وإنْ كان عن غيرها فلم يكن مرضيًا وإن تظاهر بالعدل، ولهذا لا حكم إلّا من الله تعالى الذي يُقرّ العدل حكمًا بين النّاس؛ فهو الذي يؤتي الملك لمن يشاء وينزعه ممّن يشاء، أي يؤتي الحكم ملكًا لمن يشاء من أجل العدل، وينزعه من أجل العدل ممّن يشاء: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[442].

وهنا يكون الحكم مُرضيًا عندما يكون بمعطيات شرعيَّة ودستوريَّة وقانونيَّة، ولا يكون مُرضيًا عندما يكون بغيرها.

فالحكم قيمة حميدة عندما يؤسّس إرادة وإدارة واعية بأمور النَّاس وفقًا لما يجب والإقدام عليه، وما لا يجب والتوقّف دونه والانتهاء عنه؛ ولهذا فهو يستوجب معرفة واعية وإتقانًا ومهارة مع مقدرة عالية على تحمَّل المسئوليَّة، ويتطلّب أسلوبًا به يتمّ الإقدام على الفعل مع تمييز عالٍ بين ما يناسب المتوقَّع وما يناسب غير المتوقَّع، ومن ثمَّ فالإتقان في إدارة الحكم يُظهر الجودة ذات المعايير القابلة للقياس والتقييم والتقويم.

والحكم عندما يكون عدلًا ينال رضا الحاكم العادل والمحكوم بعدلٍ، ولأنَّ الحكم يستوجب إرادة وإتقّان للإدارة بمسئوليَّة؛ فهو يتطلّب علمًا ومعرفة ودراية وخوفًا من الانزلاق في ارتكاب المظالم؛ لأنَّ الحكم في أساسه

[442] آل عمران 26.

هو المنع من الظُّلم؛ ولذا فالحكم ضبط وفقًا للمخافة حتَّى لا تسود بين النَّاس المفاسد والمظالم والأوجاع والآلام.

وعليه: فالحكم قيمة حميدة كونه مطلبًا من النَّاس ورغبة من أجل تسيير أحوالهم وتنظيم علاقاتهم بالتربويَّة والتعليم والعمل والإنتاج وكلّ الخدمات التي تنمّي معارفهم وتُحسّن علاقاتهم مع الآخرين وتقوّيها مع الدِّين والعرف اللذين تستمدّ منهما الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة. وهنا عندما يكون الحكم مطلبًا من النَّاس لا خوف منه، ولكن عندما يكون مطلبًا من الذي يريد أن يحكم النَّاس؛ فالخوف والحذر يجب أن يكونا مع وافر الفطنة والانتباه وإلَّا سيحدث النَّدم ويصبح الثَّمن المدفوع غاليًا.

إذن: فالحكم كونه قيمة حميدة فهو المرتبط بالعدل، أي إنَّ الحكم من غير عدل لا يكون إلَّا مفسدة، والحكم مع العدل يكون الموصوف بالإصلاح والإعمار والبناء والتوفيق.

وعليه: فإنَّ الذين يقولون طاعة أولي الأمر واجبة، نقول لهم نعم، ولكن في مرضاة الله تعالى، أي: لا طاعة لهم في غير ذلك، فإن كان الحاكم ظالما فهل الله تعالى يؤيّد ظالما أو يناصره ليكون عبيده المؤمنون مؤيّدين له ومناصرين؟

وإذا كان الحاكم مفسدًا في الأرض، فهل يكون هذا الحاكم في مرضاة الله تعالى؟

بدون شكٍّ للفساد أنواع متعدّدة ومتنوّعة، منها:

ـ تزوير الانتخابات.

ـ شراء الذِّمم.

ـ اختلاس أموال الشَّعب.

ـ العبث بثروة الشَّعب وتبذيرها.

ـ تجهيل الشَّعب.

ـ بثُّ الفتن بين أبناء الشَّعب ومكوّناته الاجتماعيَّة.

ـ نشر الوساطة والمحسوبيَّة.

ـ اصطناع التأزُّمات الوطنيَّة.

ـ الحرمان من ممارسة الحقوق.

ـ الحرمان من أداء الواجبات.

ـ الحرمان من حمْل المسئوليَّات.

ـ سفك الدِّماء بغير حقّ من أجل بقاءه حاكمًا ظالما.

وعليه: كيف يمكن للوطن أن يتقدَّم؟ وكيف يمكن للمواطن أن يطيع ولي الأمر وهو على هذه المفاسد؟

أقول:

طاعة ولي الأمر واجبة في غير معصية ما أمر الله به، ولكن إنْ أصبح ولي الأمر على مجموعة من المفاسد؛ فلا طاعة له فيما يرتكبه من مفاسد؛ ولذا إن كانت المفاسد سائدة في سياسة أُولي الأمر منكم؛ فلا طاعة لهم في معصية وإفساد في الأرض؛ قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ إِلَّا إِنَّهُمْ همّ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ}[443].

---

[443] البقرة 11، 12.

ولأنَّ من بين الإفساد في الأرض قتل النَّفس التي حرّم الله؛ فولي الأمر إن قتل نفسًا بغير حقّ فقد أفسد، ولأنَّ بعضًا من أُولي الأمر يعلم أنَّ من قتل نفسًا بغير حقٍّ فلا كفَّارة له ليكفِّرَ بها عن ذنبه؛ فهو قد يكون أكثر تماديًا في سفك الدِّماءِ بغير حقّ كونه يعلم أنَّه لا مغفرة له في تلك النَّفس البريئة، وهو بهذا الذّنب وكأنَّه قتل النَّاس جميعًا، وبالتّالي لن يتردّد في المزيد من القتل بغير حقّ؛ وذلك لمعرفته أنَّ الذّنب جسيم فتستوي عنده الأنفس بالقتل دون تردّد، ومن هنا فإنَّ جميع المفاسد كفيلة بتوليد الغضب في نفوس الشَّعب، ممّا يجعل لكلِّ بداية نهاية، ومن ثمَّ سيولّد الغضب في كلّ الأنفس المكمَّمة الأفواه؛ وذلك باستشعارهم المفاسد، وحينها سيقرّرون الرّحيل لكلِّ مفسدٍ ويفعلون، فعلى ولاة الأمور أن يعلموا أنَّ من يُفسد في الوطن ولا يرحل بإرادة عندما تقال له عن طيب خاطر؛ فلا بدّ وأن ترحّله إرادة الشَّعب كرهًا.

ولأنَّ الأمر بالمعروف مأمور به حكمًا عدلًا، والنَّهي عن المنكر هو الآخر مأمور به حكمًا وعدلًا، والإصلاح في الأرض مأمور به حكمًا وعدلًا، وفي مقابل ذلك الإفساد منهي عنه حكمًا وعدلًا، فإنَّ الضَّرورة أصبحت تستوجب وتتطلّب حُكمًا، وحَكمًا، وقانونًا شرعيًّا، ليكون الحكم العدل بين النَّاس فضيلة خيّرة وقيمة حميدة.

ولأنَّ الحكم العدل مطلبٌ شرعيٌّ؛ فَلِمَ لا يكون سائدًا بين النَّاس؟

أقول:

في البلدان المتقدِّمة علمًا ومعرفةً وسياسةً واقتصادًا وتنظيمًا حكوميًّا وأهليًّا واجتماعيًّا وشعبيًّا لا تعرف إلَّا الحكم العدل؛ فلا احتكار للسّلطة

ولا للثَّروة ولا للإدارة، التداول على السُّلطة يكفله الدَّستور، وتوزيع الثَّروة وكيفيَّة التصرّف فيها يحميها القانون، وتولّي المناصب الإداريَّة لا تقتصر على الأقارب وبطانة الظّلّ، أمَّا في بلدان التخلّف فالأمر غير ذلك، الدّستور فيها يُمكّن من الحكم، ثمّ يتمّ التخلّي عنه بالتعديل والتغيير والتحكُّم فيه بقوانين الطَّوارئ، أو بقانون الثَّورة مستمرة.

وهكذا حال الثَّروة اغتنام فرصة، وهكذا أيضًا أصحاب النفوذ يتهرَّبون من دفع الضَّرائب، ومن هنا فما يمكن أن يمتلكه الحاكم لا يمكن أن يطمع غيره من امتلاكه، بل ولا حقّ له أن يسأل ولا يتساءل، وإن حاول أحدٌ أن يسأل أو يتساءل عن حُسن نيّة سيسأل: من أنت؟ أي أنت من يكون؟ هل أنت زوجة الحاكم؟ أم أنت أحد أبنائه؟ أم أنت أحد أفراد عشيرته أو قبيلته؟ ولذا فمن أنت؟

وعليه: فإنَّ هذه الإجراءات التعسّفية وما يشابهها كثير، هي في حقيقة الأمر التي قوّضت قيمة الحكم من أن يكون عدلًا بين النَّاس[444].

وعليه: فلا مكان لبقاء الخليفة في الأرض خليفة، المكان فقط أصبح بين من يتولّى الأمر في البلاد، ومن ينقلب عليه متى ما سنحت له الفرصة بذلك؛ حتى وإن كان أحد ابناءه.

أمر الخلافة في الأرض يتعلّق بالكافَّة إدارةً وتسييرًا، وسيادة وهويَّة، دون إقصاء أو تهميش لمن له الحقّ في المشاركة وحمل المسئوليَّة المترتِّبة على حقوق تمارس وواجبات تؤدَّى.

---

[444] عقيل حسين عقيل، تقويض القيم، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م، ص 177 – 190.

المؤلّفُ في سطورٍ

. أ د. عقيل حسين عقيل

. مواليد ليبيا 1953م

. بكالوريوس آداب 1976م بدرجة الشّرف الترتيب الأوّل جامعة الفاتح (طرابلس).

. معيد بكليَّة التربية طرابلس قسم الخدمة الاجتماعيَّة 1977م

. ماجستير تربية وتنمية بشريَّة، الولايات المتحدة الامريكيَّة (جامعة جورج واشنطن) 1981م مع درجة الشّرف.

. دكتوراه في الخدمة الاجتماعيَّة 1992م.

. أستاذ بجامعة الفاتح كلية الآداب (طرابلس).

. شغل منصب أمين عام اتحاد الطلبة بمحافظة سبها 1970 – 1972م.

. شغل منصب أمين تعليم بلدية طرابلس (1986 . 1990).

. انتخب من قبل مؤتمر الشَّعب العام مفتشا عامًّا لقطاع الشؤون الاجتماعيَّة، ثمّ كلِّف بالتفتيش على وزارتي التعليم العام والتعليم العالي 2006م.

. شغل منصب أمين التعليم العالي (وزيرًا) 2007 . 2009م.

. انتخب أمينًا عامًّا للتنمية البشريَّة بأمانة مؤتمر الشَّعب العام 2009م.

. صدر للمؤلّف 92 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

. صدر له (203) مؤلّفا منها سبعة موسوعات.

. أشرف وناقش 83 رسالة ماجستير ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثيَّة:

1 . الخدمة الاجتماعيَّة والتنمية البشريَّة.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية.

الموقع الإلكتروني: (موقع الدكتور عقيل حسين عقيل)

أو: https://draqeel.com/

صدر للمؤلّف

صدر للمؤلّف الدّكتور عقيل حسين عقيل: 92 بحثا نشرت داخل ليبيا، وخارجها.

صدر له (203) مؤلّفا منها: سبعة موسوعات، وهي:

1 . الموسوعة القِيميَّة لبرمجيَّة الخدمة الاجتماعيَّة (4 مجلَّدات)، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

2 . موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض (11 مُجلَّد)، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2009م.

3 . موسوعة صفات الأنبياء من قصص القرآن (9 مجلَّدات)، المجموعة الدوليَّة للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

4 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن (12 مجلَّد)، المجموعة الدوليَّة للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

5 . الموسوعة من قيم القرآن الكريم (13 مجلَّد)، شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

6 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة (27 مجلَّد)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

7 . موسوعة الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (18مجلَّد).

أشرف، وناقش 83 رسالة ماجستير، ودكتوراه بالداخل والخارج.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثيَّة:

1 . الخدمة الاجتماعيَّة، والتنمية البشريَّة.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسِّياسة.

4 . الإسلاميَّات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلَّفات باللغة الإنجليزيَّة، والتركيَّة.

المؤلَّفاتُ المنشورة

1 . مستوى التحصيل العلمي بمرحلة التعليم المتوسط، طرابلس ليبيا، 1989م.

2 . الأصول الفلسفيَّة لتنظيم المجتمع، منشورات جامعة طرابلس، ليبيا، 1992م.

3. فلسفة مناهج البحث العلمي، منشورات الجأ، 1995م.

4 . منهج تحليل المعلومات وتحليل المضمون، منشورات الجأ، مالطا، 1996م.

5 . سيادة البشر دراسة في تطور الفكر الاجتماعي، منشورات الجأ، مالطا، 1997م.

6 . المفاهيم العلميَّة دراسة في فلسفة التحليل، المؤسسة العربيَّة للنشر وإبداع، الدار البيضاء، 1999م.

7 . البُستان الحُلم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1999م.

8 . التصنيف القيمي للعولمة، منشورات الجأ، مالطا، 2001م.

9 . الديمقراطيَّة في عصر العولمة (كسر القيد بالقيد)، دار الجأ، مالطا، 2001م.

10 . نشوة ذاكرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004م.

11 . خماسي تحليل القيم، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

12 . منطق الحوار بين الأنا والآخر، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

13 . خدمة الفرد قيم وحداثة، دار الحكمة، 2006م.

14 . خدمة الجماعة رؤية قيميَّة معاصرة، دار الحكمة، 2006م.

15 . البرمجيَّة القِيميَّة لمهنة الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدوليَّة للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

16 . البرمجيَّة القِيميَّة في طريقة تنظيم المجتمع، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

17 . البرمجيَّة القِيميَّة في طريقة خدمة الجماعة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

18. الموسوعة القِيميَّة لبرمجية الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

19 . البرمجيَّة القِيميَّة في خدمة الفرد، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

20 . مفاهيم في استراتيجيات المعرفة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

21 . المقدمة في أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، بيروت . دمشق، 2009م.

22 . موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2009م.

23 . ألستم من آل البيت، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

24 . مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

25 . خطوات البحث العلمي (من تحديد المشكلة إلى تفسير النتيجة)، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

26 . قواعد المنهج وطرق البحث العلمي، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

27 . أسماء حُسنى غير الأسماء الحسنى، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

28 . آدم من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

29 . نوح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

30 . إدريس وهود وصالح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

31 . إبراهيم وإسحاق وإسماعيل ولوط من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

32 . شعيب من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

33 . يعقوب ويوسف من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

34 . داوود وسليمان من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

35 . يونس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

36 . أيوب واليسع وذو الكفل وإلياس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

37 . موسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

38 . عيسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

39 . محمَّد من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

40 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، آدم ونوح، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

41 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، ادريس ويعقوب ويوسف، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

42 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، أيوب وذو الكفل واليسع والياس، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

43 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، موسى وهارون وعيسى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

44 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، يونس وزكريا ويحيى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

45 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولوط، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

46 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، هود وصالح وشعيب، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

47 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، داوود وسليمان، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

48 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، النبي محمَّد، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

49 . موسوعة صفات الأنبياء من قصص القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

50 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

51 . التَّطرُّف من التهيّؤ إلى الحلّ، المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

52 . ألسنا أمة وسطا، ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2011م.

53 . المنهج وطريقة تحليل المضمون، ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2011م.

54 . الإرهاب (بين قادحيه ومادحيه) المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

55 . الخوف وآفاق المستقبل، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2011م.

56 . سُنن التدافع، شركة الملتقى للطباعة وانشر للطباعة والنشر، بيروت: 2011م.

57 . خريف السُّلطان (الرَّحيل المتوقَّع وغير المتوقَّع) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

58 . من قيم القرآن الكريم (قيم إقداميّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

59 . من قيم القرآن الكريم (قيم تدبُّرية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

60 . من قيم القرآن الكريم (قيم وثوقيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

61 . من قيم القرآن الكريم (قيم تأييدية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

62 . من قيم القرآن الكريم (قيم مناصرة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

63 . من قيم القرآن الكريم (قيم استبصارية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

64 . من قيم القرآن الكريم (قيم تحفيزية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

65 . من قيم القرآن الكريم (قيم وعظية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.
66 . من قيم القرآن الكريم (قيم شواهد) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.
67 . من قيم القرآن (قيم مرجعيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.
68 . من قيم القرآن الكريم (قيم تسليمية) شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.
69 . من قيم القرآن الكريم (قيم تسامح)، شركة الملتقي للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.
70 . من قيم القرآن الكريم (قيم تيقُّنيّة)، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.
71 . الرَّفض استشعار حرية، دار الملتقى، بيروت، 2011م.
72 . تقويض القيم (من التكميم إلى تفجّر الثورات)، شركة الملتقى، بيروت، 2011م.
73 . ربيع النَّاس (من الإصلاح إلى الحلّ) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011م.
74 . موسوعة القيم من القرآن الكريم، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2012م
75 . أسرَّار وحقَّائق من زمن القذافي، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ودار المختار طرابلس، 2013م.

76 . وماذا بعد القذافي؟ المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

77 . ثورات الرّبيع العربي (ماذا بعد؟) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

78 . العزل السّياسي بين حرمان وهيمنة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

79 . السياسة بين خلاف واختلاف، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 3014.

80 . الهويّة الوطنيَّة بين متوقَّع وغير متوقَّع، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014.

81 . العفو العام والمصالحة الوطنيَّة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

82 . فوضى الحلّ، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

83 . بسم الله بداية ونهاية، القاهرة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، 2015.

84 . من معجزات الكون (خَلق . نشوء . ارتقاء)، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2016م.

85 . مقدّمة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

86 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

87 . آدم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

88 . إدريس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

89 . نوح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م 89 .

90 . هود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

91 . صالح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

92 . لوط من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

93 . إبراهيم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

94 . إسماعيل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

95 . إسحاق من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

96 . يعقوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

97 . يوسف من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

98 . شعيب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

99 . أيوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

100. ذو الكفل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

101 . يونس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

102 . موسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

103 . هارون من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

104 . إلياس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

105 . اليسع من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

106 . داوود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

107 . سليمان من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

108 . زكريا من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

109 . يحيى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

110 عيسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

111 . محمّد من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

112 . الدّعاء ومفاتيحه، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2017م.

113 . صُنع المستقبل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

114 . الفاعلون من الإرادة إلى الفعل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

115 . مبادئ التنمية البشريَّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

116 . من الفِكَر إلى الفِكْر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

117 . التهيؤ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

118 . منابع الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

119 . الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

120 . المبادئ الرئيسة للسياسات الرّفيعة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2018م.

121 . تحدّي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

122 . الواحدية من الخلق إلى البعث، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

123 . مبادئ تحدي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

124 . المعلومة الصَّائبة تصحح الخاطئة (من الخوف إلى الإرهاب) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

125 . الممكن (متوقَّع وغير متوقَّع) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

126 . مبادئ فكّ التَّأزُّمات، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

127 . الأهداف المهنيَّة ودور الأخصائي الاجتماعي، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

128 . تصحيحا للمفاهيم (فاحذروا)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

129 . العدل لا وسطية ولا تطرف، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

130 . غرس الثِّقة (مبدأ الخدمة الاجتماعيَّة)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

131 . مفاهيم الصَّلاة والتسليم على الأنبياء، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2018م.

132 . الخدمة الاجتماعيَّة (قواعد ومبادئ قيميَّة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

133 – كيفيَّة استطلاع الدراسات السَّابقة مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

134 – الخدمة الاجتماعيَّة (تحليل المفهوم ودراسة الحالة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

135 – الخدمة الاجتماعيَّة (مبادي واهداف قيميَّة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

136 – الخدمة الاجتماعيَّة (مفاهيم مصطلحات)، مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

137 – التنمية البشريَّة (كيف تتحدّى الصّعاب وتصنع مستقبلًا)، مكتبة القاضي، القاهرة، 2018م.

138 - مبادئ الخدمة الاجتماعيَّة (تحدّي الصّعاب وإحداث النُّقلة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

139 _ الإرهاب بين خائف ومخيف، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

140 _ التَّطرُّف من الإرادة إلى الفعل، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

141 _ البحث العلمي (المنهج والطَّريقة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

142 _ العدل ينسف الظُّلم، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

143 _ تقويض الإرادة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

144 _ القوَّة تفكّ التَّأزُّمات، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

145 _ إحداث النُّقلة تحدٍّ، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

146 _ نيل المأمول قمَّة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

147 _ نحو النظريَّة خلقا، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

148 _ نحو النظريَّة نشوء، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

149 _ نحو النظريَّة ارتقاء، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

150 – الخلاف (في دائرة التَّاريخ) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

151- القواعد المنهجية للباحث الاجتماعي والقانوني، القاهرة: دار القاضي، 2220.

152 – قواعد البحث للعلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة، 2020م.

153 – خطوات البحث العلمي وصناعة الأمل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

154 – المنهج العلمي وإحداث النُّقلة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

155- دراسة الحالة ودور الأخصائي الاجتماعي، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

156- قواعد البحث العلمي وصنع المستقبل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

157- وسائل التأهب للبحث العلمي، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

158- حلقات صناعة المستقبل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

159- أمحمَّدٌ أميٌّ، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

160- طرق البحث العلمي ونيل المأمول، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

161- الطَّريقة العلميَّة لتحليل مضمون القيم، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

162-كسر الوهم، القاهرة: مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

163- معجزات وبعضها من بعض، المصرية، القاهرة: 2022م.

164 . أيد السارقِ تقطع، المصرية، القاهرة: 2022م.

165 – العقل من اللاشيء إلى الشَّيء دراية، مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

166 – النُّقلة من التكيف إلى التوافق، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

167 – أوهام الأنا (اللاهويَّة)، مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

168 – استرداد السِّيادة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م

169 – موت الموت، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

170 – العقل قيد (من الأمّية إلى الاستنارة)، مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

171 – الرِّجال القوامة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

172- الدِّراية من الأمر إلى الطاعة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

173- النشوز والقيم القوَّامة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

174 – استطلاع الدراسات السَّابقة (من حيرة الباحث إلى نيل المأمول)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

175 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة (قواعد ومبادئ)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

176 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة، (غرسُ ثقة، تحدّي صِعاب، إحداثُ نُقلة)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

177 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (الدَّور المهني للأخصائي الاجتماعي)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

178 – الخدمة الاجتماعيَّة النّاهضة (من التكيُّف إلى صنع الأمل)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

179 – الخدمة الاجتماعيَّة النّاهضة (مجالاتها عمليَّاتها وسائلها)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

180 – الشَّخصيَّة (من الترجّي إلى التحدي)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

181 – الشَّخصيَّة الليبيَّة، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

182 – الشَّخصيَّة المتهيّأة، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

183 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (دراسة الحالة من النشوز إلى قطع اليد)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

184 – الشَّخصيَّة المتأهِّبة، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

185 – الانحراف من النّشوز إلى الضَّرب، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

186 – التدبُّر، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

187 – التفكير (من التذكُّر إلى التَّفكُّر)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

188 – الاستنارة (من الاستظلام إلى الاستجلاء)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

189 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة (من إنجاز الأهداف إلى نيل المأمولات)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

190 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة (المستويات القِيميَّة للتحليل العلمي)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

191- الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (الأهداف المهنيَّة وإحداث النُّقلة)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

192 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (تحدي الصِّعاب يمكن من بلوغ الغايات)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

193 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (من الإرادة إلى تفعيل المشاركة)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

194 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة (التطرف بين المعلومة الخاطئة والمعلومة الصَّائبة)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

195 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (كيف تصنع أملا)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

196 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (الخوف استطلاع مستقبل من التذكُّر إلى التَّفكُّر)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

197 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (مجالات مهنة واستنارة عقل)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

198 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (المبادئ القِيميَّة لرعاية الأفراد وتنظيم المجتمع)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

199 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة (طرق متساندة مترابطة)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

200 – موسوعة الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

201. الشَّخصيَّة الوطنيَّة الليبيَّة (سيادةً وهويَّةً)، دار النخلة للنشر، طرابلس: 2023م.

202 . أرسول ويغزو؟!، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2024م.

203 . الوجودُ الخَلقي (مِنَ اللاشيء عدمًا إلى الاستخلافِ)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2024م.